المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية التربية للبنات للأقسام الأدبية
بمكة المكرمة



بلاغة المتشابه اللفظي
في تفسير البحر المحيط لأبي حيان

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في تخصص البلاغة والنقد

إعداد الطالبة
مريم بنت عبدالله بن علي القرشي

إشراف
أ.د. يوسف بن عبدا لله الأنصاري

العام الدراسي
١٤٣٢ -١٤٣٣هـ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الذي أنزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، الذي أرسله الله مبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان. أما بعد:

فقد خص الله سبحانه وتعالى أهل القرآن بالفضل الكبير ألا وهو تدبر آياته وحث على ذلك فقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾النساء: ٨٢. فليس يمكن الوقوف على إعجازه إلا بعمق التدبر حتى يتجلى للعقل اكتشاف آفاق أخرى من آفاق إعجازه التي لا تنتهي، وإدراك ما أدركه العلماء السابقون، واستيعابه وفهمه حتى تؤتي القراءة ثمارها من ذلك الكتاب المبارك المبين الذي لا تنقضي عجائبه، ولا تنفد غرائبه ولا يمكن لكل أحد الإحاطة ببلاغته ولهذا عجز العرب عن محاكاته، ولم يستطيعوا أن يأتوا بمثل سورة في بلاغته، وقد نبه العلماء رحمهم الله إلى أن إعجاز القرآن لا يدرك إلا عن طريق البلاغة،وفي هذا الصدد يقول أبو هلال العسكري "وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله به من حسن التأليف، وبراعة التركيب وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف، وضمنه من الحلاوة، وجلّله من رونق الطلاوة، مع سهولة كلمه وجزالتها، وعذوبتها وسلاستها إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها وتحيرت عقولهم فيها"[١].

والقرآن الكريم أصح مصدر تنوعت فيه طرق التعبير، فكل من تصدى للبحث والتأليف في البلاغة العربية كان القرآن زاده الذي لا ينضب ، يمده بفيض

1) الصناعتين لأبي هلال العسكري، تحقيق :علي محمد البجاوي ومحمد ابو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي، ط ٢ ، ص٧.

وافر من الأمثلة والشواهد، وقد بحث علماء العربية في بلاغة القرآن الكريم، وأدى ذلك إلى ظهور العديد من الكتب التي تبحث في معانيه، ومشكله ، ومجازه ، ونظمه، وإعجازه "وإن من أعظم مظاهر إعجازه البياني ذلك التشابه العجيب بين كثير من آياته. فقد تتشابه الآيتان أو الثلاث، أو أكثر من ذلك في معظم ألفاظها وتختلف في بعضها، ويكون الاختلاف بينها على وجوه منها، تقديم بعض الألفاظ في موضع، وتأخرها في موضع آخر، أو ذكر حرف مكان حرف، أو كلمة مكان أخرى، أو مجيء كلمة في مكان وخلو المكان الآخر منها أو غير ذلك من مظاهر التشابه اللفظي"[1].

ونجد أن التشابه اللفظي من أجل علوم الإعجاز، ولكنه لم ينل حظه من الدرس والتأليف في القديم والحديث، ومازالت الأبحاث والدراسات حول الآيات المتشابهات في حاجة إلى دراسة وإلى نظر عميق، وذلك لدقة هذا العلم، الذي لا تتكشف أسراره إلا لمن توفرت لديه موهبة خاصة من العلماء الراسخين وهم قلة.

وقد اخترت بتوفيق الله، ثم بفضل أستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور: يوسف بن عبدالله الأنصاري أن يكون موضوع بحثي لنيل درجة الدكتوراه في بلاغة المتشابه القرآني في تفسير أبي حيان إسهاماً مني في خدمة كتاب الله الكريم ، راجية من الله تعالى العون والتوفيق .

وهناك أسباب عديدة دعتني إلى اختيار هذا الموضوع المبارك،ويمكن إيجازها في الآتي :

أولاً: الحاجة الماسة إلى دراسة المتشابه اللفظي إذ أنه من أعظم مظاهر إعجاز القرآن الكريم، حيث تتشابه الآيتان أو الثلاث أو أكثر من ذلك في معظم ألفاظها وتختلف في بعضها، كما أن في دراسة هذا العلم من العجائب

---

1) من بلاغة المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، د. محمد الصامل دار إشبيليا، ط١، ١٤٢٢هـ – ٢٠١١م، ص٥.

والإعجاز ما يحتاج إلى زيادة تأمل وعمق نظر. وبخاصة أنه قد غفل عنه كثير من الباحثين، فلم يأخذ حقه من الدراسة، في حين كثر حديث الدارسين عن الموضوعات البلاغية في جانبيها النظري والتطبيقي.

ثانياً: بيان الحكمة من التشابه والاختلاف في النظم القرآني والرد على الملحدين الطاعنين في القرآن، من خلال ما تشابه أو تماثل أو تكرر من ألفاظه وآياته، وأن ذلك سرّ من أسرار إعجازه.

ثالثا: العودة إلى أصول علم المتشابه اللفظي وكيف تعامل معه علماء البلاغة باعتباره أداة للكشف عن أسرار البيان القرآني، وذلك من خلال إبراز جهود أبي حيان في تجلية مباحث هذا العلم، وما أضافه. إذ لم أقف على بحث تناول المتشابه اللفظي في أي تفسير من تفاسير القرآن الكريم التي تضمنت شيئاً من ذلك.

رابعاً: بيان القيمة العلمية لتوجيهات الآيات المتشابهات في تفسير البحر المحيط لأبي حيان. فقد بينت الدراسة ما اشترك فيه أبو حيان مع غيره من علماء المتشابه والمفسرين ، وبيان ما أضافه في هذا المجال وهذا هو الهدف الأهم.

مشكلة البحث:

تهدف الباحثة من بحثها في "تخصص البلاغة والنقد" أن يجيب عن الأسئلة التالية:

ما الذي أضافه أبو حيان إلى هذا العلم، وما الأسرار البلاغية التي توصل إليها من خلال تناوله للآيات المتشابهات؟

هل أفاد أبو حيان ممن سبقه من علماء المتشابهات، ومن المفسرين الذين كانت لهم عناية بالمتشابه اللفظي في القرآن الكريم؟

هل كانت له آراء مختلفة عمن سبقه من علماء المتشابه المختصين في هــذا العلم؟

إلى أي مدى وفّق أبو حيان في توجيهه للآيات المتشابهات التــي رأى أنهــا تحتاج إلى دراسة و تعليل؟

منهج البحث وحدوده:

تقوم الدراسة بمشيئة الله تعالى على المــنهج الاســتقرائي الــذي يــستخرج النصوص المتعلقة بالمتشابه اللفظي في تفسير أبي حيان.ثم المنهج التحليلــي الــذي يحلل هذه النصوص ويوازن بين آراء أبي حيان حول المتشابه اللفظي في تفــسيره وبين آراء من سبقه من العلماء الذين تكلموا في هذا العلم، ومن لحقه مــنهم. وقــد استفدت من هذا المنهج في دراسة وتحليل الأمثلة والنماذج.

أما حدود البحث فهي محصورة في جمع أقوال أبــي حيــان فــي الآيــات المتشابهة من تفسير البحر المحيط ودراستها دراسة كاشفة عن مكانته. وبيان جهوده المباركة في الكشف عن بلاغة القرآن المعجزة من خلال بلاغة المتشابه اللفظي في القرآن الكريم.

الدراسات السابقة:

اعتنى الدارسون المحدثون بتحقيق كتب المتشابه القرآنــي لــدى المتقــدمين تحقيقاً علمياً، وهذا أمر حسن يحمد لهم، فقد أصبحت كتب المتشابه اللفظي التي ألفها علماؤنا السابقون ــ ممن اعتنوا بهذا العلم ــ في متناول الجميع. وتحقيق هذه الكتب وإخراجها يعد مساهمة في إثراء المكتبة الإسلامية ، حيث إن هناك نقصاً في ميدان تفسير وتوجيه المتشابه القرآني. وربما كان السبب في قلة التأليف فــي هــذا العلــم وعورة هذا المسلك، وصعوبته حيث يحتاج إلى نظر دقيق، وصبر بالغ .

ومن أبرز الكتب التي ألفت في هذا العلم:

(متشابه القرآن) لأبي الحسن علي بن حمزة الكسائي (١٨٩هـ) طبع الكتاب محققاً ، وجعله مؤلفه خمسة عشر باباً ، وصرّح بغايته من تأليفه بقوله:(ليكون كتابنا هذا عوناً للقارئ على قراءته وتقوية على حفظه)

(متشابه القرآن العظيم) لأبي الحسين أحمد بن جعفر بن المنادي.(٣٣٦هـ) طبع محققاً ، وقد بين المؤلف أن غرضه من تأليفه :(جمع النظائر من ألفاظ القرآن التي تشتبه على القارئ ليحفظها وإعانة من يريد أن يرد على الملحدين الذين يطعنون في القرآن بأن فيه المكرر والمعاد)

(درة التنزيل وغّرة التأويل) لأبي عبدالله محمد بن عبدالله المعروف بالخطيب الاسكافي وقد حقق تحقيقاً علمياً في رسالةٍ علمية بجامعة أم القرى لمصطفى آيدين.

(البرهان في توجيه متشابه القرآن) لأبي القاسم محمود بن حمزة الكرماني(٥٠٥هـ) وقد طبع الكتاب عدداً من الطبعات بتحقيقات مختلفة منها تحقيق عبد القادر عطا ، وتحقيق أحمد عز الدين .

(ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل) لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي(٧٠٨هـ) وقد طبع الكتاب بتحقيقين. [١]

(كشف المعاني في المتشابه من المثاني) لأبي عبدالله محمد بن إبراهيم المعروف بابن جماعة (٧٣٣هـ) طبع الكتاب طبعةً علميةً محققة[٢].

(فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن) لأبي يحيى زكريا الأنصاري

---

1) احدهما تحقيق سعيد الفلاح ، دار الغرب الإسلامي ، ١٩٨٣م والثاني: تحقيق الدكتور محمود كامل أحمد، بيروت ،١٩٨٥م.

2) أحدهما بتحقيق الدكتور عبد الجواد خلف ، جامعة الدراسات الإسلامية ، كراتشي ، والثاني: تحقيق الدكتور مرزوق علي إبراهيم ، دار الشريف ، ط١ ، ١٤٢٠هـ.

(٩٢٦هـ) وهو مختصر جداً أفاد المؤلف فيه ممن سبقه،وطبع الكتاب بتحقيقين[1].

أما الدراسات الحديثة في هذا المجال على حدّ علمي:

(دليل المتشابهات اللفظية في القرآن الكريم) للدكتور محمد الصغير وقد أخذ المؤلف طريقة السخاوي في كتابه إلا أنه أعاد ترتيب الآيات حسب السور، وزاد عليه الكثير من الآيات ، وهو من المصنفات التي لم تعن ببيان العلة وسر الاختلاف بين الآيات، لكنها تتميز بالتنظيم والترتيب والتبويب لآيات المتشابه القرآني. ومن أمثلة ذلك أيضاً (تنبيه الحفاظ للآيات المتشابهات الألفاظ) لمحمد المسند. و(دليل الآيات متشابهة الألفاظ) للدكتور سراج ملائكة.

(من بلاغة المتشابه اللفظي في القرآن الكريم) للدكتور محمد بن علي الصامل وقد ذكر فيه مؤلفات العلماء في المتشابه اللفظي وناقش فيه عدة مسائل في عشرة مواضع للآيات المتشابهات في القرآن الكريم، وأصل هذا الكتاب حلقات كانت تبث في إذاعة القران الكريم.

(متشابه النظم القرآني بين الاسكافي والغرناطي) للدكتور محمود حسين مخلوف، وهو كتاب استقصى فيه المؤلف مواضع المتشابه لدى الإمامين، مع تمييز المشترك بينهما والمستدرك من الخالف على سلفه ، وتحليل المتشابه لديهما.

(المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية) دراسة تحليلية لتراث علماء المتشابه اللفظي للدكتور صالح بن عبدالله الشثري وهو عبارة عن دراسة لتراث أهل العلم في توجيه المتشابه اللفظي ، وقد استعرض فيه الكتب التي قامت عليها هذه الدراسة معرفاً بالمؤلف ، وموضحاً مصادر كل كتاب وقضاياه ، ومناقشاً بعضاً من الموضوعات البلاغية لعلماء المتشابه.

---

1) الأول بتحقيق الشيخ محمد علي الصابوني، عالم الكتب ، ط١ ، ١٤٠٥. والثاني: بتحقيق الدكتور عبد السميع محمد أحمد حسنين، الرياض ، ١٤٠٤هـ

(كالحذف، والذكر، والتعريف، والتنكير، والفصل والوصل .. وغير ذلك)

(التوجيه البلاغي للمتشابه اللفظي عند الخطيب الإسكافي) رسالة ماجستير للطالب عائض بن مبارك الحربي جامعة الملك عبدالعزيز، تناول فيها توجيهات الخطيب الإسكافي، ودرس مسالك التوجيه عنده وبين فضله في السبق في مجال التأليف في المتشابه، وما تميزت به توجيهاته.

(ابن أبي الإصبع المصري وجهوده في المتشابه القرآني) للدكتور يوسف بن عبدالله الأنصاري، وقد بين فيه الدكتور يوسف جهد ابن أبي الإصبع في توجيه الآيات المتشابهات في القرآن الكريم ، وتناول فيه التعريف بابن أبي الإصبع ، وتحديد المراد بالمتشابه القرآني وأهم كتبه ، واستقصى فيه جميع المواطن التي تناول فيها ابن أبي الإصبع الآيات المتشابهات .

(المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وتوجيهه) رسالة مقدمة لقسم القرآن وعلومه بكلية أصول الدين في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض للطالب محمد بن راشد البركة ، وقد أطال مؤلفها في دراسة الجانب النظري للمتشابه اللفظي، وتوسع كثيراً في ذكر قواعد التوجيه عند الأئمة السابقين، حتى أوصلها إلى ما يقرب الخمسين، وقد اكتفى بذكر الأمثلة المتعلقة بكل قاعدة دون أن يناقش أو يحلل هذه الأمثلة.

ومن الدراسات الحديثة أيضاً ، " دراسة عن توحد المضمون وتبدل النسق في القرآن الكريم" للدكتور : صفوت عبد الله الخطيب . وجاء هذا البحث في قضية التوحيد مضمونا عاما في القرآن الكريم ومتتبعا لتبدل الأنساق مع اختلاف المواضع في إطار هذا المضمون العام ، يقول في ذلك " آثر بحثنا اصطناع الأطر الرئيسية أو القضايا العامة ، وتقسيمها إلى محاورها الفرعية التي تملي النصوص قسمتها إليها ، ثم كان النظر بعد ذلك في تلك النصوص في إطار السياق العام الذي يحكم كل نص على حده ، ثم في إطار المحور الفرعي والقضية العامة التي يدور في

فلكها ليمكن تمييز النسق البلاغي الذي كان حقيقا به ، وفي الحسبان أن ذلك وقوف على أحد الأسس الفكرية ، أو محاولة لإدراك ووعي هذه الأسس التي أنتجت النص القرآني نصا بليغا مثالا ، أرضى الذوق العربي وبهر المتلقي وأعجزه فصار مطلبه من جهة كما صار النمط المثال لفلسفة التذوق الإبداعي للغة العربي من جهة أخرى"[1]

وهذه الدراسات البلاغية تشكل مصادر أصيلة يعتمد عليها البحث تسهم بمشيئة الله في إثرائه.

[1]) توحد المضمون وتبدل النسق في القرآن الكريم ، دراسة في القيم البلاغية . د/ صفوت عبدالله الخطيب، دار آتون _ القاهرة _ ط٢ _ ١٩٩٨ .

خطة البحث

المقدمة: تحتوي على:

أهمية الموضوع وأسباب اختياره ومنهجه والدراسات السابقة.

التمهيد: يشمل:

تعريف المتشابه اللفظي، ونشأته، ومصنفات العلماء في هذا العلم.

التعريف بأبي حيان ومؤلفاته، وشيوخه، ومصادر أبي حيـــان فـــي توجيهـــه للآيات المتشابهات في تفسيره .

الفصل الأول: الأسرار البلاغية في المتشابه من الحروف.

المبحث الأول: إبدال حرف بغيره.

المبحث الثاني: الفك والإدغام.

المبحث الثالث: الذكر والحذف.

الفصل الثاني: الأسرار البلاغية في المتشابه من الألفاظ.

المبحث الأول: التعريف والتنكير.

المبحث الثاني: الإفراد والجمع.

المبحث الثالث: الذكر والحذف.

المبحث الرابع: التقديم والتأخير.

المبحث الخامس: تغير بنية الكلمة.

المبحث السادس: تغير الكلمة بكلمة أخرى أو إبدالها.

الفصل الثالث: الأسرار البلاغية في المتشابه من الجمل.

المبحث الأول: التكرار.

المبحث الثاني: اختلاف صياغة الجملة.

الخاتمة: تعرض نتائج البحث.

الفهرس. قائمة بالمصادر والمراجع.

وبعد: فإني أتوجه بالحمد والثناء إلى رافع السماء الذي وفقني وأحاطني برعايته وغمرني بفضله وأسبغ علي نعمه ظاهرة وباطنة ولم يزل لي معيناً وهادياً. فاللهم لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك.

ثم أتقدم بالشكر الجزيل والعرفان بالجميل إلى أستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور: يوسف بن عبدالله الأنصاري الذي منحني خالص نصحه وسديد توجيهاته وأمدني بكل ما يستطيع من علم ووقت حتى تم هذا البحث فجزاه الله عني خير الجزاء وحفظه ذخراً للعلم وطلابه.

كما أتوجه بالشكر والامتنان إلى جامعة أم القرى وإلى كلية التربية للبنات التي خرج هذا البحث في رحابها. وإلى قسم الدراسات العليا بها.

كما أشكر كلّ من قدم لي المساعدة أو وجه لي النصيحة، حتى اكتمل هذا البناء وخرج إلى النور. وأخص بالشكر والدتي أمدّ الله في عمرها ومتعها بالصحة والعافية على ما لقيته منها من دعوات صادقة كان لها أعظم الأثر في نفسي، وفي إتمام هذا البحث، كما أقدم شكري وتقديري إلى شريك دربي على كلّ ما بذله من أجلي، وما تحمّله من صعاب حتى تم هذا البحث.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التمهيد

تعريف المتشابه اللفظي في اللغة والاصطلاح، ومصنفات العلماء في هذا العلم

تعريف المتشابه في اللغة:

شبه: الشين والباء والهاء أصل واحد يدل على تشابه الشيء وتشاكله لوناً ووصفاً يقال: شِبْه وشَبه ومشبّه، والشبه من الجواهر الذي يشبه الذهب والمشبّهات من الأمور: المشكلات، واشتبه الأمران إذا أشكلا[١].

ويقول الزمخشري، مسألة شِبه شبةٌ وشبيه وفيه شبه منه، واشتبها، وشبهته به وشبهته إياه، واشتبهت الأمور وتشابهت: التبست لا شبَاه بعضها بعضاً[٢].

وأما المتشابه فأصله أن يشتبه اللفظ في الظاهر مع اختلاف المعنى، كما قال في وصف ثمر الجنة ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ﴾ أي متفق المناظر مختلف الطعوم[٣].

وأصل "التشابه" : أن يشبه اللفظ اللفظ في الظاهر، والمعنيان مختلفان. ثم قد يقال لكلّ ما غَمُض ودقّ: متشابه، وإن لم تقع الحيرة فيه من جهة التشبه لغيره. ومثل المتشابه "المشكل" وسمي مشكلاً: لأنه أشكل، أي دخل في شكل غيره فأشبهه وشاكله[٤].

فالمتشابه عند أهل اللغة يطلق على ماتماثل من الأشياء وأشبه بعضها بعضا ، وعلى مايلتبس من الأمور .

---

1) معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس، تحقيق : عبد السلام هارون ، دار الجيل ، ج٣، ص٢٤٣.

2) أساس البلاغة: للزمخشري، تحقبق : عبد الرحيم محمود ، دار المعرفة ، بيروت ، ص٢٢٨.

3) البرهان في علوم القرآن للزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبه العصرية ، بيروت ج٢، ص٦٩.

4) تأويل مشكل القرآن: ابن قتيبة تحقبق : السيد أحمد صقر ، دار التراث ، ط٣ ، ص١٠١-١٠٢.

تعريف المتشابه اللفظي في الاصطلاح

المراد با لمتشابه اللفظي في القران : "الآيات التي تكررت في القرآن الكريم في القصة الواحدة من قصص القرآن أو موضوعاته في ألفاظ متـشابهة، وصـور متعددة وفواصل شتى، وأساليب متنوعة، تقديماً وتأخيراً، وذكراً وحـذفاً، وتعريفـاً وتنكيراً، وإفراداً وجمعاً، وإيجازاً وإطناباً، وإبدال حرف بحرف آخر، أو كلمة بكلمة أخرى، ونحو ذلك. مع اتفاق المعنى العام، لغرض بلاغي، أو لمعنى دقيـق يـراد تقريره لايدركه إلا من آتاه الله علماً وفهماً لأسرار كتابه، وهي بحق كنز ثمين مـن كنوز إعجازه وسرّ من أسرار بيانه"(١).

ومن الأقوال التي ذكرها ابن جرير في معنى المتشابه "هو ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم عند التكرير في السور، بقصّة باتفاق الألفاظ واخـتلاف المعـاني وبقصّة باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني"(٢).

ولعل أول من عرف المتشابه اللفظي في القـرآن الكـريم بحيـث أصـبح مصطلحاً محدداً توارد عليه العلماء والدارسون هو الأمام بدر الدين الزركشي فـي كتابه البرهان حيث جعله النوع الخامس من علوم القرآن. يقول في تعريفه "هو إيراد القصة الواحدة في صور شتى وفواصل مختلفة ويكثر في إيراد القصص والأنبـاء، وحكمته التصرف في الكلام وإتيانه على ضروب ليعلمهم عجزهم عن جميع طـرق ذلك مبتدأ به ومكرراً"(٣).

وسماه الإمام السيوطي في الإتقان "الآيات المشتبهات" وتناوله ــ رحمه الله ــ فـي كتابه "معترك الأقران" تحت عنوان: الوجه السادس من وجوه إعجـازه متـشابهات

1) المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية ، د/ صالح الشثري، مجمع الملك فهد ، المدينه المنورة ، ١٤٢٥هـ ص٤.

2) تفسير الطبري ، جامع البيان في تأويل القرآن ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ج٣، ص١٧٤.

3) البرهان للزركشي، ج١، ص١١٢.

آياته. يقول في تعريفه "والقصد به إيراد القصة الواحدة في صور شتى وفواصل مختلفة، بل تأتي في موضوع واحد مقدماً وفي آخر مؤخراً. كقوله في البقرة: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ ﴾ وفي الأعراف: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا ﴾ وفي البقرة: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ ﴾ وسائر القرآن "﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ [1].

وعرفه الدكتور الصامل بأنه "ما توارد من الآيات بنوع من التبديل والتغيير"وذكر أن ما تكرر بعينه من الآيات فهو من قبيل المتفق اللفظي، وليس المتشابه، فهناك آيات تكررت بأعيانها دون أن يحدث عليها أيٌّ تعديل أو تبديل، فهذا ما يسمى بالمكرر [2].

---

1) ينظر الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي ، تقديم وتعليق : محمد شريف سكر ، دار إحياء العلوم ، بيروت ، ط٣ ، ١٤١٦هـ ج٢، ص٣١٨. ومعترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي ، ت: أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٨هـ ج١، ص٦٦.

2) انظر من بلاغة المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، للدكتور محمد الصامل ، ص١٣.

المصنفات في علم المتشابه اللفظي

اتجه التأليف في كتب المتشابه اللفظي إلى نوعين:

الأول: مؤلفات ظهر فيها الاقتصار على جمع الآيات المتشابهات تشابهاً لفظياً.

وهذا النوع من التأليف يتمثل فيما قام به بعض أئمة القراءات من جمع النظائر من ألفاظ القرآن التي تشتبه على من يريد حفظ القرآن الكريم، ليتنبه لها، فيتقن حفظها دون أي التباس بما يشبهها[1].

وفي هذا الصدد يقول ابن المنادي موضحاً السبب في تأليف كتب المتشابه على يد فريق من القراء.

"وإنما حملهم على وضعهم إياه للقرأة. رداً من سوء الحفظ، وحداهم كون القرآن ذا قصص. وتقديم وتأخير كثير ترداد أنبائه ومواعظه وتكرر أخبار من سلف من الأنبياء ، والمهلكين من الأشقياء. يأتي بعضه بكلام متساوي الأبنية والمعاني على تفريق ذلك في آي القرآن وسوره. وقد يجيء حرف من غير هذا الضرب، فيأتي بالواو مرّة، وبالتبيان تارة، وأسماء متماثلة، فاستحبوا أن يجمعوا من حروف متشابه القرآن ما إذا حفظ منع من الغلط، لما وصفنا قبل وقد سبقوا إلى هذه التسمية في غير هذا المعنى"[2].

وقد أشار إلى هذا النوع من التأليف الكرماني في مقدمة كتابه "البرهان في متشابه القرآن" فقال: "فإن الأئمة رحمهم الله تعالى قد شرعوا في تصنيفه واقتصروا

---

1) انظر درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي ت/ محمد مصطفى أيدين ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ط١ ١٤١٨هـ ج١ /٦٩

2) متشابه القرآن العظيم لأبي الحسن أحمد بن جعفر بن محمد بن عبدالله بن أبي داوود المنادي ت/ الشيخ عبدالله الغنيمان، ط١، ١٤٠٨هـ.

على ذكر الآية ونظيرتها، ولم يشتغلوا بذكر وجوهها وعللها والفرق بين الآية ومثلها. (وهو) المشكل الذي لا يقوم بأعبائه إلا من وفقه الله لأدائه"[١].

ومن المؤلفات التي اقتصر أصحابها على جمع الآيات المتشابهات تشابها لفظياً. نذكر منها على سبيل المثال:

(متشابه القرآن) لأبي الحسن علي بن حمزة الكسائي وهو أحد القراء السبعة.

(متشابه القرآن العظيم) لأبي حسين أحمد بن جعفر ابن أبي داود المنادي.

(هداية المرتاب وغاية الحفاظ والطلاب في معرفة متشابهات كلام رب الأرباب) لشيخ القراء نور الدين علي بن عبدالله السخاوي.

(التبيان في متشابهات القرآن) تأليف الحافظ جلال الدين السيوطي.

(تنبيه الحفاظ للآيات المتشابهة الألفاظ) لمحمد بن عبدالعزيز المسند. إلى غير ذلك من الكتب التي جمعت الآيات المتشابهات لفظاً[٢].

الثاني: مؤلفات لم يقف أصحابها عند جمع الآيات المتشابهة بل عملوا على توجيهها واستخراج الأسرار البيانية التي ينطوي عليها ذلك التشابه اللفظي.

ويمكن أن تقسم المؤلفات التي اهتمت بجمع وتوجيه الآيات المتشابهة قسمين:

الأول: مصنفات ركزت على توجيه الآيات المتشابهة لفظاً في كتب مستقلة أُلفت في توجيه المتشابه اللفظي. ومن أشهر تلك الكتب:

(درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز) لأبي عبدالله محمد بن عبدالله المعروف بالخطيب.

(البرهان في توجيه متشابه القرآن) لأبي القاسم محمود بن حمزة الكرماني.

---

1) البرهان في توجيه متشابه القرآن لتاج الدين محمود الكرماني، ت/ عبدالقادر أحمد عطا، ط١، ١٤٠٦هـ – ١٩٧٦م، دار الكتب العلمية – بيروت.

2) ينظر مقدمة درة التنزيل بتحقيق د، محمد مصطفى أيدين، ج١، ص٧٢، وما بعدها.

(ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي في آي التنزيل) لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي.

(كشف المعاني في المتشابه من المثاني) لأبي عبدالله محمد بن إبراهيم الحموي الشافعي. المعروف بابن جماعة.

(فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن) للإمام أبي يحي زكريا الأنصاري، وكتاب بدر الدين بن جماعة وغيرها من الكتب الأخرى

الثاني: توجيه الآيات المتشابهة في ثنايا كتب التفسير وعلوم القرآن وغير ذلك.

ومن أشهر تلك الكتب على سبيل المثال:

(الكشاف) للزمخشري.

التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) للفخرالرازي.

(البحر المحيط) لأبي حيان الأندلسي.

(البرهان في علوم القرآن) للزركشي.

(روح المعاني) للألوسي.

(التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور.

وقد تعرض أصحاب هذه التفاسير وغيرها للحديث عن توجيه المتشابه اللفظي في القرآن الكريم أثناء تفسيرهم للآيات التي ورد فيها التشابه، وبعض المفسرين قد يفوقون في تعليلاتهم وتوجيهاتهم أصحاب الكتب التي استقلت بالتأليف في المتشابه.

تفسير البحر المحيط

كان للعلماء السابقين رحمهم الله عناية بالتفسير بالرأي، وكثرت كتب التفاسير التي عنيت بهذا الأمر حتى لا تكاد تحصى. ومن كتب التفسير بالرأي الجائز تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي[١]. وقد يسر الله تعالى لأبي حيان الاشتغال بكتاب الله العزيز في سن السابعة والخمسين. وكانت إرادته أن يتفرغ لذلك بعد سن الستين. يقول في مقدمة تفسيره: "ومازال يختلج في ذكري، ويعتلج في فكري، أني إذا بلغت الأمد الذي يتغضد فيه الأديم، ويتنغص برؤيَتي النديم، وهو العقد الذي يحل عرى الشباب، المقول فيه إذا بلغ الرجل الستين، فإياه وإيا الشواب، ألوذ بجناب الرحمن، وأقتصر على النظر في تفسير القرآن ، فأتاح الله لي ذلك قبل بلوغ ذلك العقد، وبلغني ما كنت أروم من ذلك القصد"[٢].

"ونجد أن تفسير البحر المحيط ظهر في عصر أصبحت فيه الدراسات اللغوية والبلاغية مرتكزاً لعلم التفسير فانعكس ذلك عليه، وأن أبا حيان أندلسي المنشأ والتعليم بالرغم من أنه قد صنف تفسيره بالمشرق الإسلامي، فإن بصمات أستاذه أبي جعفر بن الزبير تبدو واضحة عليه، من خلال اهتمامه المتزايد بعلم المناسبة بين الآيات والسور، والذي يعدّ من الدعائم التي بنى عليها أبو حيان بحره المحيط ، ومع اعتماده على المصادر المغربية والأندلسية فإنه لم يهمل المصادر المشرقية، ويشهد لذلك استمداده من الزمخشري والرازي وابن النقيب، وإن قدرة أبي حيان النحوية تفوق مفسري عصره ومن قبله من المفسرين المغاربة، ومع تقديره لقيمة

---

1) انظر التعبير الفني في القرآن الكريم. د/ بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين ط٦ ١٩٩٤م ص١٠٨-١٠٩.

2) مقدمة تفسير البحر المحيط لأبي حيان ، تحقيق: د/ عبد الرازق مهدي ، دار إحياء التراث العربي ، ط١ ، ١٤٢٣هـ ص٥.

تفسير "الكشاف" واعتماده عليه، فقد وجه إليه النقد في بعض المواضـــع، وكثــرت نقولاته عن ابن عطية وقل نقده له"[1].

وقد أشار بعض المحققين لكتب المتشابه اللفظي إلى تفسير البحر المحيط وأنه من التفاسير التي تناولت الآيات المتشابهة بالتوجيه وتفوقت على الكتب المتخصصة في هذا العلم. يقول محقق درة التنزيل للإسكافي ـــ عند ذكره للكتب التي اهتمت في ثناياها بتوجيه الآيات المتشابهات ـــ "ويلحق بهذا النوع كتب"، تعرض أصـــحابها – في بعض المواضع – للحديث عن توجيه المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، أثنـــاء تفسير القرآن الكريم، أوردّ شبهات الطاعنين، ولكنهم تناولوا هذا النوع من التوجيـــه بمنهج آخر، غير الذي لجأ إليه أصحاب الكتب المتخصصة في هذا الفن، من طرح سؤال وجواب. ولا ننسى في هذا المقام التنبيه إلى أن هؤلاء قد يفوقون. وإن كـــان في قليل من المواضع. على تعليلات وتوجيهات أصحاب هذا الشأن"[2].

وقال محقق البرهان للكرماني: "لقد وجدت أن بعض المفسرين كأبي الـــسعود وأبي حيان تعرضوا في قليل من المواضع للحديث عن المكرر، ولكـــنهم عـــالجوه بمنهج آخر غير الذي لجأ إليه الكرماني. وإن كان في قليل منها تفوق على تعليلات الكرماني"[3].

ومما زاد من قيمة البحر المحيط وأعلى شأنه أنه ضم نصوصاً مـــن كتـــب مازالت مفقودة ومخطوطة ،كما حوى أسماء بعض البلدان والمذاهب والأعلام مـــن قراء وحفاظ وفقهاء وشعراء ونحاة وبلاغيين، كما حـــوى أســـماء بعـــض القبائـــل واللهجات "ويبقى مصنف أبي حيان مصدراً مهما في الدراسات التفسيرية والبلاغية

---

1) المنهج البلاغي لتفسير القرآن الكريم، حسن مسعود الطوير. دار الملتقى، ط١، ١٩٩٨م، بيروت – لبنـــان، ص٢٧٧.

2) مقدمة محقق درة التنزيل وغرة التأويل للإسكافي ص٨٢.

3) مقدمة البرهان في متشابه القرآن للكرماني ت/ عبدالقادر أحمد عطا، دار الكتب العلميـــة ، بيـــروت ط١ ، ١٤٠٦هـــ ص١٤.

على السواء لثراء مادته وجودة استنباطاته وخلوه من التعصب المذهبي، مع جمال أسلوبه ودقة عباراته"[1].

اسمه ونسبه:

هو محمد بن يوسف بن علي ين يوسف بن حيان النفزي[2]. الجياني ، الأندلسي ، ثم المصري ، الشيخ العلامة المحدث البارع ، ترجمان العرب ، ولسان أهل الأدب ، أثير الدين الغرناطي المولد والمنشأ، المصري الدار والوفاة. ولد سنة أربع وخمسين وستمائه في أواخر شوال بطاخشارش وهي مدينة مسورة من أعمال غرناطة، نحوي عصره ولغويه ومفسره ومحدثه ومقريه ومؤرخه وأديبه.

نشأته وثقافته:

نشأ بغرناطة وقرأ بها القراءات والنحو واللغة ، وسمع كثيراً ، ونظم وأقرأ بها العربية من سنة أربع وسبعين وما بعدها ، وسمع أيضاً بالمالقة والمرية والجزيرة الخضراء وجبل الفتح وغيرها[3].

تعلم القرآن وعلوم الدين واللغة بالأندلس والمغرب والجزائر، ثم وفد إلى مصر، وأقام بالإسكندرية زمناً، ثم ذهب إلى القاهرة، وجعلها مقاماً، وسافر إلى كثير من بلدان المشرق، كالحجاز، والعراق ، والشام ، وطلب العلم ، واجتهد فيه ، وحصل على إجازات العلماء، وصار إمام النحويين في وقته[4].

---

1) المنهج البلاغي لتفسير القرآن الكريم، حسن الطوير، ص٢٧٨.

2) نسبة إلى نفزة قبيلة من البربر.

3) انظر ذيل تذكرة الحفاظ ، الحافظ الدمشقي ،دار الكتب العلمية ، بيروت، ص٢٤ ، طبقات الشافعية الكبرى لعبد الرحيم الأسنوي ، دار العلوم ، ١٤٠١هـ ج٦، ص٣٢.

4) انظر الأدب في العصر المملوكي ، محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ج١، ص٢٠٦، نفح الطيب، ج٢، ص٥٤٠.

قال الصفدي: "لم أره قط إلا يسمع أو يشتغل أو يكتب أو ينظر فـــي كتــاب، وكان ثبتاً قيماً عارفاً اللغة، وأما النحو والتصريف فهو الإمام المطلق فيهما"[1].

مذهبه:

كان سالم العقيدة من البدع الفلسفية. قال الأدفوي: "كان ثبتاً صدوقاً حجة سالم العقيدة من البدع الفلسفية والاعتزال والتجسيم". وقال ابن حجــر: "حــضر مجلــس الشمس الأصبهاني ، وكان ظاهرياً وانتمى إلى الشافعية ، واختصر المنهاج ، وكان أبو البقاء يقول إنه لم يزل ظاهرياً. قلت كان أبو حيان يقول "محال أن يرجــع عــن مذهب الظاهر من علق بذهنه"[2].

شيوخه:

" قدم مصر في سنة ثمانين وستمائة فسمع بها الكثير من مشيخة وقته، وقــرأ بها القراءات والعربية، وشيوخه بالقاهرة ومصر كثيرون، مــنهم عبــدالعزيز بــن الصقيل الحراني، ومحمد بن إسماعيل بن الأنماطي، وعبدالرحمن بن خطيب المزة، وغازي الحلاوي، ومحمد بن إبراهيم بن ترجم ، وشامية بنت البكــري، والحــافظ شرف الدين الدمياطي فأكثر عنه وعن خلق آخرين " [3].

"أخذ القراءات عن أبي جعفر بن الطباع، والعربية عن أبي الحسن الأبــذي، وأبي جعفر بن الزبير، وابن أبي الأحوص، وابن الصائغ. وبمصر عن البهــاء بــن النحاس وجماعة، وتقدم في النحو وأقرأ في حياة شيوخه بالمغرب، وسمع الحــديث بالأندلس وأفريقية والإسكندرية ومصر والحجاز من نحو أربعمائة وخمسين شــيخاً، منهم أبو الحسن بن ربيع، وابن الأحوص، والقطب القسطلاني، وأجاز له خلق مــن

---

1) انظر نفح الطيب ، ص٢٤ – ٢٥.

2) طبقات الشافعية الكبرى، ج٦، ص٣٥.

3) ذيل تذكرة الحفاظ للذهبي، ج٥، ص٢٤–٢٥.

المغرب والمشرق ، منهم الشرف الدمياطي ، وابن دقيق العيد ، والتقي بن رزين ، وأبو أيمن بن عساكر" [١].

وقال الفقيه المحدث أبو عبدالله محمد بن سعيد الرعيني الأندلسي في برنامجه عند ذكره شيخه أبي حيان ما ملخصه

إن أبا حيان قال: "سمعت بغرناطة ومالقة وبلش والمرية وبجاية وتونس والإسكندرية ومصر والقاهرة ودمياط والمحلة وطهرمس والجيزة ومنية بني خصيب ودشنا وقنا وقوص وبلبيس وبعيذاب من بلاد السودان وبينبع ومكة شرفها الله تعالى وجدة وأيلة، ثم فصل من لقيه في كل بلد إلى أن قال: وبمكة أبا أيمن عبدالصمد بن عبدالوهاب بن الحسن بن عبدالله بن عساكر، إلى أن قال: فهذه نبذة من شيوخي، وجملة من سمعت منه خمسمائة، والمجيزون أكثر من ألف. وعدّ من كتب القراءات التي أخذ تسعة عشر كتاباً. وقال في حق ابن المليحي أنه أعلى شيوخي في القراءات"[٢].

تلاميذه:

" تتلمذ عليه جماعة من العلماء والأدباء في النحو واللغة والأدب، قرأ عليه صلاح الصفدي الأشعار الستة، والمقامات الحريرية، وسقط الزند للمعري ، وسمع منه تقي الدين السبكي وولداه، وجمال الدين الأسنوي، وابن عقيل. قال الصفدي: قرأ الناس عليه وصاروا أئمة وأشياخاً في حياته[٣]. وأقرأ الناس قديماً وحديثاً وألحق الصِّغار بالكبار، وصارت تلامذته أئمة وأشياخاً في حياته ، والتزم ألا يقرئ أحداً إلا في كتاب سيبويه أو التسهيل أو مصنفاته. قال الصفدي: كان له إقبال على الطلبة

1) شذرات الذهب في أخبار من ذهب للمؤرخ الفقيه الأديب أبي الفلاح عبدالحي ابن العماد الحنبلي، ج٥، ص١٤٣.

2) نفح الطيب، ج٢، ص٥٦٠.

3) الأدب في العصر المملوكي، ج١، ص٢٠٦.

الأذكياء وعنده تعظيم لهم، وهو الذي جسرَّ الناس على مصنفات ابن مالك ورغـــبهم في قراءتها وشرح لهم غامضها، وخاض بهم لججها " [١].

"سمع عليه الجمّ الغفير وأخذ عنه غالب مشيختنا واقراننا منهم الشيخ الوالـــد وناهيك بها لأبي حيان منقبة. وكان يعظمه كثيراً وتصانيفه مشحونه بالنقل عنه"[٢].

مصنّــفاتـــه:

من عيون تصانيفه "البحر المحيط" في التفسير و "شرح التسهيل" وهما كبيران جداً و "ارتشاف الضرب من لسان العرب" و "التجريـــد لأحكـــام ســـيبويه" وكتـــاب "التذكرة" نحو ثلاث مجلدات ، ومن الكتب الصّغار ما ينيف على أربعـــين تـــصنيفاً وغالبها في القراءات والعربية. قال الذهبي: "هو الإمام العلامة ذو الفنـــون ، حجـــة العرب عالم الديار المصرية وصاحب التصانيف البديعة وله عمل جيد في هذا الشأن وكثرة طلب. وقال العلائي: كان علامة كثير النقـــل والاطـــلاع جـــداً إلـــى مـــا لا يوصف"[٣].

قال الصفدي: "وله التصانيف التي سارت وطارت، وانتـــشرت، وانتشـــرت، وقرئت، ودرِّست، ونسخت وما فسخت، أخملت كتب الأقـــدمين، وألهـــت المقيمـــين بمصر والقادمين"[٤].

ومن مؤلفاته التنحيل الملخص من شرح التسهيل للمصنف، وابنه بدر الـــدين والأسفار الملخص من شرح سيبويه للصغار، والتجويد لأحكام سيبويه ، والتـــذكرة في العربية ، أربع مجلدات كبار ، والتقريب في مختصر المغرب ، والتدريب فـــي

---

1) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العـــصرية، بيروت ج١، ص٢٨١-٢٨٢، شذرات الذهب في أخبار من ذهب لأبي الفلاح الحنبلي ، دار المـــسيرة ، ط٢ بيروت ، ج٥، ص١٤٥.

2) طبقات الشافعية الكبرى، ج٦، ص٣٢.

3) انظر ذيل تذكرة الحفاظ للذهبي، ص٢٥.

4) الأدب في العصر المملوكي ج١، ص٢٠٧. نفح الطيب، ج٢، ص٥٥٢.

شرحه ، والمبدع في التصريف ، والارتضاء في الضاد والظاء ، وعقد اللآليء في القراءات على وزن الشاطبية وقافيتها ، والحلل الحالية في أسانيد القراءات العالية ، ونحاة الأندلس والأبيات الوافية في علم القافية، ومنطق الخرس في لسان الفرس، والإدراك للسان الأتراك ، وزهو الملك في نحو الترك والوهاج في اختصار المنهاج للنووي وغير ذلك[١].

وله شعر في ديوان مرتب على الحروف، ونشر أحمد مطلوب، وخديجة الحديثي في بغداد كتاباً سمياه "من شعر أبي حيان الأندلسي"[٢].

مصادره:

يقول في مقدمة كتابه إنه في أوائل سنة سبع وخمسين من عمره بدأ بتأليف هذا الكتاب فيقول: "فعكفت على تصنيف هذا الكتاب وانتخاب الصفو واللباب، أجيل الفكر فيما وضع الناس في تصانيفهم، وأنعم النظر فيما اقترحوه من تآليفهم فألخص مطولها، وأجمع مبددها، وأخلص منقدها، وأضيف إلى ذلك ما استخرجته القوة المفكرة من لطائف علم البيان المطلع على إعجاز القرآن"[٣].

وقد أشار أبو حيان إلى أنه أعتمد على تفسير الزمخشري وتفسير ابن عطية وأنهما من أجلّ التصانيف في علم التفسير، وقد أشاد بمؤلفيهما فقال: "هذان الرجلان هما فارسا علم التفسير، وممارسا تحريره والتحبير نشراه نشراً. وطار لهما به ذكراً، وكانا متعاصرين في الحياة، متقاربين في الممات"[٤].

ويشير أيضاً إلى أنه اعتمد على تفسير ابن النقيب فيقول: "واعتمدت في أكثر نقول كتابي هذا على كتاب "التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير" من جمع شيخنا

---

1) شذرات الذهب، ج٥، ص١٤٧.

2) الأعلام لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين – بيروت. ط٤، ١٩٧٩م، ج٧، ص١٥٢.

3) مقدمة تفسير البحر المحيط، ج١، ص٥-٦.

4) المصدر السابق، ص١٤.

الصالح القدوة الأديب جمال الدين أبي عبدالله محمد بن سليمان بن حسن بن حسين المقدسي، عرف بابن النقيب رحمه الله تعالى، إذ هو أكبر كتاب رأيناه صنف في علم التفسير يبلغ في العدد مائة سفر أو يكاد"(١).

ومن المصادر التي اعتمد عليها أبو حيان من خلال بحثي في توجيهه للآيات المتشابهة الألفاظ "التفسير الكبير" للإمام الرازي وكتاب "البرهان في توجيه متشابه القرآن" لتاج القراء محمود بن حمزة بن نصر الكرماني.

ولقد أفاد أبو حيان كثيراً من مؤلفات سابقيه على اختلاف تخصصاتهم، فأخذ من كتب التفسير والقراءات واللغة والأدب والبلاغة والشعرّ والفقه والحديث وغير ذلك.

وفاته:

مات بالقاهرة شيخ النحاة العلامة أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان النفزي الحياني ثم المصري الظاهري عن تسعين سنة وأشهُر في أوائل سنة خمس وأربعين وسبعمائة(٢).

---

1) مقدمة تفسير البحر المحيط، ص١٥.

2) انظر طبقات الشافعية، ج٦، ص٣٣. الدليل الشافي على المنهل الصافي، جمال الدين أبي المحاسن بن تغري بردي. ت/ فهيم شلتوت، ج٢، ص٧١٥. مكتبة الخانجي القاهرة، بيروت ت.ط.
العبر في خبر من غبر لمؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي، ت/ محمد السعيد بن بسيوني زغلول – دار الكتب العلمية، ج٤، ص١٣٤ – ط ١، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.

الفصل الأول

الأسرار البلاغية في المتشابه من الحروف

المبحث الأول : إبدال حرف بغيره

المبحث الثاني : الفك والإدغام

المبحث الثالث : الذكر والحذف

المبحث الأول

إبدال حرف بغيره

المبحث الأول

إبدال حرف بغيره

إن للحروف أهميتها وأثرها في بناء الألفاظ والجمل ، ففي القرآن الكريم آيات متشابهات تختلف فيها الحروف فترد في موطن بحرف وفي موطن آخر بحرف مختلف ، ولابد أن نتيقن أن اختلاف الحروف في الآيات المتشابهة يعود إلى سياق النص القرآني ، الذي يقتضي حرفاً دون آخر، ومن خلال الشواهد التي سنتناولها سيتضح لنا السر في إبدال الحرف بغيره عند أبي حيان وغيره من العلماء.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ البقرة: ١٢٠.

وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ البقرة: ١٤٥.

وقوله تعالى: ﴿بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ الرعد: ٣٧.

يكشف أبو حيان عن التشابه في الآيات السابقة عند تفسيره للآية الخامسة والأربعين بعد المائة من سورة البقرة فيقول "وجاء في هذا المكان. "من بعد ما جاءك" وقال قبل هذا "بعد الذي جاءك" وجاء في الرعد" "بعد ما جاءك"، فاختص موضعاً بالذي وموضعين بما وهذا الموضع بمن. والذي نقوله في هذا إنه من اتساع العبارة وذكر المترادف لأن ما والذي موصولات فأياً منهما ذكرت كان فصيحاً حسناً. وأما المجيء بمن فهو دلالة على ابتداء بعدية المجيء، وأما قوله: بعد فهو على معنى من، والتبعدية مقيدة بها من حيث المعنى وإن كان إطلاق بعد لا يقتضيها"[١].

ثم يضيف أبو حيان كلاماً آخر لأحد العلماء لم يشر إلى اسمه صراحة فيقول: "وقال بعضهم في الجواب عن ذلك دخول ما مكان الذي لأن الذي أخص وما

---

1) البحر المحيط ج١ ص ٦١٩.

أشدّ إبهاماً فحيث خص بالذي أشار به إلى العلم بصحة الدين الذي هو الاسم المـانع من ملتي اليهود والنصارى. فكان اللفظ الأخص الأشهر أولى فيه. لأنه علـم بكـل أصول الدين، وخصّ بلفظ ما، ما أشير به إلى العلم بركن من أركان الدين، أحدهما القبلة، والآخر الكتاب، لأنه يشار إلى قوله. "ومن الأحزاب من ينكر بعـضه" ٣٧. قال: وأما دخول من ففائدته ظاهرة، وهي بيان أول الوقت الذي وجب علـى النبـي صلى الله عليه وسلم أن يخالف أهل الكتاب في أمر القبلة أي ذلك الوقت الذي أمرك الله فيه بالتوجيه فيه إلى نحو القبلة إن اتبعت أهواءهم كنت ظالماً واضعاً الباطل في موضع الحق"[١].

من خلال ما تقدم من توجيه للآيات نجد أبا حيان في رأيه الأول والذي ينسبه لنفسه يرى أنه لا فرق بين الآيات وأن الاختلاف إنما هو اتساع في العبارة وذكـر للمرادف. ومن الممكن أن يكون ذلك أحد الأسباب ، وليس سبباً كافياً ومقنعاً، حتـى أننا نرى أبا حيان لم يكتف به بل أضاف إليه رأياً آخر أرى أنه قريـب جـداً إلـى السبب الذي اختلفت من أجله الآيات الكريمة. فالذي أخص من ما ، لذا أشير به إلى العلم بصحة الدين وأشير بما إلى القبلة وإلى الكتاب. أما دخول من ففائدته بيان أول الوقت الذي وجب على النبي صلى الله عليه وسلم أن يخالف فيه أهل الكتاب في أمر القبلة.

وهذا التوجيه يفسر رأي أبي حيان عندما قال "وأما المجيء بمن فهو دلالـة على ابتداء بعدية المجيء".

وعند الرجوع إلى كتب المتشابه اللفظي نجد الإسكافي يقدم توجيهـاً طـويلاً اعتمد فيه على مراعاة الجوانب النحوية وضح فيه الفـرق بـين الآيـات الـثلاث

---

1) المصدر السابق ج١ ص٦١٩ .

المتشابهة بدأ فيه بالفرق بين الذي وبين ما واستعمالاتها ثم الفرق بين التعبير بلفظ الذي وبما ثم دخول من على الآية الثانية من البقرة[1].

ويرى الكرماني ما رآه الإسكافي في الدرة في الفرق بين الآيات المتشابهات. إلا أنه أوجز ذلك واختصره ووافقه الفيروز آبادي ونقل عنه ذلك[2].

وحين نقف على ما أورده ابن الزبير الغرناطي نجد أنه قدّم تعليلاً مختلفاً عن سابقيه فهو يرى أن التعبير بالذي في الآية الأولى إسهاب لأن الآية فيها إسهاب. وأما التعبير بما في آية الرعد فمن باب الإيجاز حيث تقدم الآية قوله تعالى: "ومن الأحزاب من ينكر بعضه" فلما لم يتقدم بسط ذكرهم وأوجز الكلام واكتفى بالإيماء ناسبه إيجاز التحذير من حالهم فقال تعالى "ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا واق" فجيء بما وهي أوجز من الذي لفظاً"[3].

ثم يقول: "ولما تقدم قبل الآية الأولى من سورة البقرة عدة آيات في بسط أحوال أهل الكتاب وقبيح مرتكباتهم ولقرب ذلك إلى الآية المقصودة توجّب الوارد فيها قوله تعالى عنهم" وقال الذين لا يعلمون لو لا يكلمنا الله أو تأتينا آية" إلى قوله "يوقنون" ثم عرف من حال أهل الكتابين وبعدهم عن الإيمان بقوله "ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم" فبعد هذا الإطناب في وصفهم قال تعالى "ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير" وهذا مناسب لما قبله من الإطناب لفظاً.

---

1) انظر درة التنزيل ج١ / ٢٧٠-٢٨١.

2) انظر البرهان للكرماني ص٣٣. وينظر بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي، تحقيق: عبد العليم الطحلاوي ، المكتبه العلمية ، بيروت ج١/ ١٤٦. وفتح الرحمن لأبي يحيى الأنصاري ، تجقيق: محمد علي الصابوني ، عالم الكتب ، ١٤٠٥هـ ص ٣٤.

3) ملاك التأويل ج١/ ٢٢٩.

كما أن آية الرعد مناسبة لما قبلها لإيجاز لفظ ما فإنها على حرفين وأما الذي فعلى خمسة أحرف.... ثم يقول. وناسب الإسهاب الإسهاب والإيجاز الإيجاز"[١].

ومن المفسرين الذين ذكروا توجيهاً لهذه الآيات ابن عاشور والذي أشار إلى توجيه الإسكافي بقوله: "إن صاحب درة التنزيل وغرة التأويل حاول إبداء خصوصيات تفرق بين ما اختلفت فيه الآيتان ولم يأت بما يشفى، والذي يرشد إليه كلامه أن نقول إن "الذي" و"ما"وإن كانا مشتركين في أنهما اسما موصول إلا أنهما الأصل في الأسماء الموصولة، ولما كان العلم الذي جاء النبي صلى الله عليه وسلم في غرض الآية الأولى هو العلم المتعلق بأصل ملة الإسلام وببطلان ملة اليهود وملة النصارى بعد النسخ، وبإثبات عناد الفريقين في صحة رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وذلك ابتداء من قوله تعالى "وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه" إلى قوله "قل إن هدى الله هو الهدى" فلا جرم كان العلم الذي جاء في ذلك هو أصرح العلم وأقدمه، وكان حقيقاً بأن يعبر عنه باسم الموصول الصريح في التعريف.

وأما الآية الثانية التي نحن بصددها فهي متعلقة بإبطال قبلة اليهود والنصارى، لأنها مسبوقة ببيان ذلك ابتداء من قوله "سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها" وذلك تشريع فرعي. فالتحذير الواقع بعده تحذير من اتباع الفريقين في أمر القبلة وذلك ليس له أهمية مثل ما للتحذير من اتباع ملتهم بأسرها فلم يكن للعلم الذي جاء النبي في أمر قبلتهم من الأهمية ما للعلم الذي جاء في بطلان أصول ملتهم، فلذلك جيء في تعريفه باسم الموصول الملحق بالمعارف وهو "ما" لأنها في الأصل نكرة موصوفة نقلت للموصولية"[٢].

---

1) المصدر السابق ج١ / ٢٣٠.

2) التحرير والتنويرللإمام محمد الطاهر ابن عاشور ، دار سحنون ، تونس ج٢ ص٣٨-٣٩.

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ البقرة: ٩٤ – ٩٥

وقولـــه تعـــالى ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ ﴾ الجمعة: ٦ – ٧

جاء التعبير في الآيتين المتشابهتين بأداة نفي مختلفة ففي الأولى "لـــن" وفـــي الثانية "لا" فما سر هذا الاختلاف عند أبي حيان وعند غيره من العلماء ؟

ينقل أبو حيان كلام صاحب المنتخب[1] فيقول : "وفي المنتخب" مـــا نـــصه : وإنما قال هنا "ولن يتمنوه" وفي الجمعة "ولا يتمنونه" لأن دعواهم هنا أعظـــم مـــن دعواهم هناك لأن العبادة القصوى فوق مرتبة الولاية ، لأن الثانية تراد لحـــصول الأولى ، ولن أبلغ في النفي من لا ، فجعلها للنفي الأعظم"[2].

وينقل أبو حيان في موضع آخر من تفسيره قول الزمخشري حـــول هـــاتين الآيتين المتشابهتين فيقول "قال الزمخشري . ولا فرق بين لا ولن في أن كل واحـــد منهما نفي للمستقبل ، إلا أن في لن تأكيداً وتشديداً ليس في لا . فـــأتى مـــرة بلفـــظ التأكيد ولن يتمنوه البقرة ٩٥ . ومرة بغير لفظه "ولا يتمنونه" الجمعة ٧[3].

يأخذ أبو حيان بتوجيه صاحب المنتخب وصاحب الكشاف فيرى أن الـــدعوى في آية البقرة أعظم من دعواهم في آية الجمعة . لذلك أكد النفي "بلن" لأنها أبلغ في النفي من لا.

---

1) هو كتاب المنتخب للإمام أبي عبدالله محمد بن أبي الفضل المرسي، مقدمة البحر المحيط ج١ / ٢٣٥.

2) البحر المحيط ج١ / ٤٤٩.

3) البحر المحيط ج٨ / ٣٧١، الكشاف لجار الله الزمخشري دار الفكر ، ج٨ / ١٠٣.

وما نقله أبو حيان هنا موافق لما رآه الاسكافي الذي يفصل القول في هذه المسألة فيقول: "إن الآية الأولى لما كانت مفتتحة بشرط علقت صحته بتمني الموت، ووقع هذا الشرط غاية ما يطلبه المطيع ، ولا مطلوب وراءه على ما ادعوه لأنفسهم، وهو أن لهم الدار الآخرة خالصة من دون غيرهم وجب أن يكون ما يبطل تمنى الموت المؤدي إلى بطلان شرطهم أقوى ما يستعمل في بابه ، وأبلغه في المعنى ، وينتفي شرطهم به .

فكان ذلك بلفظة "لن" التي هي للقطع والثبات . ثم أكدت بقوله تعالى "أبدا" ليبطل تمني الموت الذي يبطل دعواهم بغاية ما يبطل به مثله ... وليس كذلك الشرط الذي علق به تمنى الموت في سورة الجمعة ، لأنه قال :﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾ الجمعة:٦ وليس زعمهم أنهم أولياء لله من دون الناس ، المطلوب الذي لا مطلوب وراءه، لأنهم يطلبون بعد ذلك إذا صح لهم هذا الوصف دار الثواب . فلما كان الشرط في المكان الأول ، ولم يكن الدعوى دعوى غاية المطلوب ، لم يحتج في نفيه وإبطاله إلى ما هو غاية في بابه ، فوقع الاقتصار على "لا يتمنونه"[1].

وقد أخذ بتوجيه الاسكافي الكرماني، وابن جماعة والأنصاري ، والرازي[2].

أما ابن الزبير فقام تعليله على اختلاف الزمان . ففي آية البقرة حكم أخروي مستقبلي وأما آية الجمعة فحكم دنيوي حالي .

يقول في توجيهه "إن آية البقرة لما كان الوارد فيها جواباً لحكم أخروي يستقبل وليس في الحال منه إلا زعم مجرد واعتقاد أن الأمر يكون كذلك ناسبه النفي بما وضعه من الحروف لنفي المستقبل لأن لن يفعل جواب سيفعل ، ولما كان الوارد

---

1) درة التنزيل ج١، ٢٦٧-٢٦٨.

2) انظر البرهان، ٣٢، وكشف المعاني لبدر الدين بن جماعة تحقيق: مرزوق علي إبراهيم ، دار الشريف ، ١٤٢٠هـ ١٠٩، وفتح الرحمن ، ٣٢، والتفسير الكبيراللرازي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ج٣، ١٧٥.

في سورة الجمعة جواباً لزعمهم أنهم أولياء الله من دون الناس وذلك حكـم دنيـوي ووصف حالي لا استقبال فيه ناسبه النفي بلا"[1].

وقد ذكر السهيلي الفرق بين الحرفين في هاتين الآيتـين عنـد حديثـه عـن خواص "لن" وأنها تنفي ما قرب ولا يمتد معنى النفي فيها كامتداد معنى النفي فـي "لا" .

يقول السهلي "فحرف" "لا" لام بعدها ألف ، يمتد بها الصوت ما لـم يقطعـه تضييق النفس، فإذاً امتداد لفظها بامتداد معناها، و "لن" بعكس ذلك ، فتأملـه فإنـه معنى لطيف، وغرض شريف، ألا ترى كيف جاء في القرآن البديع نظمه ، الفـائق على كل العلوم علمه: "ولا يتمنونه أبداً"، بحرف لا في الموضع الذي اقتـرن فيـه حرف الشرط بالفعل فصار من صيغ العموم ، فانسحب على جميع الأزمنة ، وهـو قوله عز وجل: "إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس ، فتمنوا المـوت"، كأنـه يقول: متى ما زعموا ذلك لوقت من الأوقات أو زمن من الأزمان وقيل لهم : "تمنوا الموت"، فلا يتمنونه ، وحرف الشرط دل على هذا المعنى، وحرف "لا" في الجواب بإزاء صيغة العموم ، لاتساع معنى النفي فيها، وقال في سورة البقرة: "ولن يتمنـوه" فقصر من سعة النفي وقرب ، لأن قوله تعالى في النظم "قل إن كانت لكـم الـدار الآخرة" وليست "إن" هاهنا مع "كان" من صيغ العموم ، لأن "كان" ليست بدالة علـى حدث . وإنما هي داخلة على المبتدأ والخبر عبارة عن معنى في الزمان الذي "كان" فيه ذلك الحدث ، فكأنه يقول الآخرة وثبتت (لكم) في علم الله – تعـالى – فتمنـوا الموت الآن. ثم قال في الجواب : "ولن يتمنوه"، فـانتظم معنـى الجـواب بمعنـى الخطاب في الآيتين جميعاً"[2].

---

1) ملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي ، ت: سعيد الفلاح ، دار الغرب الإسـلامي ، بيـروت ، ١٤٠٣ ج١ ص ٢٢٧ .

2) نتائج الفكر لأبي القاسم السهيلي، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٢هـ ص١٠٠ – ١٠١.

ومن خلال ما تقدم من توجيهات أرى أن نظرة السهيلي إلى الحرفين "لن" و"لا" كانت أدق وأعمق – حيث رأى أن "لا" أشمل وأوسع من "لن" لأن آخرها ألف، وهو حرف يطول فيه النفس فناسب طول المدة بخلاف "لن" وتنبه إلى دلالة حرف الشرط على المعنى مع "لا" في الجواب الذي ناسب صيغة العموم لاتساع معنى النفي فيها، فمتى ما زعموا ذلك لوقت من الأوقات أو زمن من الأزمان ، وفي البقرة قصر من سعة النفي لأن حرف الشرط مع "كان" ليس من صيغ العموم لأن كان ليست بدالة على الحدث.

فلن لمجرد النفي أما لا فتستعمل للاستغراق بدليل قوله تعالى "لا تأخذه سنة ولا نوم" ٢٥٥ وقوله تعالى "ولا يئوده حفظهما" ٢٥٥ وقوله تعالى "لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط" ٤٠ الأعراف[1].

وما ذكره الاسكافي وابن الزبير ومن وافقهما من اختلافات حول توجيه الآيات وأسرار هذه الحروف لا تتناقض ، بل هي إضافات تدل على عظمة كتاب الله ودقة أسراره التي لا تتناهى.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾المائدة: ١٣

وقوله تعالى: ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ﴾المائدة: ٤١

لأبي حيان في توجيه الآيتين السابقتين ثلاثة آراء :

الأول: رأي الزمخشري في الكشاف ، والذي يقول فيه "أما عن مواضعه فعلى ما فسرنا من إزالته عن مواضعه التي أوجبت حكمة الله وضعه فيها بما اقتضت شهواتهم من إبدال غيره مكانه، وأما من بعد مواضعه : فالمعنى أنه كانت

1) انظر البرهان للزركشي ج٢ / ٤٢٠ وما بعدها.

له مواضع هو قمن بأن يكون فيها، فحين حرفوه تركوه كالغريب الذي لا موضع له بعد مواضعه ومقاره، والمعنيان متقاربان"[١].

الثاني: رأيه هو حيث يقول "والذي يظهر أنهما سياقان ، فحيث وصفوا بشدة المرد والطغيان وإظهار العداوة، واشترائهم الضلالة ، ونقض الميثاق جاء "يحرفون الكلم عن مواضعه" ألا ترى إلى قوله: "ويقولون سمعنا وعصينا" وقوله فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه، فكأنهم لم يتركوا الكلم من التحريف عن ما يراد بها ، ولم تستقر في مواضعها ، فيكون التحريف بعد استقرارها ، بل بادروا إلى تحريفها بأول وهلة وحيث وصفوا ببعض لين وترديد وتحكيم للرسول صلى الله عليه وسلم في بعض الأمر، جاء "من بعد مواضعه" ألا ترى إلى قوله "يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا" وقوله بعد : " فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم" فكأنهم لم يبادروا بالتحريف بل عرض لهم التحريف بعد استقرار الكلم في مواضعها" [٢].

أما الرأي الثالث: فيظهر أنه منقول عن غيره حيث يقول "وقد يقال إنهما شيئان لكنه حذف هنا وفي أول المائدة: "من بعد مواضعه" لأن قوله : "عن مواضعه" يدل على استقرار مواضع له، وحذف في ثاني المائدة "عن مواضعه" لأن التحريف من بعد مواضعه ، يدل على أنه تحريف عن مواضعه، فالأصل يحرفون الكلم من بعد مواضعه فحذف هنا البعدية ، وهناك حذف عنها، كل ذلك توسع في العبارة، وكانت البداءة هنا بقوله "عن مواضعه" لأنه أخصر وفيه تنصيص باللفظ على عن، وعلى المواضع، وإشارة إلى البعدية"[٣].

---

1) الكشاف للزمخشري ج١ ص٥٣٠.

2)البحر المحيط ج٣، ص٣٧٣.

3)المصدر السابق ج٣، ٣٧٣.

ومما تقدم من آراء أبي حيان نجد أن الرأي الأول للزمخشري ويرى فيه أن المعنيين متقاربان لا فرق بينهما . والرأي الثالث يرجع السبب فيه إلى الاختصار في العبارة في قوله "عن مواضعه" وإلى التوسع في العبارة في قوله "من بعد مواضعه". ولا أرى أن هذين الرأيين يمكن أن يكونا السبب في الفرق بين الآيتين المتشابهتين.

أما الرأي الثاني : والذي أخذ به أبو حيان فأرى أنه الأقرب إلى الصواب . وهو موافق في مضمونه لما قال به علماء المتشابه من قبله" [(١)].

وقد كان لأبي حيان أسلوب مختلف في عرضه للتشابه بين الآيتين – فقد أرجع سبب التشابه إلى السياق – حيث ذكر الآيات المتقدمة والمتأخرة على الآيات المتشابهة واعتمد عليها في توجيهه للآيتين ، ولم يتطرق أبو حيان إلى الجانب النحوي في توجيهه وهو أمام في النحو ، فلم يذكر الفرق بين معنى "عن" و"بعد" حيث إن "عن" تفيد المجاوزة ، و"بعد" لما تأخر زمانه" [(٢)].

ومما تقدم نجد أن توجيه أبي حيان كان بناءً على ملاحظته لسياق الآية ، وعلاقتها بما ورد قبلها وما ورد بعدها ، وهذا يؤكد شمول النظرة وعمق التدبر في تتبع سياق الآيات الكريمة .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ الأنعام: ١١.

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ النمل:٦٩.

---

1)انظر درة التنزيل ج١، ص٤٣٥، وما بعدها، البرهان للكرماني ص٥٦، ملاك التأويل ج١، ٣٧٧، وما بعدها، كشف المعاني ص١٥٤.

2)انظر درة التنزيل ج١، ص٤٣٦، معاني النحو للدكتور فاضل السامرائي ، دار الفكر ، ط٤ ، ١٤٣٠هـ ج٣ ، ص ٤٦ ، الكتاب لسيبويه ، ت: عبد السلام هارون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ج٢، ص٣٠٨.

جاء التفسير بـ"ثم" الدالة على التراخي في آية الأنعام، بخلاف ما جاء في سورة النمل آية "٦٩". وسورة العنكبوت آية "٢٠" وسورة الروم آية "٤٢".

- فقد جاء فيها التعبير بالفاء الدالة على التعقيب.

وفي ذلك يقول أبو حيان معترضاً على توجيه الزمخشري في الكشاف عند تفسيره للآية من سورة الأنعام. "وجاء هنا خاصة" ثم انظروا "بحرف المهلة وفيما سوى ذلك بالفاء التي هي للتعقيب. وقال الزمخشري: في الفرق جعل النظر متسبباً عن السير ، فكان السير سبباً للنظر، ثم قال: فكأنه قيل: "سيروا" لأجل النظر ، ولا تسيروا سير الغافلين، وهنا معناه إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع، وإيجاب النظر في آثار الهالكين. ونبه على ذلك بـ"ثم" "تباعد ما بين الواجب والمباح" انتهى. وما ذكره أولاً متناقض لأنه جعل النظر متسبباً عن السير، فكان السير سبباً للنظر ثم قال: فكأنما قيل: "سيروا" لأجل النظر ، فجعل السير معلولاً بالنظر ، فالنظر سبب له فتناقضا، ودعوى أن الفاء تكون سببية لا دليل عليها وإنما معناها التعقيب فقط ، وأما مثل ضربت زيداً فبكى ، وزنى ماعز فرجم، فالتسبب فهم من مضمون الجملة لأن الفاء موضوعه له، وإنما يفيد تعقيب الضرب بالبكاء وتعقيب الزنا بالرجم فقط، وعلى تسليم أن الفاء تفيد التسبيب ، فلم كان السير هنا سير إباحة ، وفي غيره سير واجب؟ فيحتاج ذلك إلى فرق بين هذا الموضع ، وبين تلك المواضع"[1].

شُغِل أبو حيان عن إبداء رأيه وموقفه من التشابه اللفظي في هذه الآيات، بالتعليق على توجيه الزمخشري والاعتراض عليه. حيث ذكر توجيهه في الفرق بين الآية التي جاءت بحرف المهلة "ثم" وبين ما سواها . والتي جاءت بالفاء ، ثم علق على رأيه وبيّن أنه متناقض ونفى أن تكون الفاء للسببية وأن لا دليل على ذلك.

---

1) البحر المحيط ج٤ ص١٠٨.

وعند الرجوع إلى كتب التفسير التي ذكرت التشابه بين هذه الآيات. نجد أنها لم تختلف عن الزمخشري في الكشاف[١]، ولم يأت أحد بجديد في توجيه هذه الآيات، فقد أخذ عن الزمخشري كلّ من. الرازي[٢]، والبيضاوي[٣]، والنسفي[٤].

ومن المفسرين الذين اعترضوا على كلام الزمخشري أيضاً أبو السعود. حيث يقول في تفسيره "وكلمة ثم إما لأن النظر في آثار الهالكين لا يتسنى إلا بعد انتهاء السير إلى أماكنهم ، وإما لإبانة ما بينهما من التفاوت في مراتب الوجوب ، وهو الأظهر. فإن وجوب السير ليس إلا لكونه وسيلة إلى النظر كما يفصح عنه العطف بالفاء في قوله عز وجلّ ﴿فَٱنظُرُواْ﴾ الآية.

وأما أن الأمر الأول لإباحة السير للتجارة ونحوها ، والثاني لإيجاب النظر في آثارهم، وثم لتباعد ما بين الواجب والمباح فلا يناسب المقام"[٥].

وأما علماء المتشابه ، فأرى أنهم أتوا بتوجيه مناسب للآيات. وفي مقدمتهم الإسكافي في درة التنزيل إذ يقول "فقوله في سورة الأنعام: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ﴾ لم يجعل النظر فيه واقعاً عقيب السير، متعلقاً وجوده بوجوده، لأنه بعث على سير بعد سير لما تقدم من الآية التي تدل على أنه تعالى حداهم على استقراء البلاد ومنازل أهل الفساد، وأن يستكثروا من ذلك ليروا أثراً بعد أثر، في ديار بعد ديار قد عمّم أهلها بدمار، لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ......﴾ ثم قال: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ الأنعام: ٦.

---

1) البحر المحيط ج٤، ص١٠٨.

2) التفسير الكبير للرازي ج١٢، ص١٣٥.

3) تفسير البيضاوي لناصر الدين البيضاوي ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت ج٢ ، ص٧.

4) مدارك التنزيل للنسفي ، دار النفائس ، ط٢ ، ١٤٢٧هـ ج٢، ص٩.

5) إرشاد العقل السليم لأبي السعود العمادي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠٢هـ ج٢، ص١٧٧.

فذكر في قوله: ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ أي قروناً كثيرة أهلكناهم، ثم قال: ﴿ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ ، فدعا إلى العلم بذلك بالسير في البلاد ومشاهدة هذه الآثار، وفي ذلك ذهاب أزمنة كثيرة ، ومدد طويلة تمنع النظر من ملاصقة السير، كما قال في المواضع الأخر التي دخلتها الفاء لما قصد فيها من معنى التعقيب واتصال النظر بالسير، إذ ليس في شيء من الأماكن التي استعملت فيها الفاء ما في هذا المكان من البعث على استقراء الديار وتأمل الآثار، فجُعل السير في الأرض في هذا المكان مأموراً به على حدة، والنظر بعد مأموراً به على حدة، وسائر الأماكن التي دخلتها الفاء عُلق فيها وقوع النظر بوقوع السير، لأنه لم يتقدم الآية ما يحدو على السير الذي حدا عليه فيما قبل هذه الآية، فلذلك خُصّت بـ"ثم" التي تفيد تراخي المهلة بين الفعلين"[1].

وأما الغرناطي في ملاك التأويل فاعتمد في توجيهه أيضاً على سياق الآيات ، فقد ذكر الآيات السابقة للآيات المتشابهات ، وذكر كلاماً طويلاً عند توجيهه للآيات – ثم يقول في آخر توجيهه "وأما ورود ما أعقبت به كلّ آية من هذه من المأمور بالنظر فيه والاعتبار به بالفاء من حروف العطف سوى آية الأنعام فذلك بيِّن ، لأنهم أمروا أن يعقبوا سيرهم بالتدبر والاعتبار ، وحصر نظرهم واعتبارهم في المعقب المذكور بعد الفاء. ولم تقع إشارة إلى اعتبارهم، بغير ذلك، "فكان" مجيء ذلك بحرف التعقيب محرزاً هذا المعنى، ولم يصح غير ذلك. وأما آية الأنعام فإنها افتتحت (بذكر) خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور، وإنما ذكر هذا من الخلق الأكبر ليعتبر بذلك فإنه أعظم معتبر وأوسعه، قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾، فكأن الآية في قوة أن لو قيل: سيروا في الأرض

---

1) درة التنزيل، ج٢، ص٤٩١ – ٤٩٢، وينظر البرهان ص٦٠، كشف المعاني ص١٦٣، فتح الرحمن ص١١٧.

فاعتبروا لخالقها، وكيف دحاها لكم وذللها لسكناكم، وجعل فيها رواسي أن تميد بكم، وفجر فيها الأنهار إلى عجائب ما أودع فيها، وكيف جعل السماء فوقها سقفاً محفوظاً بغير عماد، وزينها بالنجوم لتهتدوا بها في الظلمات، وجعل الشمس والقمر حسباناً وضياء ، وزينة للسماء الدنيا، وكيف محا آية الليل لمصلحة العباد ، وجعل آية النهار مبصرة، إلى ما لا يحصى من منافعها وعجائبها لمن منح الاعتبار قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾، ثم انظروا عاقبة من كذب ونبه فلم يعتبر، فعطف هذا بثم المقتضية مهلة الزمان حيث يراد ذلك"[1].

ونجد أن ابن الزبير الغرناطي يوافق الإسكافي في توجيهه ، إلا أنه يربط آية الأنعام بأول السورة، حيث إنه في كثير من توجيهاته ينظر للسورة من أولها حتى ينتهي للآية المراد توجيهها. إلا أنه لم يذكر الآية التي ذكرها الخطيب، وهي: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ الآية، ونلاحظ أنها الأقرب لسياق الآية التي ورد فيها العطف بـ"ثم".

ولأحد المعاصرين توجيه بديع للآيات يقول فيه:

"ووضع (ثم) في آية الأنعام هذه علاوة على أنه من المناسب للجو العام للسورة يقتضيها السياق أيضاً من عدة نواح، بخلاف سياق آيات النمل الذي يقتضي الفاء. فقد ختمت آية الأنعام بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ وختمت آية النمل بقوله: ﴿ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ والمكذب قد تعطى له مهلة أطول من مهلة المجرم فإن المجرم ، ينبغي أن يؤخذ بجرمه على وجه التعقيب، ولذا جاء مع ﴿ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بثم ، ومع المجرمين بالفاء. فاقتضى ختام كل آية الحرف الذي اختير لها.

---

1) ملاك التأويل ج١، ص٤٢٣-٤٢٤.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن التكذيب والسخرية في النمل أكبر مما في الأنعام فقد جاءت آية النمل بعد قوله تعالى:

﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ النمل: ٦٨.

ثم جاء بالآية: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ .... ﴾

ثم صبَّر الرسول بعدها بقوله: ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ النمل: ٧٠.

فاقتضى كل ذلك التعجيل بالفاء لا الإمهال.

ثم انظر من وجهة أخرى إلى قوله تعالى بعد آية النمل: ﴿ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ النمل: ٧٢، خلاف قوله تعالى في الأنعام: ﴿ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ﴾ فناسب كل ذلك ذكر "ثم" في آية الأنعام وذكر الفاء في آية النمل"[1].

ومن خلال ما تقدم من توجيهات نجد أن جميعها مقبول. فمنها ما اعتمد على سياق الآيات والربط بين الآيات المتشابهة وما تقدمها. ومنها ما اعتمد على التناسب اللفظي بين الآيات المتشابهة وما تقدمها أو تأخر عنها من آيات.

وقد أشار الدكتور الأمين الخضري إلى " إن الأولى حمل ثم على حقيقتها، والبحث في دواعي السياق ومقتضياته عن السر في تراخي النظر في الآية. وهو ما وقع عليه صاحب درة التنزيل. فليس التراخي في النظر دليل الانشغال بغيره، وإنما استدعاه الإكثار في السير وتفقد آثار الأمم الكثيرة البائدة في العصور المتباعدة واستيفاء الإحصاء والوقوف على المقدمات قبل الوصول إلى النتائج لأن النظر المراد هنا نظر الفكر والتأمل، فلما كانت الدعوة إلى السير متسعة في هذا الموضع

---

1) التعبير القرآني د/ فاضل السامرائي، ص١٨٧-١٨٨.

زماناً ومكاناً بقدر اتساع الهالكين وآثارهم تراخت الدعوة إلى النظر حتى لا تكـون نظرة عجلى حمقاء تحمل الكل على الجزء"[1].

ومن ذلـك قولـه تعـالى: ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ الأعراف:١٠١

وقولـه تعـالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ يونس: ٧٤

يذكر أبو حيان الفرق بين﴿ يَطْبَعُ ﴾ و﴿ نَطْبَعُ ﴾ عند تفسيره لآيـة الأعـراف مشيراً إلى الكرماني باسمه يقول: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ أي مثـل ذلك الطبع على قلوب أهل القرى حين انتفت عنهم قابلية الإيمان وتساوى أمرهم في الكفر قبل المعجزات، وبعدها يطبع الله على قلوب الكافرين ممن أتى بعـدهم. قـال الكرماني، "تقدم ذكر الله بالصريح وبالكناية فجمع بينهما فقال "ونطبع على قلـوبهم" وختم بالصريح فقال كذلك يطبع الله، وفي يونس بنى على ما قبله بنون العظمة فـي قوله: ﴿ فَنَجَّيْنَـٰهُ ﴾ يونس: ٧٣. ﴿ وَجَعَلْنَـٰهُمْ ﴾ يونس: ٧٣. ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا ﴾ يونس:٧٤. فناسب الطبع بالنون"[2].

صرّح أبو حيان باسم الكرماني في هذا الموضع وما ذكره مـن فـرق بـين الفعلين.

---

1) من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم ، محمد الأمـين الخـضري ، مكتبـة وهبـه ، ١٤١٤هـ ص٢٨٠-٢٨١.

2) البحر المحيط ج٤، ٤٤٩.

وتوجيه أبي حيان الذي أخذه عن الكرماني موافق للإسكافي في جملته ومختلف معه في اختيار العبارات ، ففي الآية من سورة الأعراف يقول الكرماني. "تقدم ذكر الله بالصريح وبالكناية فجمع بينهما فقال: "ونطبع على قلوبهم" وختم بالصريح فقال: "كذلك يطبع الله".[١]

وقد أشار الإسكافي إلى نفس المعنى ولكن بعبارات أخرى فقال "الآية من سورة الأعراف مبنية على ما تقدمها من الآيات وهي تنتقل من الإضمار إلى الإظهار، ومن الإظهار إلى الإضمار. أعني في إخبار الله عز وجل عن نفسه"[٢].

وأما ابن الزبير فيعود إلى مطلع الآية ، وأنه لا يوجد ما يوجب إضمار الفاعل. فيقول "وأما آية الأعراف" فمبنية على مطلعها من قوله تعالى: "أول الآية" ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ﴾، فلم يتقدم ما يطلب بورود الفاعل مضمراً، "فجاء على ما يجب إذ لا طالب بمناسبة"[٣].

ومما تقدم من توجيهات وما فيها من اختلاف بسيط نجد أنه اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد وجميعها مقبول، ويدل على بلاغة كتاب الله وأسراره التي لا تنفد.

---

1) البرهان ، ص٨٠

2) درة التنزيل، ج٢/٦٤٤.

3) ملاك التأويل، ج١/٥٥٨.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾ الأعراف: ٢٠.

وقوله تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ طه: ١٢٠.

يذكر أبو حيان سبب تعدية الفعل (وسوس) بإلى في طه وباللام في الأعراف فيقول:

"وتعدى وسوس هنا بإلى وفي الأعراف باللام ، فالتعدي بإلى معناه أنهى الوسوسة إليه ، والتعدي بلام الجر قيل معناه. لأجله ، ولما وسوس إليه ناداه باسمه ليكون أقبل عليه وأمكن للاستماع، ثم عرض عليه ما يلقى بقوله: هل أدلك على سبيل الاستفهام الذي يشعر بالنصح ويؤثر قبول من يخاطبه كقول موسى: ﴿ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ النازعات: ١٨، وهو عرض فيه مناصحة، وكان آدم قد رغبه الله تعالى في دوام الراحة، وانتظام المعيشة بقوله: ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا ﴾ الآية. ورغبه إبليس في دوام الراحة بقوله ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ ﴾ من الجهة التي رغبه الله فيها، وفي الأعراف ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ الأعراف: ٢٠ الآية. وهنا ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ ﴾ والجمع بينهما إن قوله ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ ﴾ يكون سابقاً على قوله: ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا ﴾ كما رأى إصغاءه وميله إلى ما عرض عليه ، انتقل إلى الإخبار والحصر" [(١)].

وعند الرجوع إلى كتب المتشابه اللفظي التي سبقت أبا حيان نجد أنها لم تتطرق للتشابه في هاتين الآيتين. أما المفسرون، فلم يتعرض المتقدمون منهم للفرق

---

1) البحر المحيط، ج٦/٣٥١.

بينهما سوى الرازي الذي قال "فوسوس له" معناه لأجله وقوله: "فوسوس إليه" معناه "أنهى إليه الوسوسة" كقوله حدث له وأسرَّ إليه"[1].

فالرازي يكتفي بذكر معنى اللام وإلى دون الإشارة إلى المغـزى مـن وراء ذلك.

ومن المتأخرين الذين أشاروا إلى الفرق بين الآيتين والذي لم يختلف كثيـراً عن الرازي، ابن عاشور الذي يقول في تفسيره "وتعدية الفعل" "وسوس" هنا بحرف "إلى" وباللام في سورة الأعراف "فوسوس لهما الشيطان" باعتبـار كيفيـة تعليـق المجرور بذلك الفعل في قصد المتكلم ، فإنه فعل قاصر لا غنى لـه عـن التعديـة بالحرف، فتعديته بحرف "إلى" هنا باعتبار انتهاء الوسوسة إلى آدم وبلوغهـا إيـاه وتعديته باللام في الأعراف باعتبار أن الوسوسة كانت لأجلهما"[2].

فلم يكن هناك اختلاف بين معنى إلى ومعنى اللام فالأصل في "إلى" أن تكون لانتهاء الغاية. أما اللام فللاختصاص، وفصل المتأخرون من النحاة وذكـروا لهـا معاني يرجع أكثرها إلى الاختصاص[3]. وعندما يقال لأجله أي (شيء يختص به).

فأبو حيان يراعي الجانب النحوي عند توجيهه للفرق بين الآيتـين ، فـذكر معنى اللام ومعنى إلى ، إلا أنه لم يكتف بذلك. بل إنه التفت إلـى أن الفـرق بـين الآيتين ليس فقط هو الفرق بين معنى إلى ومعنى اللام، وإنما ما يـدل عليـه كـلا الحرفين. وما جاء في سياق الآيتين من اختلاف كان سببه اختلاف الحرف في كـل آية. فإنه لما وسوس إليه ناداه باسمه. فإلى تفيد انتهاء الغاية، أي أنه كان في منتهى القرب منه فناداه باسمه وعبر بقوله. هل أدلك ، فجاء على سبيل النصح لشدّة قُربـه منه. وقد ربط أبو حيان في آخر كلامه بين الآيتين في قوله "هل أدلك" وقوله

---

1)التفسير الكبير للرازي. ج٢٢، ص١٠٩.

2)التحرير والتنوير ج١٦، ص٣٢٥.

3) انظر معاني النحو ج٣، ص١٤، وينظر ص٥٥.

"ما نهاكما" فقوله "هل أدلك" سابق على قوله "ما نهاكما" فإنه لما أنهى الوسوسة إليه أصغى إليه ومال إلى ما عرض عليه وفي الآية الثانية من الأعراف انتقل إلى الإخبار والحصر.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ التوبة: ٣٢.

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ الصف: ٨.

ينقل أبو حيان عند توجيهه للآيتين السابقتين قول الزمخشري وابن عطية ويشير إليهما، فيقول عند تفسيره للآية من سورة الصف "تقدم تفسير نظيرها في التوبة وقال الزمخشري أصله" يريدون أن يطفئوا" كما جاء في سورة براءة وكأن هذه اللام زيدت مع فعل الإرادة تأكيداً له لما فيها من معنى الإرادة في قولك: جئتك لأكرمك، كما زيدت اللام في: لا أبالك، تأكيداً لمعنى الإضافة في: لا أبالك، لمعنى وقال نحوه ابن عطية. قال: واللام في قوله. "ليطفئوا" لام مؤكدة دخلت على المفعول لأن التقدير: يريدون أن يطفئوا وأكثر ما تلزم هذه اللام المفعول إذا تقدم تقول: لزيد ضربت، ولرؤيتك قصدت انتهى.

ثم يقول أبو حيان معلقاً على ذلك "وما ذكره ابن عطية من أن هذه اللام أكثر ما تلزم المفعول إذا تقدم ليس بأكثر بل الأكثر: زيداً ضربت من: لزيد ضربت وأما قولهما إن اللام للتأكيد وإن التقدير أن يطفئوا فالإطفاء مفعول "يريدون" فليس بمذهب سيبويه والجمهور"[1].

---

1) البحر المحيط ج٨/ ص٣٦٥.

– التوجيهان السابقان لعلمين من علماء التفسير وقد راعى كلّ منهما الجانب النحوي في تفسيره وقد اتفقا على أن الأصل "يريدون أن يطفئوا" وأن اللام للتأكيد.

– وقد ذكر الإسكافي نحواً من هذا الكلام وكان متوسعاً في ذلك. فقد رأى أن آية التوبة جاءت على الأصل وأن الإرادة في الآية الأولى تعلقت بإطفاء نور الله بأفواههم. وإطفاء نور الله إنما يكون بما حاولوه من دفع الحق بالباطل. وأما الآية في سورة الصف وتعليق الإرادة فيها بالإطفاء مع زيادة اللام فللنحويون في ذلك مذهبين. الأول: أن اللام توضع موضع "أن" لكثرة ما يقال "زرتك لتكرمني" الثاني: أن الفعل معدّى إلى مفعول محذوف واللام الداخلة على الفعل المنصوب تكون منبئة على العلة التي لها أُنشئ الفعل[1].

أما ابن الزبير فقد كان توجيهه مبنياً على الإيجاز والإطناب كعادته في كثير من توجيهاته. وقد أشار هنا إلى عدد الكلمات وزيادة عدد الحروف ، في آية براءة مقال طائفتين منهم اليهود والنصارى وفي الصف مقالة طائفة واحدة [2].

وأرى أن في توجيه ابن الزبير تكلفاً واضحاً.

ومن المفسرين ابن عاشور الذي كان له توجيه جيد راعي فيه الجانب المعنوي واختلاف المقصودين يقول فيه. "وجيء بهذا التركيب هنا لشدة مما حكة أهل الكتاب وتصلبهم في دينهم ولم يجئ به في سورة الصف إذ قال "يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره" لأن المنافقين كانوا يكيدون للمسلمين خفية وفي لين وتملق"[3].

وأما اعتراض أبي حيان على قول ابن عطية في أن اللام أكثر ما تلزم المفعول إذا تقدم. فهو اعتراض في محلّه. فقد جاء في التطور النحوي أن دخول

---

1) انظر درة التنزيل ج٢ / ٧٠٤ وما بعدها.

2) انظر ملاك التأويل ج١ ص٥٨٩.

3) التحرير والتنوير ج١٠ ص١٧٢.

اللام على المفعول يظهر كثيراً في العبرية والآرامية وخصوصاً في الحبشية، ونادر جداً في العربية[١].

ومـــن ذلـــك قولـــه تعـــالى: ﴿ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴾ الأنبياء: ٩٣.

وقولـــــــــه تعـــــــــالى: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾ المؤمنون:٥٣.

يذكر أبو حيان هنا الفرق في التعبير بالفاء والواو في كـــلا الآيتـــين فيقـــول "وجاء هنا "فتقطعوا" بالفاء إيذاناً بأن التقطيع اعتقب الأمر بالتقوى، وذلك مبالغة في عدم قبولهم وفي نفارهم عن توحيد الله وعبادته. وجاء في الأنبياء بـــالواو فاحتمـــل معنى الفاء واحتمل تأخر تقطعهم عن الأمر بالعبادة، وفرح كل حزب بما لديه دليـــل على نعمته في ضلاله وأنه هو الذي ينبغي أن يعتقد وكأنه لا ريبة عنـــده فـــي أنـــه الحق". [٢]

نجد أن أبا حيان في توجيهه للفرق بين الآيتين ، يذكر أن الفاء للتعقيـــب وأن الواو احتمل معنى الفاء واحتمل التأخير – فكيف تكون الفاء بمعنى الواو هنا. فالفاء قد ربطت بين الآيتين. وهي تفسير الإتباع وتؤذن بأن ما بعدها مسبب عما قبلها[٣]. وقد أدرك ذلك الإسكافي في توجيهه للآيات فقال "وتقطعوا أمرهم" جاء بالواو لأنه لم يكن ما بعد الواو كالجواب لما قبلها" وأما الفاء في ســـورة المـــؤمنين فـــي قولـــه: "فتقطعوا" فلأنه لما ذكر الزبر صار قوله: "فتقطعوا" كالجواب لما قبله، لأنهم قطعوا

---

1) انظر التطور النحوي في اللغة العربية ، برجشتراسر ، د/ رمضان عبدالتواب ، مكتبة الخانجي. القـــاهرة، ط٢. ١٤١٤هـــ.

2) البحر المحيط ج٦/ ص٤٩٩.

3) انظر معاني النحو. ج٣، ص٢٠٥.

أمر دينهم كتباً منزلة من الله عزّ اسمه، فمنهم من دان بالتوراة وكفر بما سواها من الإنجيل والقرآن، ومنهم من دان بالإنجيل وكفر بالتوارة والقرآن، فلما كان ما قبل الفاء خطاباً للرسل وأممهم، وقال: ك ونوا جماعة واحدة ذات دين واحد، صار كأنه قال: أمرتهم بالائتلاف والاتفاق في الدين فتقطعوا أمرهم فيه قطعاً، وافترقوا فرقاً، وكلٌ يقدر أنه على صواب، وممتثل بما في الكتاب، فهو فرح بما لديه، ومعوّل عليه، فكان ما بعد الفاء هنا في تعلقه بالأول تعلق الجواب بالمبتدأ" [1].

أما الغرناطي في ملاك التأويل فيذكر كلاماً طويلاً مفاده أن قوله "وتقطعوا" مناسبة الواو لما تقدمه ولم يقع بعد الآية تسجيل بتصميم على الكفر ولا إمعان في طرق التخويف ، والفاء مناسبة لما قبلها، وقوله: فتقطعوا أمرهم" أي فتفرقوا وما أجدى عليهم القرآن شيئاً، فهذه الآية أشد في التخويف والترهيب من الأخرى وكلٌ يناسب ما قبله" [2].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ لقمان: ٢٩.

وقوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾ الزمر:٥.

يذكر أبو حيان الفرق بين قوله "إلى أجل" وقوله "لأجل" عند تفسيره لآية لقمان فيقول:

---

1)درة التنزيل ج٢، ص٩١٦، وما بعدها.

2)انظر ملاك التأويل ج٢، ص٨٥٢-٨٥٣.

"هنا" "إلى أجل" ويدل على الانتهاء، أي: يبلغه وينتهي إليه. وفي الزمر: "لأجل" ويدل على الاختصاص بجعل الجري مختصاً بإدراك أجل مسمى، وجري الشمس مختص بآخر السنة وجري القمر بآخر الشهر، فكلا المعنيين متناسب لجريهما، فلذلك عدي بهما"[١].

وما ذكره أبو حيان في توجيهه موافق لتوجيه الزمخشري الذي يتهم فيه من يقول بتعاقب الحرفين "إلى واللام" بأنه بليد الطبع ضيق العطن" ولا يرى موافقة اللام لـ"إلى" بل يرى أنهما أفادا معنيين مختلفين هما: "الانتهاء والاختصاص" فيقول:

" فإن قلت: يجري لأجل مسمى ويجري إلى أجل مسمى أهو من تعاقب الحرفين؟ قلت: كلا ولا يسلك هذه الطريقة إلا بليد الطبع ضيق العطن، ولكن المعنيين أعني الانتهاء والاختصاص كل واحد منهما ملائم لصحة الغرض، لأن قولك يجري إلى أجل مسمى معناه يبلغه وينتهي إليه، وقولك يجري لأجل مسمى. تريد يجري لإدراك أجل مسمى تجعل الجري مختصاً بإدراك أجل مسمى، ألا ترى أن جري الشمس مختص بآخر السنة وجري القمر مختص بآخر الشهر فكلا المعنيين غير ناب به موضعه" [٢].

وقد وافق الزمخشري الإسكافي الذي راعى الجانب المعنوي في تعليله فقال: "إن معنى قوله "يجري لأجل مسمى" يجري لبلوغ أجل مسمى، وقوله "يجري إلى أجل، معناه لا يزال جارياً حتى ينتهي إلى آخر وقت جريه المسمى له، وإنما خص ما في سورة لقمان بإلى التي للانتهاء واللام تؤدي نحو معناها، لأنها تدل على أن جريها لبلوغ الأجل المسمى ، لأن الآيات التي تكتنفها آيات منبهة على النهاية والحشر والإعادة فقبلها "ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة" وبعدها ((يا أيها

1)البحر المحيط ج٧ / ٢٥٣.

2)الكشاف ج٣ / ٢٣٧.

الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده)) فكان المعنى كل يجري إلى ذلك الوقت، وهو الوقت الذي تكور فيه الشمس وتنكدر فيه النجوم كما أخبر الله تعالى، وسائر المواضع التي ذكرت فيها اللام إنما هي في الإخبار عن ابتداء الخلق وهو قوله: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ﴾، فالآيات التي تكتنفها في ذكر ابتداء خلق السموات والأرض وابتداء جري الكواكب، وهي إذ ذاك تجري لبلوغ الغاية... فاختص ما عند ذكر النهاية بحرفها، واختص ما عند الابتداء بالحرف الدال على العلة التي يقع الفعل من أجلها"[1] ووافقه ابن جماعة وأبو يحيى الأنصاري[2].

أما الكرماني فله تعليل آخر يقول فيه: "إن الأكثر مجيء اللام ، لأنك تقول في الزمان: جرى ليوم كذا، وإلى يوم كذا، وأما آية لقمان فوافق ما قبلها وهو قوله: "ومن يسلم وجهه إلى الله" ويقول في موضع آخر، إن (إلى) متصل بآخر الكلام، ودال على الانتهاء، واللام متصل بأول الكلام، ودال على الصلة" [3].

أما ابن الزبير فبنى توجيهه على أن آية لقمان ناسبها "إلى" لأنها بنيت على الطول. أما الآيات الأخرى فناسبها "اللام" لأنها أوجز.

فقال " إن آية من لقمان تقدمها التنبيه على الاعتبار بها بقوله: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ ﴾ فعطف بواو النسق المقتضية الجمع. فدخل هذا مع ما قبله تحت حكم التنبيه بقوله: ﴿ أَلَمۡ تَرَ ﴾ وحكم التنبيه بالاعتبار منسحب على المجموع للاشتراك في اللفظ والمعنى، فطال الكلام

1) درة التنزيل ص ٢٠٧ – ٢٥٨.

2) كشف المعاني ص٣٧٠، فتح الرحمن ص ٣٣٠.

3)البرهان، ص١٠٣و ص ١٥٤.

بحسب ما اقتضاه مقصوده، فناسب طوله الجر بما يناسبه مما لا يخرج عن معنى اللام الجارة وهو إلى، فانجز الأجل بها. ولما بنيت الآيتان بعد على إيجاز ليس في آية لقمان. ناسبه الجر باللام اكتفاء بما يحرز المعنى المقصود ويناسب التركيب"[1]. ولا أرى أن هذا السبب وجيه وكاف للفرق بين الآيتين.

ومن المفسرين الألوسي الذي يخالف الإسكافي ومن وافقه كالزمخشري وأبي حيان فيقول إن الفعل "جرى" يتعدى بإلى تارة وباللام أخرى ، وتعديته بالأول باعتبار كون المجرور غاية ، وبالثاني باعتبار كونه غرضاً ، فتكون اللام لام تعليل أو عاقبة وجعلها الزمخشري للاختصاص ولكل وجه، ولم يظهر لي وجه اختصاص هذا المقام بإلى وغيره باللام"[2].

أما ابن عاشور فكان متوسطاً بين رأيين وهما أن المخالفة بين الآيتين تفنن في النظم أي إنه لا فرق بين الحرفين إلى واللام ، مشيراً إلى رأي الزمخشري "وهو وإن كان يرمي إلى تحقيق الفرق بين معاني الحروف وهو ما نميل إليه إلا أننا لا نستطيع أن ننكر كثرة ورود اللام في مقام معنى الانتهاء كثرة جعلت استعارة حرف التخصيص لمعنى الانتهاء من الكثرة إلى مساوية للحقيقة" [3].

ومما تقدم من توجيهات أرى أن رأي الزمخشري والذي أخذ به أبو حيان واتفق مع رأي الإسكافي هو المقدّم على جميع التوجيهات، لأنه راعى الجانب النحوي والمعنوي فمعنى اللام هو الاختصاص ، والأصل في "إلى" أن تكون لانتهاء الغاية تقول "جئت إليك" أي نهاية مجيئي إليك[4].

---

1) ملاك التأويل ج٢/ ٩٤٣-٩٤٤.

2) روح المعاني ت: السيد محمد السيد ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٢٦هـ ج٢١ / ١٣٤.

3) التحرير والتنوير ج٢٢ / ٢٨١.

4) انظر معاني النحو ج٣، ص ١٤، ١٥.

والظاهر أن ما ورد باللام يفيد التعليل، بمعنى كلّ يجري لبلوغ الأجــل، أي كلٌ يجري لهذه الغاية كما تقول: كلهم يجري لوصول الهدف ولبلوغه، وأما ما جـــاء بــ"إلى" فهو يفيد الانتهاء[١]. وهذا التوجيه جيد ومبني على ما ذكره علماء النحــو. وما ذكره ابن الزبير من مراعاة للإيجاز والإطناب ، والكرماني في المناســبة بــين الألفاظ أرى أنه بعيد عن السبب الحقيقي في اختلاف الحرفين بين الآيات المتشابهة.

ومن ذلك قولـــه تعـــالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ السجدة: ٢٠.

وقوله تعالى: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ نَّفۡعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ سبأ: ٤٢.

يذكر أبو حيان سبب مجيء الذي في الآية الأولى والتي فـــي الآيـــة الثانيـــة فيقول في آية سبأ "وقيل هنا: ﴿ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ وفي السجدة ﴿ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ . كل منهما أي من العذاب ومن النار، لأنهم هنا لم يكونـــوا ملتبـــسين بالعذاب. بل ذلك أول ما رأوا النار إذ جاء عقيب الحشر، فوصفت لهم النار بأنهـــا هي التي كنتم تكذبون بها ، وأما الذي في السجدة فهم ملابسون للعذاب مترددون فيه لقوله: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ فوصف لهم العذاب الذي هم مباشروه، وهو العذاب المؤبد الذي أنكروه"[٢].

يوجه أبو حيان الآيتين توجيهاً جيداً أرى أنه موافق فيه للرازي في تفـــسيره. وأذكر هنا نص كلام الرازي الذي يقول فيه مفسراً للآية من سورة سبأ "قال ههنـــا

1)انظر المرجع السابق ج٣، ص٥٦.
2)البحر المحيط ، ج ٧ .ص ٣٨٠

﴿ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ وقال في السجدة ﴿ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ ﴾ جعل المكذب هنالك العذاب وجعل المكذب ههنا النار ، وهم كانوا يكذبون بالكل، والفائدة فيها أن هناك لم يكن أول ما رأوا النار بل كانوا هم فيها من زمان ، بدليل قوله تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ ، أي العذاب المؤبد الذي أنكرتموه بقولكم: ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ البقرة:٨٠، أي قلتم إن العذاب إن وقع فلا يدوم فذوقوا (العذاب) الدائم، وههنا أول ما رأوا النار لأنه مذكور عقيب الحشر والسؤال ، فقيل لهم "هذه النار التي كنتم بها تكذبون"[١].

وقد أخذ ابن عاشور بهذا الرأي في تفسيره[٢].

أما علماء المتشابه فكان لهم رأي مخالف. فالإسكافي يرى "أن النار في قوله في سورة السجدة ظاهرة موضع المضمر لتقدم ذكره في قوله: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ ﴾ فأضمرت ﴿ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾، وأظهرت "وقيل لهم ذوقوا عذاب النار" أي: عذابها، فوقعت مظهرة مكان المضمر، والتي في سورة سبأ لم تجيء هذا المجيء، لأنها في مكانها مظهرة، فكما كان المضمر لا يوصف بعد الوصف ما حلّ محله، لأنه سدّ مسده، فوصف ما أضيف إليه وهو العذاب فجاء "عذاب النار الذي كنتم به تكذبون" ولما لم يتقدم ما في سورة سبأ ما منزلته منزلة المضمر، صح الوصف له، فأجري عليه، وجاء "عذاب النار التي كنتم بها تكذبون" ألا ترى أن أوله، "ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون"[٣].

---

1) التفسير الكبير للرازي ج٢٥ / ٢٣٠.
2) التحرير والتنوير ج٢٢/ ٢٢٥.
3) درة التنزيل ، ص٢٦١.

وقد أخذ هذا التوجيه الكرماني واختصره فقال: "عذاب النار الذي كنتم به تكذبون"، وفي سبأ: "التي كنتم" لأن النار في هذه السورة وقعت موقع الكناية، لتقدم ذكرها، والكنايات لا توصف ، فوصف العذاب، وفي سبأ لم يتقدم ذكر النار" قبل" فحسن وصف النار" [١].

ووافقه الأنصاري رحمهم الله جميعاً[٢].

أما ابن الزبير فقد نبّه على سياق الآيات وما تأخر عنها حيث ذكر العذاب مكرراً في الآية التي تلي آية السجدة التي ذكر فيها "الذي" وصفا للعذاب، يقول في توجيهه: "إن آية السجدة اقترن بها ما يستدعي أن يناسب وهو قوله تعالى: "ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر" فلما تفصل ذكر العذاب إعلاماً بإلحاق ضريبة الأدنى والأكبر ، بمن جرى الوعيد لهم، والعذاب مذكر وقد تكرر، فتأكد رعيه، فناسبه عودة الضمير قبله إلى العذاب المضاف إلى النار مذكراً ليجري ذلك كله مجرى واحداً. ولما لم يكن يتلوا آية سورة سبأ ولا قبلها ما يستدعي ذلك، أعيد الضمير إلى النار مؤنثاً " [٣].

فنلاحظ أن ابن الزبير كثيراً ما يعتمد في توجيهاته على ملاحظة السياق سواء للآيات المتقدمة على الآيات المتشابهة أو المتأخرة عنها. وأرى أن السبب الذي ذكره هنا غير كاف. بل يمكن أن يكون أحد الأسباب للاختلاف بين الآيتين.

وأرى أن أقرب توجيه هو ما ذكره أبو حيان موافقاً فيه الرازي، حيث إن لفظ الذي أبلغ في ملابسة العذاب، فهم قد لامسوه فأصبح شيئاً معروفاً لديهم ، وهم

---

1)البرهان ص١٥٥.

2)انظر فتح الرحمن، ص٣٢٦.

3)ملاك التأويل ج٢ / ٩٤٥-٩٤٦.

على علم به ،" فالذي لا تصل إلا بجملة من الكلام قد سبق من السامع علم بها وأمر قد عرفه" [١].

وقد انتقد الألوسي في روح المعاني توجيه أبي حيان ، وأشار إلى أنه "تكلف سمج"[٢] وأشار في موضع آخر من تفسيره إلى توجيه الإسكافي في درة التنزيل وأن المقام في آية السجدة مقام الضمير[٣].

وأرى أن هذا التوجيه هو التكلف بعينه فقوله "منها" عائد على النار و"فيهـــا" عائد على النار وأظهرت النار في بداية الآية، وفي نهاية الآية فلماذا لم يذكر الاسم الموصول "التي" والذي يناسب النار؟ والله أعلم.

---

1)انظر دلائل الإعجاز ص٢٠١.

2)انظر روح المعاني ج٢٢/ ٤٣٥.

3)انظر روح المعاني ج٢١/ ١٧٥.

المبحث الثاني

الفـــــك والإدغـــــــــام

المبحث الثاني

الفك والإدغام

تمر بنا آيات قرآنية متشابهه فيها أفعال وحروف تختلف من حيث الإدغام وعدمه، فترد مدغمة في موطن ، وفي موطن آخر يشبهه غير مدغمة ،ولا يوجد فرق في المعنى بين الفعل المدغم ونظيره غير المدغم، وقد يكون استعمالهما لغرض يقتضيه السياق والمقام. وقد جمعت بين الفك والإدغام في الحروف والأفعال في هذا المبحث الخاص بالحروف لأنهما موضعان فقط قد ذكرهما أبو حيان، وهما:

أولاً : الفك والإدغام في الحرف .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ آل عمران: ٥٢ .

وقوله تعالى: ﴿وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾ المائدة: ١١١.

يرى أبو حيّان أن الأصل هو الفك وليس الإدغام. عند كلامه عن التشابه في الآيتين السابقتين فيقول عند تفسيره للآية من سورة المائدة " وجاء هناك ﴿وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا﴾ آل عمران: ٥٢ وهنا ﴿وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا﴾ وهذا هو الأصل إذا (أن) محذوف منه النون لاجتماع الأمثال"[(١)].

وقد ذكر علماء المتشابه الفرق بين اللفظين فالخطيب الإسكافي يراعي زمن حصول كلّ من النظمين فيقول "إن الذي في سورة المائدة جاء على الأصل غير مخفف بالحذف، لأنه أول كلام الحواريين في هذا المعنى. ألا تراه خبراً عن الله تعالى أنه قال: ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾ المائدة: ١١١، والذي في سورة آل عمران حكاية عن عيسى عليه السلام، أنه سألهم عما أقروا به لله تعالى، فقال: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ

1)البحر المحيط ج٤، ص٧٢.

﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، فكان ذلك منهم إقراراً ثانياً لرسوله، عليه السلام بمثل ما أقروا به لله تعالى، والثاني يختار فيه من التخفيف ما لا يختار في الأول، لأن الأول قد وفى العبارة حقها، والثانية معتمدة على ما قبلها"[1]. وقد وافقه في ذلك الكرماني والألوسي [2]

والمتأمل في هذا التوجيه يلحظ أن الخطيب الإسكافي قد راعى زمن حصول كل من النظمين. غير أن الترتيب الذي اعتمده ليس مصحفياً ولا نزولياً، لأن آل عمران قبل المائدة في النزول وفي ترتيب المصحف[3].

ولابن الزبير الغرناطي توجيه آخر يرى فيه أن آيه المائدة لما ورد فيها التفصيل فيما يجب الإيمان به وذلك قوله "أن آمنوا بي وبرسولي" فجاء على أتم عبارة في المطلوب وأوفاها ناسب ذلك ورود "أننا" على أوفى الحالين وهو الورود على الأصل. ولما لم يقع إفصاح بهذا التفصيل في آية آل عمران ناسب هذا الإيجاز،الإيجاز كما ناسب الإتمام في آية المائدة ، الإتمام[4].

ومن الذين قالوا بالفرق بين الآيتين أيضاً ابن جماعة فقد رأى "أن آية المائدة في خطاب الله تعالى لهم أولاً ، وفي سياق تعدد نعمه عليهم، فناسب سياقه تأكيد انقيادهم إليه أولاً عند إيحائه إليهم وآية آل عمران فيما يهم المسيح لا في سياق تعدد النعم، فاكتفى بأنا لحصول المقصود"[5].

وأرى أن هذا التعليل وجيه ويمكن أن يضاف إلى تعليل الغرناطي الذي ذكر أن آية المائدة ورد فيها تفصيل فابن جماعة ينظر إلى الآية التي قبلها حيث كان فيها

---

1)درة التنزيل ج١، ٣٨٤-٣٨٥.

2) انظر البرهان ،ص٤٧ ، روح المعاني. ج٣ – ص ٢٣٨

3)انظر التوجيه البلاغي للمشابه اللفظي عند الخطيب الإسكافي عائض الحربي، ص١٥٥.

4)انظر ملاك التأويل ج١/ ٣١٠.

5)كشف المعاني، ص١٣٧.

تعداد للنعم ، فكان هناك مناسبة بين الآيتين فجاء أننا بحرفي "نا" مناسباً للتفصيل للتعداد. ولزيادة التأكيد.

وقد ذكر البقاعي إفادة التأكيد، فقال: "ولما كان الإيمان باطناً فلا بد في إثباته من دليل ظاهر، وكان في سياق عدّ النعم والطواعية لوحي الملك الأعظم دلوا عليه بتمام الانقياد، ناسب المقام زيادة التأكيد بإثبات النون الثانية في قولهم "واشهد بأننا"[١].

ثانيا: الفك والإدغام في الفعل

٢- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ الأنفال: ١٣.

وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ الحشر: ٤.

ينظر أبو حيان إلى الفرق بين "يشاق" و"يشاقق" من الناحية اللفظية فيقول: "أجمعوا على الفك في يشاقق اتباعاً لخط المصحف وهي لغة الحجاز. والإدغام لغة تميم كما جاء في الآية الأخرى:﴿ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ ﴾ "[٢].

وعند الرجوع إلى كتب المتشابه اللفظي نجد أن الخطيب الإسكافي لم يتعرض للتشابه بين هاتين الآيتين. أما الكرماني في البرهان فكان أول من تطرق لذلك التشابه – حيث يقول: "ومن يشاقق الرسول" بالإظهار في هذه السورة – وكذلك في الأنفال "١٣" وفي الحشر بالإدغام "٤" لأن الثاني من المثلين إذ تحرك بحركة لازمة وجب إدغام الأول في الثاني، ألا ترى أنك تقول: أردد له بالإظهار؟ ولا يجوز إردداً، أو ارددوا أو "إرددي، لأنها تحركت بحركة لازمة، والألف واللام

---

1)نظم الدرر، ج٢ / ٥٦٤.

2)البحر المحيط ج٤، ٥٩٦.

في "الله" لازمتان. فصارت حركة القاف لازمة وليس الألف واللام في الرسول كذلك، وأما في الأنفال فلانضمام الرسول إليه في العطف، ولم يدغم فيها لأن التقدير في القافات قد اتصل بهما، فإن الواو توجب ذلك"[١].

أما ابن الزبير الغرناطي فيقول: "أن الإدغام تخفيف وليس بالأصل، فورد في النساء على الأصل ولم يقترن به ما يستدعي تخفيفه ولا سؤال في ذلك، ولما تقدم في سورة الحشر قوله تعالى: "ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله" وتقدم الماضي مدغماً، ولم يسمع في الماضي إلا تلك اللغة، فجيء بما حمل عليه من قوله: "ومن يشاق الله" مدغماً ليحصل مجيء الإدغام قبله في الماضي من قوله: "ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله"، وعطف "ورسوله" على اسم الله تعالى وقد وردت نسبة المشاقة لله ورسوله وورد ذلك بالعطف بالواو الجامعة وهو ما يناسب الفك فاستدعى الموضع داعيان: أحدهما ما قبله من الإدغام، والثاني ما بعده من العطف المشبه للفك، فروعي البعدي لأنه أقوى في الرعي"[٢].

ومن المفسرين ابن عاشور الذي يقترب من تعليل أبي حيان فيقول: "وأدغم القافان في "يشاق" لأن الإدغام والإظهار من مثله جائزان في العربية وقرئ بهما في قوله تعالى: "ومن يرتد منكم عن دينه" في سورة العقود والفك لغة الحجاز والإدغام لغة بقية العرب"[٣].

وكلّ هذه التوجيهات التي ذكرها العلماء حول الفرق بين "يشاق" و"يشاقق" نجدها تنظر إلى الفك والإدغام من الناحية اللفظية أما صاحب نظم الدرر فلديه فرق معنوي يعلل به الفك والإدغام في الآيات فيقول: "وأظهر الإدغام في المضارع لأن القصة للعرب وأمرهم في عداوتهم كان بعد الهجرة شديداً ومجاهرة، وأدغم في

1)البرهان للكرماني ص٥٢-٥٣.
2)ملاك التأويل ج١ / ٣٥٣.
3)التحرير والتنوير ج٢٨ / ٧٥.

الماضي لأن ما مضى قبلها كان ما بين مساترة بالمماكرة ومجاهرة بالمقاهرة، وعبر بالمضارع ندباً إلى التوبة بتقييد الوعيد بالاستمرار، وأدغم في الحشر في الموضعين لأن القصة لليهود وأمرهم كان ضعيفاً ومساترة في مماكرة"[١].

وقد أخذ هذا المعنى الدكتور: صالح الشثري وصاغه بأسلوب أوضح فقال: "حين نتأمل سياق الآيتين، ونربط ذلك بسبب النزول نلحظ فرقاً معنوياً، وهو أن آية الأنفال صورت المواجهة الأولى في تاريخ الإسلام بين المسلمين والمشركين، وجاء فيها أنه سبحانه أمد المؤمنين بالملائكة "إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين" ١٩ الآيات، وأنه سبحانه أمر الملائكة بضرب أعناق المشركين، وضرب كل بنان، ثم علل ذلك بالمشاقة، فناسب الآية فك الإدغام الدال على وفرة هذه المسألة، أما آية الحشر فهي في بني النضير من يهود المدينة، الذين يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، ثم كتب الله عليهم الجلاء، وهؤلاء لم تكن مشاقتهم كمشاقة أهل مكة سواء في العداء أو العدّة أيضاً، ولذلك ناسب الآية الإدغام"[٢].

---

1)نظم الدرر ج٣/١٩٤.

2)المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية "دراسة تحليلية لتراث علماء المتشابه اللفظي" د. صالح بن عبدالله الشثري، ص١٦٧.

المبحث الثالث

الـــــذكـــــــــر والـــحـــــــــــــذف

المبحث الثاني

الذكر والحذف

تختلف الآيات المتشابهات من حيث الذكر والحذف ، فيحذف منها حرف في آية، ويذكر في آية أخرى شبيهة بها، كل ذلك لأمر يقتضيه سياق النص، يقول الشيخ عبد القاهر الجرجاني عن الحذف وأسراره: "هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجدُك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تُبِنْ" [1] ولعلماء المتشابه وقفات مع كتاب الله فيما تشابه منه ، فبينوا أسرار حذف الحرف، وذكره، ومن الاختلاف بين الآيات المتشابهات فيما يتصل بالذكر والحذف في الحروف عند أبي حيان:

قوله تعالى: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨﴾ البقرة: ٥٨.

وقوله تعالى: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٦١﴾ الأعراف:١٦١.

أثبتت الواو في البقرة وحذفت في الأعراف فما السرّ في ذلك؟.

يجيب أبو حيان بأنه" لما تقدم أمران كان المجيء بالواو مؤذناً بان مجموع الغفران والزيادة جزاء واحد لمجموع الأمرين، وحيث تركت أفاد توزع كل واحد على كل واحد من الأمرين فالغفران في مقابلة القول، والزيادة في مقابلة – ادخلوا"[2].

ولم يقف أبو حيان عند هذا التوجيه بل نجده ينقل قولاً لصاحب الكشاف عند تفسيره للآية من سورة الأعراف فيقول:

---

1) دلائل الإعجاز . ص ١٤٦.

2)البحر المحيط ج١ / ٣٣٠.

"وأما سنزيد هنا فقال الزمخشري :" موعد بشيئين: بالغفران والزيادة وطرح الواو لا يخل بذلك لأنه استئناف مرتب على تقدير قول القائل: وماذا بعد الغفـــران؟ فقيل له: سنزيد المحسنين" [١].

الرأي الأول لأبي حيان نجده عند الرازي في تفسيره. وقد صاغه أبو حيـــان بأسلوب سهل وبعبارات أقل. يقول الرازي: "أما في الأعراف فذكر فيـــه أمـــرين: أحدهما: قول الحطة وهو إشارة إلى التوبة وثانيها: دخول الباب سجداً وهو إشـــارة إلى العبادة، ثم ذكر جزاءين: أحدهما: قوله تعالى" نغفر لكم خطاياكم" وهو واقع في مقابلة قول الحطة (والآخر) قوله "سنزيد المحسنين" وهو واقع في مقابلة دخول الباب سجداً فترك الواو يفيد توزع كل واحد من الجزاءين على كل واحد من الـــشرطين. وأما في سورة البقرة فيفيد كون مجموع المغفرة والزيادة جـــزاء واحـــداً لمجمـــوع الفعلين أعني دخول الباب وقول الحطة"[٢].

أما الرأي الثاني وهو أن الواو حُذف ليكون استئنافاً لكلام فقد أشار إلى أنـــه نقله عن الزمخشري. وقد أخذ بهذا الرأي كل مـــن الكرمـــاني والأنـــصاري وابـــن عاشور[٣].

أما ابن الزبير فكان له رأي جيداعتمد فيه على السياق المتقدم للآيتـــين فآيـــة البقرة تقدمها قوله سبحانه "يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم" وهـــي آلاء ونعم عددت عليهم على التفصيل شيئاً بعد شيء، فناسب ذلـــك عطـــف قـــضية الزيادة بالواو ليجري على ما تقدم من تعداد الآلاء وضروب الإنعـــام بـــالعفو عـــن الزلات والامتنان بضروب الإحسان، لهذا القصد من إحراز التعداد ورد: وســـنزيد

---

1)البحر المحيط ج٤/ ٥١٦، الكشاف ج٢/١٢٥.

2)التفسير الكبير للرازي ج٣ ص٨٧.

3)انظر البرهان ص٢٩، فتح الرحمن ص٢٨. التحريروالتنوير ج١، ص٥١٦.

هنا بالواو ولم يكن ليحصل ذلك لو لم ترد الواو هنا، وأما آية الأعراف فلم يرد قبلها ما ورد في سورة البقرة"[1].

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ البقرة: ٤٩

وقوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ إبراهيم: ٦

يفرق أبو حيان بين الآيتين الكريمتين من حيث ذكر الواو في الآية من سورة إبراهيم وحذفها من الآية التي وردت في سورة البقرة . فيقول :

"في قوله تعالى ﴿ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ يحتمل أن تكون مما حذف منه حرف العطف لثبوته في إبراهيم . وقول من ذهب إلى أن الواو زائدة لحذفها هنا ضعيف وقال الفراء الموضع الذي حذفت فيه الواو تفسير لصفات العذاب . والموضع الذي فيه الواو يبين أنه قد مسهم العذاب غير الذبح . ويجوز أن يكون يذبحون في موضع الحال من ضمير الرفع في يسومونكم ، ويجوز أن يكون مستأنفاً"[2].

ويقول أبو حيان في موضع آخر عند تفسيره للآية من سورة إبراهيم "وتقدم تفسير هذه الآية إلا أن هنا : ويذبحون بالواو ، وفي البقرة بغير واو وفي الأعراف "يقتلون" فحيث لم يؤت بالواو جعل الفعل تفسيراً لقوله "يسومونكم" وحيث أتى بها دل

---

1) ملاك التأويل ج١، ص٢٠٧-٢٠٨.

2) البحر المحيط ج١ / ٢٨٤.

على المغايرة . وأن سوم سوء العذاب كان بالتذبيح وبغيره ، وحيث جـاء يقتلـون، جاء باللفظ المطلق المحتمل للتذبيح ولغيره من أنواع القتل[١].

تحدث علماء المتشابه والمفسرون عن ذكر الواو وحذفها قبل قوله "يذبحون".

فالإسكافي يرى أنه إذا جعل "يذبحون" بدلاً من قوله "يسومونكم" سوء العذاب لم يحتج إلى الواو، وإذا جعل قوله "يسومونكم سوء العذاب" عبارة عن ضروب من المكروه في غير ذبح الأبناء لم يكن الثاني إلا بالواو وقد تقدم في الآية من سورة إبراهيم قوله ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ إبـراهيم:٥ وقوله ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ فناسب العطف بـالواو فكان قوله "ويذبحون" في قصة متضمنة قصة تتعلق بها، فموسى عليه السلام يعـدد النعم عليهم ويذكرهم بها "[٢]. وقد وافقه الكرماني واختصر توجيهه[٣].

ويأتي ابن الزبير بتوجيه مشابه لتوجيه الإسكافي وبأسلوب مختلف ، يرى فيه أن مبنى سورة إبراهيم عليه السلام على الإيجاز فيما تضمنت من قصص الأنبيـاء، وانضم في هذه السورة إلى قصد الإيجاز تغليظ الوعيد وأشار قوله تعالى "يسومونكم سوء العذاب" إلى جملة ما امتحنوا به من فرعون وآله ، فلما وقعت الإشارة إلى هذه الجملة مما كانوا يمتحنونهم به جرد منها وعين بالذكر أشـدها وأعظمهـا امتحانـاً فجيء به معطوفاً ، كما أنه مغاير لما تقدمه فقيل : "ويذبحون أبناءكم" وفـي قولـه تعالى "يذبحون أبناءكم" في آية البقرة فتحمل على البدل وعلـى الاسـتئناف وهـو الأولى، وكأن قد قيل وما ذاك ؟ فقيل "يذبحون أبناءكم" وهذا موافق للاسكافي في أن

---

1) البحر المحيط ج٥، ٥٢١.

2) انظر درة التنزيل ج١ / ٢٣١-٢٣٣.

3) البرهان ص٢٨، وينظر كشف المعاني ص١٠١، وفتح الرحمن ص٢٧.

قوله "يذبحون" بدون واو تفسير لصفات العذاب وما أضافه ابن الزبير أن آية البقرة تحمل على الاستئناف وجعله أولى ، وأن العطف للمغايرة[١].

ومن المفسرين الذين كان لهم توجيه للفرق بين ذكر الواو وحـذفها،الطبري حيث يقول في تفسيره للآية الواردة في سورة إبراهيم "وأدخلـت الـواو فـي هـذا الموضع لأنه أريد بقوله "ويذبحون أبناءكم" الخبر عن أن آل فرعون كانوا يعـذبون بني إسرائيل بأنواع من العذاب غير التذبيح ، وبالتذبيح ، وأما في موضع آخر مـن القرآن فإنه جاء بغير الواو "يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبنـاءكم" ٤٩ ... ولـم تدخل الواو في المواضع التي لم تدخل فيها لأنه أريد بقوله "يذبحون" وبقوله "يقتلون" تبيينه صفات العذاب الذي كانوا يسومونكم وكذلك العمل في كل جملة أريد تفصيلها فبغير الواو تفصيلها، وإذا أريد العطف عليها بغيرها وغير تفصيلها فبالواو"[٢].

والفرق بين الآيتين واضح وجلي، وهو مكمن السر في الذكر والحـذف، ولا يكاد يختلف أحد في سبب مجيء الواو في آية وحذفها في آية أخرى، فاتفق علمـاء المتشابه والمفسرون على توجيه هاتين الآيتين.

فالآية الأولى تذكير من الله بما حدث لبني إسرائيل من بطش فرعون وآلـه. وفي الآية الثانية يعمد موسى – عليه السلام – إلى تذكير بني إسـرائيل بـنعم الله . ويعدد عليهم تلك النعم. فلم يكتف بذكر الإنجاء ، بل مهد له من أول الأمر للتـذكير فناسب ذلك تعداد النعم، والفصل بين آحادها . فكأنه جعل سـومهم العـذاب محنـة مستقلة نجاهم الله منها. وعطف عليها غيرها . لذلك جيء بالواو بـين النـوعين .

---

1) انظر ملاك التأويل ج١ / ٢٠١.

2) تفسير الطبري، ج٧ / ٤١٩، وينظر الكشاف ج١، ص٣٦٨، التفسير الكبيـر للـرازي ج٣ / ٦٤، ج١٩ / ٦٧. مدارك التنزيل للنسفي ج٢ / ٣٦٧، روح المعاني ج١٣ / ٢٤٤.

ومعروف أن العطف بالواو يقتضي المغايرة .. فلو ترك هذا العطف لصار السوم والتذبيح نوعاً واحداً . ويكون الثاني تفسيراً للأول . كما هو في الآية الأولى[1].

وما كان من فرق فهو في اختيار الكلمات وانتقاء العبارات .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ الأعراف: ٥٩.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ هود: ٢٥.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ المؤمنون: ٢٣.

يذكر أبو حيان سبب حذف الواو من آية الأعراف في قوله "لقد" فيقول:

" لقد أرسلنا" استئناف كلام دون واو وفي هود والمؤمنون "ولقد" بواو العطف، قال الكرماني: "لما تقدم ذكر الرسول مرات في هود وتقدم ذكر نوح ضمناً في قوله: ﴿ وَعَلَى ٱلْفُلْكِ ﴾ المؤمنون: ٢٢، لأنه أول من صنعها عطف في السورتين" انتهى"[2].

يوافق أبو حيان الكرماني في توجيهه للآيات ويشير إليه، والكرماني في توجيهه موافق للإسكافي ولكن باختصار شديد[3].

أما ابن الزبير الغرناطي فقد وافق الإسكافي في توجيهه في آية الأعراف وهود وكان له توجيه آخر في آية المؤمنين، حيث يقول: "وأما آية سورة المؤمنين

1)انظر خصائص التعبير القرآني ج٢ / ١٣.

2)البحر المحيط ج٤ / ٤١١.

3) ينظر درة التنزيل ج٢/٥٩٣ وما بعدها ، البرهان ص ٧٥ .

فقد ورد قبلها ما يناسب عطفها عليه، فقال تعـالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ... ﴾ الآيـات، وبعـدها: "ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق..." الآيات، فذكرهم بإيجادهم وانتقالهم متقلبـين فـي أطوار مكتنفين بتوالي إنعامه... ثم عطف على ذلك ما أنعم به من إرسـال الرسـل فذكر أولهم إرسالاً إلى الخلق ليناسب ما بدأو به من النعم الأوليـة فقـال: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ وكلّ ما ذكر في هذه الآي نِعمٌ متناسبة وآلاء متوالية"[1]. وقـد وافقه ابن جماعة وأبو يحيى الأنصاري[2].

وما جاء به الكرماني من توجيه للآيات والذي أخذ به أبو حيان، توجيه جيد. غير أن ما أضافه ابن الزبير في توجيهه للآية من سورة المـؤمنين توجيـه حـسن ينظر إلى طريقة نظم البيان في السورة القرآنية في إطار سياقها الكلي، فالآية جاءت متناسبة مع مطالع الآيات السابقة واللاحقة لها. وما أشار إليه الخطيـب الإسـكافي ومن وافقه كأبي حيان من أن نوحاً عليه السلام تقدم ضمناً في قوله "وعلى الفلـك" أرى أنه بعيد عن التوجيه الصحيح للآية، فالله سبحانه وتعالى بعد أن بدأ بتعداد النعم التي منها تسخير الأنعام والفلك للركوب، ذكر اسم أول نبي أرسله وهو نوح عليـه السلام، وإرسال الأنبياء من ضمن النعم التي يمتن الله بها على عباده .

وما ذكره ابن الزبير من توجيه للآيات يدل على الدقة وشمول النظرة، وقـد راعى فيه مناسبة الآيات لما قبلها .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ الأعراف: ٥٩

---

1)ملاك التأويل ج١/ ٥١٢-٥١٣.

2)كشف المعاني ص١٨٢، فتح الرحمن ص١٤١.

وقوله تعـــالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ المؤمنون: ٢٣.

في الآيتين السابقتين "فقال" بفاء العطف وفي قصة عاد وصالح وشعيب فـــي سورة الأعراف الآية "٦٥" ، "٧٣" ، "٨٥" ، "قال" بغير فاء.

يقول أبو حيان مبيناً العلة في ذلك عند تفسيره لآية الأعراف التي ذكرت نوحاً عليه السلام "وهنا "فقال" بفاء العطف وكذا في المؤمنون وفي قصة عاد وصالح وشـــعيب هنا "قال" بغير فاء. والأصل الفاء، وحذفت في القصتين توســـعاً واكتفـــاء بـــالربط المعنوي وفي قصة نوح في هود " إني لكم" على إضمار القول. أي "فقال إني" وفي ندائه قومه تنبيه لهم لما يلقيه إليهم واستعطاف وتذكير بأنهم قومـــه ، فالمناســـب ألا يخالفوه، ومعمول القول: جملة الأمر بعبادة الله وحده ، ورفض آلهتهم المسماة ودّاً، وسواعاً، ويغوث، ويعوق، ونسراً، وغيرها. والجملة المنبهة على الوصف الـــداعي إلى عبادة الله وهو انفراده بالإلوهية المرجو إحسانه المحذوف انتقامه دون آلهـــتهم، ولم تأت بحرف عطف لأنها بيان وتفسير لعلة اختصاصه تعالى بأن يعبد"[١].

يرى أبو حيان أن الفاء هي الأصل وحذفها كـــان توســـعاً واكتفـــاء بـــالربط المعنوي.

ولا أرى ذلك ؛ لأن الفاء عاطفة وتفيد عدّة أمور منهـــا الترتيـــب والتعقيـــب والسببية وتكون رابطة للجواب[٢].

وليست هي الأصل بل كان دخولها واجباً ، ولسبب يذكره الإســـكافي فـــي تعليله لدخول الفاء على "قال" وهو أن بناء الجواب على الابتداء يوجب دخول الفاء.

---

1)البحر المحيط ج٤/٤١١.

2)انظر مغني اللبيب لابن هشام ج١/١٦١ وما بعدها ، البرهان للزركشي ج٤/٢٩٤ وما بعدها.

وفي قوله تعـــالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ الأعراف ٦٥ -. لم يقل "فقال الملأ" لأن ما بعد "قال" هنا مسلوك به طريق الابتداء بالخطاب، إذ رمي بالسفاهة كما رمي نوح عليه السلام بالضلالة، فلم تدخل على واحد منهما الفاء التي تجعل الثاني متعلقاً بالأول تعلق الجواب بالابتداء[1].

ووافقه الكرماني باختصار شديد لتوجيهه[2].

ووافقه أيضاً ابن الزبير، وذكر أن الفاء لربط الجوابية ووضوح السببية[3].

ثم نجد أبا حيان يشير إلى قصة نوح في هود. وهو قولـــه تعـــالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ هود ٢٥. وكيف حذفت "فقـــال إنـــي" علـــى إضمار القول. ولم يأت حرف العطف لأن الآية التي تليهـــا بيـــان وتفـــسير لعلـــة. اختصاصه تعالى بأن يعبد وهي قولـــه تعـــالى﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ هود ٢٦.

ويمكن أن يكون. حذف "فقال" من الآية، لعدم التكرار حيث إن الآيـــة التـــي تليها بدأت بقوله﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ وكانت الفـــاء اســـتئنافية. وكـــان للجملـــة الابتدائية وقع على السامع ، ولو سبقت بقوله "فقال" في الآية التـــي حـــذفت منهـــا لأصبحت مكررة، ولم يكن لها تأثير لدى السامع.

ومن ذلك قوله تعـــالى ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ ﴾ الحـــج آية٣٤.

وقوله تعالى: ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ الحج آية ٦٧.

---

1)انظر درة التنزيل ج٢ ص٦٠٢-٦٠٣.

2)انظر البرهان ص٧٦/ ٢٥.

3)انظر ملاك التأويل ج١/٥٢٠-٥٢١.

يقول أبو حيان في الآية الثانية من الحج. "وجاء "ولكلّ أمة" بالواو وهنا "لكل أمة" لأن تلك وقعت مع ما يدانيها ويناسبها من الآي الواردة في أمر النسائك فعطفت على أخواتها، وأما هذه فواقعة مع أباعد عن معناها فلم تجد معطفاً قاله الزمخشري"[١].

يذكر أبو حيان السبب في مجيء الواو العاطفة في الآية الأولى من الحج، والاستغناء عنها في الآية الثانية وأن ذلك راجع إلى سياق الآيات. فالكلام الذي بعد الواو في الآية الأولى تعلق بما قبله، أما الكلام في الآية الثانية فلا يحتاج إلى واو العطف لأنه بعيد عن بعضه البعض. وهذا رأي الزمخشري في الكشاف وقد أشار إليه أبو حيان في آخر كلامه بعد ذكر الفرق بين الآيتين فقال "قاله الزمخشري[٢]"

وينقل النسفي أيضاً كلام الزمخشري في تفسيره[٣].

أما الرازي، فيذكر في تفسيره سبب حذف الواو في قوله "لكل أمة" لأنه لا تعلق لهذا الكلام بما قبله فلا جرم حذف العاطف"[٤].

ومن علماء المتشابه نجد ابن جماعة فقط هو الذي يذكر توجيهاً لهذه الآية. ولم يختلف عن غيره من المفسرين حيث نظر إلى سياق الآيات فقال: "أن الأولى، تقدمها ما هو من جنسها وهو ذكر الحج والمناسك فحسن فيه العطف عليه، بخلاف الثانية، فإنه لم يتقدمها ما يناسبها فجاءت ابتدائية، وبيان ذلك قوله تعالى: ﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ ﴾ الآية ثم قال: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ ﴾ الآية [٥].

---

1)البحر المحيط ج٦، ص٤٧١.

2)انظر الكشاف ج٣، ص٢١.

3)تفسير النسفي ج٣، ص١٦٦.

4)التفسير الكبير للرازي ج٢٣، ص٥٦.

5)كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة ص٢٦٩.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾ الأعراف: ٦٠. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ المؤمنون: ٣٣.

وافق أبو حيان الزمخشري في السبب الذي من أجله جاءت الآية في سورة المؤمنين بالواو والآية من سورة الأعراف بغير واو. فقال: "وجاء هنا "وقال الملأ" بالواو وفي الأعراف وسورة هود في قصة بغير واو، قصد في الواو العطف على **ما** قاله أي: اجتمع قوله الذي هو حق، وقولهم الذي هو باطل كأنه إخبار بتباين الحالين والتي بغير واو قصد به الاستئناف وكأنه جواب لسؤال مقدّر، أي: فما كان قولهم له قال قالوا كيت وكيت"[(١)].

وقال الزمخشري "الذي بغير واو على تقدير سؤال سائل قال: فما قال قومه؟ فقيل له: قالوا كيت وكيت. وأما الذي مع الواو فعطف لما قالوا على ما قاله، ومعناه انه اجتمع في الحصول هذا الحق وهذا الباطل وشتان ما هما"[(٢)] وقد نقل الرازي توجيه الزمخشري[(٣)].

وعند النظر إلى توجيه أبي حيان الذي وافق فيه الزمخشري نجده يضيف أن التي بغير واو قصد بها الاستئناف (ولم يذكر ذلك الزمخشري)، وقد خص البيانيون الاستئناف " بما كان جواباً لسؤال مقدّر نحو قوله تعالى: "هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون" فإن جملة القول الثانية جواب لسؤال مقدّر تقديره: فماذا قال لهم؟ ولهذا فصلت عن الأولى فلم تعطف عليها"[(٤)].

---

1) البحر المحيط، ج٦، ص٤٩٢.

2) الكشاف للزمخشري، ج٣، ص ٣١.

3) انظر التفسير الكبير للرازي، ج٢٣، ص٥٨، وينظر تفسير النسفي، ج٣، ص١٧٨.

4) مغني اللبيب لابن هشام، ج٢، ص٣٨٣.

وقد ذكر البلاغيون أن الاستئناف يطلق على ما هو منزل منزلة الجواب فالجملة الثانية جواب لسؤال اقتضته الجملة الأولى. فتفصل الثانية عن الأولى المقتضية للسؤال المقتضي للجواب، وفصلها عنها حينئذ كما يفصل الجواب عن السؤال لما بينهما من الاتصال والربط الذاتي المنافي للعطف[1].

وما اتفق عليه أكثر المفسرين هو أن الآيتين اللتين خلتا من الواو على تقدير جواب لسؤال سائل أما التي اقترنت بالواو فقد قصد عطف قولهم الباطل على قوله الحق[2].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ ١٥٤ – الشعراء.

وقوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ الشعراء: ١٨٥

يقول أبو حيان في الفرق بين الآيتين:

"وما أنت" جاء هنا بالواو، وفي قصة هود "ما أنت" بغير واو. فقال الزمخشري: إذا دخلت الواو فقد قصد معنيان، كلاهما مخالف للرسالة عندهم، التسحير والبشرية، وأن الرسول لا يجوز أن يكون مسحراً، ولا يجوز أن يكون بشرياً. وإذا تركت الواو فلم يقصد إلا معنى واحداً وهو كونه مسحراً، ثم قرر بكونه بشراً. انتهى"[3].

ينقل أبو حيان تعليل الزمخشري في الفرق بين الآيتين من حيث إن الأولى لم يذكر فيها الواو وذكر في الثانية. وأشار إلى الزمخشري صراحة. وقد اتفق مع

---

1)انظر مواهب الفتاح بشروح التلخيص ، ج٣، ص٥٣.

2)انظرتفسير البيضاوي، ج٣، ص١٦٦، وتفسير أبو السعود، ج٤، ص٦١.

3)البحر المحيط ج٧ ص٥٠، وينظر الكشاف للزمخشري ج٣، ص١٢٧.

الزمخشري أيضاً الرازي في تفسيره إلا أنه لم يشر إلى أن هذا الرأي للزمخشري[1]. ومن الذين اتفقوا أيضاً مع الزمخشري في توجيهه الألوسي، الذي نقل كلامه وأشار إليه[2].

فهؤلاء العلماء من المفسرين اعتمدوا في توجيههم على الزمخشري ونقلوا عنه رأيه.

أما أبو السعود فيتوسع قليلاً وإن كان في أصله معتمداً على الزمخشري فيقول: "إدخال الواو بين الجملتين للدلالة على أن كلاً من التسحير والبشرية منافٍ للرسالة مبالغة في التكذيب"[3].

وهذا رأي صحيح فالذي يقرأ في قصص الأنبياء يجد أن قوم شعيب قد بالغوا في تكذيبه.

أما ابن عاشور فيرى أن معنى الآيتين متحد ولكن الاختلاف في الأسلوب ، فيقول:

"والإتيان بواو العطف في قوله "وما أنت إلا بشر مثلنا" يجعل كونه بشراً إبطالاً ثانياً لرسالته. وترك العطف في قصة ثمود يجعل كونه بشراً حجة على أن ما يصدر منه ليس وحياً على الله بل هو من تأثير كونه مسحوراً. فمآل معنى الآيتين متحد ولكن طريق إفادته مختلف وذلك على حسب أسلوب الحكايتين"[4].

هذا ما ذكره المفسرون قبل أبي حيان وبعده. أما علماء المتشابه فلهم رأي مختلف. وأول الآراء هو للإسكافي الذي يقول فيه:

---

1)التفسير الكبير للرازي ج٢٤، ص١٤١.

2)روح المعاني للألوسي ج١٩، ص١٥٤.

3)تفسير السعود ج٤، ص٢٣١.

4)التحرير والتنوير، ج١٩، ص١٨٦.

"إن الموضع الذي لا واو فيه هو بدل من الجملة التي قبله، ثم قال "فأت بآية إن كنت من الصادقين" ولهم أن يقولوا ذلك. فأما قوم شعيب فإنهم في خطابهم المحكي عنهم مُشِطُّون ومبالغون في ردّه وتكذيبه، فقالوا "إنما أنت من المسحرين. وما أنت إلا بشر مثلنا" فدّل على خبرين عطف أحدهما على الآخر وقالوا بعده "وإن نظنك لمن الكاذبين" على معنى وإنا لنظنك كاذباً، أي الغالب من أمرك عندنا أنك كاذب، فلم يجعلوا الخبر خبراً واحداً بل جعلوه أخباراً ثلاثة: قولهم: "أنت من المسحرين"، أي لست من الملائكة الذين هم رسل الله إلى خلقه، فلا يطعمون ولا يشربون، بل أنت من المتغذِّين بالطعام والشراب، وقولهم: "وما أنت إلا بشر مثلنا"، أي لا فضل لك علينا، فهو خبر ثالث"[1].

وقد اختصر الكرماني في البرهان كلام الاسكافي، فقال: "قوله في قصة صالح "ما أنت" الآية ١٥٤، بغير واو. وفي قصة شعيب "وما أنت" الآية ١٨٦، لأنه في قصة صالح بدل من الأولى. وفي الثانية عطف، وخصت الأولى بالبدل، لأن صالحاً قال في الخطاب فقالوا في الجواب وأكثر شعيب في الخطاب فأكثروا"[2].

أما الغرناطي في ملاك التأويل يرى أن ذلك لرعي المناسبة." بيان ذلك ما ثبت قبل الآية الثانية من قوله تعالى حكاية لما عد شعيب في أمره قومه وذكر من مرتكباتهم في قوله: ﴿ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ ﴾، فهذه خمس معطوفات من مأمور به ومنهي عنه، طابقها العطف في جوابهم

1)درة التنزيل ج٢ ص ٩٧٢ـــ٩٧٣

2)البرهان للكرماني، ص١٤١.

من قوله تعالى: حكاية عنهم ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ الشعراء: فهذه مناسبة واضحة"[1].

"أما قصة صالح فلم يقع فيها من المعطوفات أمر أو نهي سوى قوله ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ فناسب ذلك ورود جوابهم في دعوى المماثلة في البشرية بغير حرف النسق فقالوا: "ما أنت إلا بشر مثلنا" بخلاف الآية الثانية، وجاء كلّ على ما يجب ويناسب"[2].

ومما تقدم من كلام المفسرين وعلماء المتشابه نجد أن كلَّ ما تقدم من مراعاة للجوانب النحوية أو البلاغية أو مناسبة السياق، وما تقدم الآية من آيات أخرى يصلح أن يكون سبباً في مجيء الواو وحذفها.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾ أية ١٢ – الأعراف

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴾ أية ٧٥ – ص.

يعلل أبو حيان زيادة "لا" في آية الأعراف عند تفسيره للآية من سورة ص فيقول "﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ ﴾ وفي الأعراف ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ ﴾ الأعراف١٢ . فدل أن تسجد هنا ، على أن "لا" في أن لا تسجد زائدة، والمعنى أيضاً يدل على ذلك، لأنه لا يستفهم إلا عن المانع من السجود، وهو استفهام تقرير وتوبيخ"[3].

---

1)ملاك التأويل ج٢ ص ٨٩٥-٨٩٦.

2)ملاك التأويل ، ج٢ ص ٨٩٦.

3)البحر المحيط ج٧/٥٤٤.

فأبو حيان يرى زيادة "لا" من حيث عدم مجيئها في الآية الأخرى ومن حيث صحة المعنى.

وقد اختلف العلماء في زيادة "لا" فالكرماني يرى أن زيادتها في النفي فيقول " "لما حذف منها يا إبليس، واقتصر على الخطاب، جمع بين لفظ المنع ولفظ "لا" زيادة في النفي وإعلاماً أن المخاطب به إبليس"[١].

وذكر ابن قتيبة " أن "لا" قد تزاد في الكلام ، والمعنى : طرحها لإباء في الكلام أو جحد"[٢].

وقد ذكر الطبري أنها زائدة نقلاً عن بعض نحوي البصرة والكوفة. وحمل على القائل بالزيادة أنه غير جائز أن يكون في كتاب الله شيء لا معنى له، وأن لكل كلمة معنى صحيحاً. فتبين بذلك فساد قول من قال: "لا" في الكلام حشو لا معنى لها[٣].

وعلل الزمخشري زيادة "لا" بأنها " تؤكد معنى الفعل الذي تدخل عليه وتحقيقه كأنه قيل ليتحقق علم أهل الكتاب وما منعك أن تحقق السجود وتلزمه نفسك"[٤].

أما الرازي فالزيادة عنده تعني الخلو من الفائدة. وقد ذكر أن المشهور هو زيادتها، ونسب ذلك إلى الكسائي والفراء والزجاج والأكثرين. وهذا هو القول الأول عنده ، أما القول الثاني فهو أن كلمة "لا" ههنا مفيدة وليست لغواً وهذا هو الصحيح،

---

1)البرهان للكرماني ص٧١ وينظر فتح الرحمن للأنصاري ص١٣٧.

2)تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٢٤٣.

3)انظر جامع البيان للطبري ج٥/ ٤٣٩-٤٤٠.

4)الكشاف ج٢/٦٨، وينظر أبو السعود ج٢/٣٢٧.

لأن الحكم بأن كلمة من كتاب الله لغو لا فائدة فيها مشكل صعب. وهـذا هـو رأي الرازي [1].

ويقول الألوسي " المشهور أن لا مزيدة بدليل قوله سبحانه في آية أخرى "ما منعك أن تسجد" وقيل إنها غير زائدة، بأن يكون المنع مجازاً عن الإرجاء والاضطرار. فالمعنى ما اضطرك إلى أن لا تسجد، وجعله السكاكي مجازاً عن الحمل ولا قرينه للمجاز أي ما حملك ودعاك إلى أن لا تسجد؟ وليس بين الجعلين كثير فرق"[2].

ومما تقدم نجد أبا حيان من العلماء القائلين بالزيادة. وهو يعتمد على صحة المعنى في عدم الزيادة والحذف، وعليه فالزيادة ترتبط بالضرورة عنده مع صحة المعنى.

ولا يخفى ما في القول بزيادة "لا" من ضعف استناداً لما قرره العلماء من تقديرات تكون بها "لا" باقية على بابها في النفي، واستناداً لتضعيف الطبري والرازي زيادتها وهما حجتان في التفسير[3].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ أية ٧٧ – هود.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ أية ٣٣ – العنكبوت.

---

1)انظر التفسير الكبير ج١٤/٢٧.

2)روح المعاني ج٨/٤٤٦، وينظر مفتاح العلوم ص٣٦٧.

3)انظر زيادة الحروف بين التأييد والمنع وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم، د/ هيفاء فـدا، ص٢٣٥-٦٦٢ وما بعدها.

يتحدث أبو حيان عن زيادة "أن" بعد "لما" عند تفسيره للآية من سورة العنكبوت. فيقول:

" تقدّم الكلام على مثل هذه الجملة. إلا أن هنا زيدت أن بعد لما، وهو قياس مطرد. وقال الزمخشري " أن" صلة أكدت وجود الفعلين مترتباً أحدهما على الآخر في وقتين متجاورين لا فاصل بينهما. كأنهما وجدا في جزء واحد من الزمان، كأنه قيل: لما أحس بمجيئهم، فاجأت المساءة من غير وقت خيفة عليهم من قومه. انتهى" وهذا الذي ذكره في الترتيب هو مذهب سيبويه إذ مذهبه . أن لما: حرف لا ظرف، خلافاً للفارسي، وهذا مذكور في علم النحو(١)."

يشير أبو حيان إلى زيادة "أن" بعد "لما". ثم ينقل رأي الزمخشري في أن "أن" صلة أكدت وجود الفعلين مترتباً أحدهما على الآخر(٢)..

وقد نبه أبو حيان إلى أن ما ذكره الزمخشري من إفادة أن الترتيب هنا هو مذهب سيبويه الذي يرى أن "لما" حرف لا ظرف خلافاً للفارسي.

وقد أشار ابن قيم الجوزية إلى زيادة "أن" بعد "لما" وذلك " أن "لما" ليست في الحقيقة ظرف زمان ولكنه حرف يدل على ارتباط الفعل الثاني بالأول، وأن أحدهما كالعلة للآخر بخلاف الظرف إذا قلت: حين قام زيد قام عمر، فجعلت أحدهما وقتاً للآخر على اتفاق لا على ارتباط فلذلك زادوا "أن" بعدها صيانة لهذا المعنى وتخليصاً له من الاحتمال العارض في الظرف إذ ليس الظرف من الزمان بحرف، فيكون قد جاء المعنى كما جاءت "لما" "(٣).

ويقول الزركشي "وأما أن المفتوحة فتزاد بعد لما الظرفية كقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ ﴾ وإنما حكموا بزيادتها لأن "لما" ظرف زمان،

---

1)البحر المحيط ج٧/١٩٣.

2)انظر الكشاف للزمخشري ج٣، ص/٢٠٥، وينظر نظم الدرر ج٥/٥٥٦.

3)بدائع الفوائد. لابن قيم الجوزيه من ج١/١١٥.

ومعناها وجود الشيء لوجود غيره، وظروف الزمان غير المتمكنة لا تضاف إلى الفرد "وأن" المفتوحة تجعل الفعل بعدها في تأويل المفرد، فلم تبق "لما" مضافة إلى الجمل، فلذلك حكموا بزيادتها "[١].

وقد ذكر ابن هشام "أن النحويين أطبقوا على أن الزائد يؤكد معنى ما جيء به لتوكيده ولمّا تفيد وقوع الفعل الثاني عقيب الأول وترتيبه عليه، فالحرف الزائد يؤكد ذلك"[٢].

أما "أن" عند علماء المتشابه فقد أفادت فائدة ترتبط بسياق الآية.

يقول الكرماني: "قوله ﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ ﴾ ٣٣ وفي هود: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتۡ ﴾ ٧٧ بغير "أن" لأن "لما" يقتضي جواباً، وإذا اتصل به "أن" دل على أن الجواب وقع في الحال من غير تراخ كما في هذه السورة، وهو قوله: ﴿ سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا ﴾ ٧٧. ومثله في يوسف،﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗا ﴾٩٦. وفي هود اتصل به كلام بعد كلام إلى قوله: ﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ ﴾ ٨١ فلما طال لم يحسن دخول "أن"[٣].

أما ابن الزبير فقد ذكر" أن ورود "لما" بدون "أن" هو الأصل كما جاء في سورة هود، وورد ثانياً بزيادة "أن" ليحصل بين التواردين ما يرفع تثاقل اللفظ المذكور. وكانت زيادة "أن" وعدم زيادتها فصيحاً فجيء بالجائزين معاً، وتأخرت الزيادة إذ هي غير الأصل إلى المتأخر من الآيتين" [٤].

---

1)البرهان للزركشي ج٧٦/٣.

2)مغنى اللبيب ج٣٥/١.

3)البرهان للكرماني ص١٤٩.

4)انظر ملاك التأويل ج٦٤٤/٢-٦٦٥.

ومن المفسرين ابن عاشور الذي يرى " أن "أن" حرف مزيد للتوكيد وأكثر ما يزيد بعد "لما" وهو يفيد تحقيق الربط بين مضمون الجملتين اللتين بعد "لمـــا" فهـــي لتحقيق الربط بين مجيء الرسل ومساءة لوط بهم، ومعنـــى تحقيقـــه هنـــا ســـرعة الاقتران والتوقيت بين الشرط والجزاء تنبيهاً على أن الإساءة أعقبت مجيئهم وفاجئته من غير تريث....... ولم تقع أن المؤكدة في آية سورة هود لأن في تلـــك الـــسورة تفصيلاً لسبب إساءته وضيق ذرعه فكان ذلك مغنياً عن التشبيه عليه في هذه الآيـــة فكان التأكيد هنا ضرباً من الإطناب"(١).

وأرى أن كلام المفسرين ومن سار على نهجهم هو الأرجح ، أما رأي ابن الزبيـــر فلا يتلاءم مع بلاغة القرآن المعجزة .

1)التحرير والتنوير ج٢، ص٢٤٤-٢٤٩.

الفصل الثاني

الأسرار البلاغية في المتشابه من الألفاظ .

المبحث الأول : التعريف والتنكير .

المبحث الثاني : الإفراد والجمع .

المبحث الثالث : الذكر والحذف .

المبحث الرابع : التقديم والتأخير .

المبحث الخامس : تغير صيغة الكلمة .

المبحث السادس : إبدال الكلمة بغيرها .

المبحث الأول

التعريف والتنكير

المبحث الأول

التعريف والتنكير

يعد التعريف والتنكير من الموضوعات التي تحدث عنها علماء المتشابه اللفظي رحمهم الله، ويتمثل جهدهم في بيان المغزى من تعريف المفردة القرآنية، أو تنكيرها، فقد ترد آيات متشابهات تختلف مفرداتها من حيث التنكير والتعريف، حيث ترد في مكان نكرة ، وفي مكان آخر شبيه به معرفة ، ولأبي حيان وقفات وتوجيهات لهذه الآيات .

من ذلك قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ البقرة: ٦١

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ آل عمران: ٢١

يعلل أبو حيان سبب التعريف والتنكير في قوله تعالى " بغير حق " وبقوله " بغير الحق " فيقول عند تفسيره للآية من سورة آل عمران وجاء في هذه السورة " بغير حق " بصيغة التنكير، وفي البقرة " بغير الحق " بصيغة التعريف ، لأن الجملة هنا أخرجت مخرج الشرط، وهو عام لا يتخصص، فناسب أن يكون المنفي بصيغة التنكير حتى يكون عاماً وفي البقرة جاء ذلك في صورة الخبر عن ناس معهودين، وذلك قوله ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ فناسب أن يأتي بصيغة التعريف، لأن الحق الذي كان به قتل النفس عندهم كان معروفاً كقوله :﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾ سورة المائدة آية ٤٥ فالحق هنا الذي تقتل به الأنفس معهود معروف، بخلاف ما في هذه السورة"[١].

---

1)البحر المحيط ج٢، ص٦٦٠.

يعزو أبو حيان سبب التعريف والتنكير إلى الجانب النحوي فهو يرى أن الآية الأولى (بغير حق) أخرجت مخرج الشرط لذلك أتت بصيغة التنكير، والآية الثانية (بغير الحق) جاءت في صورة الخبر عن ناس معهودين. فناسب أن يــأتي بــصيغة التعريف.

فنلاحظ أن أبا حيان جاء بتوجيه مختلف عن سابقيه مــن علمــاء المتــشابه. فالخطيب الإسكافي يعلل سبب التعريف في آية البقرة إلى أن الآية وردت في سياق الحديث عن قصة وقعت لقوم كانوا في عصر موسى – عليه السلام – أما آيــة آل عمران التي وقع اللفظ فيها منكراً في عصر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وهــم أشد عداءً وحقداً فقد كانوا يخططون لقتل النبي صلى الله عليه وسلم – وقد وضــعوا السم في أكله عليه السلام – وقد عصمه الله منهم. وقد جاء اللفظ منكراً وأفاد العموم يقول الإسكافي في توجيهه. " فأما قوله :﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ آل عمران: ١١٢ فهو خبر عن قوم كــانوا فــي عصر النبي صلى الله عليه وسلم. فقال : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ﴾ آل عمران: ١١٢ فكــان خبــراً عــن اعتقادهم، لأنه لا يجوز أن يعاقبوا ويضرب عليهم الذلة والمسكنة بذنوب وقعت من آبائهم لا منهم، فيصيرون مثل الأولين الذي أخبر عنهم بقولــه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ آل عمران: ٢١ في تمييزه عن القوم الــذين كانوا في عصر موسى عليه السلام. فقال لهم :﴿ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ ﴾ البقرة: ٦١ فاختير لفظ المعرفة في القصة التي وقعت ووقع الإخبار عنهــا، ولفــظ النكرة في القصة التي وقع التهديد مقارناً لها ليمنع من وقوعها "[1].

---

1)درة التنزيل، ج١، ص٢٤٨-٢٤٩.

أما الكرماني فقد أتى بتعليل موجز يقول فيه " ما في البقرة إشارة إلى الحق الذي أذن الله أن تقتل النفس به، وهو قوله ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ الأنعام: ١٥١فكان الأولى أن يذكر معرفاً لأنه من الله تعالى ، وما في آل عمران والنساء نكره، أي بغير حق في معتقدهم ودينهم، فكان هذا بالتنكير أولى" [١] وقد وافقه الأنصاري والألوسي[٢]

أما ابن الزبير الغرناطي فكلامه في مجمله قريب إلى حد ما من كلام الإسكافي. ولكنه أكثر توضيحاً [٣].

أما البقاعي في نظم الدرر فيرى أن التعبير بالنكرة في آل عمران أبلغ من المعرفة في البقرة وقد فصل القول في آية آل عمران على اعتبار بلاغتها فقال " ولما كان قتلهم إياهم بدون شبهة أصلاً بل لمحض الكفر والعناد لأن الأنبياء مبرءون من أن يكون لأحد قبلهم حق دنيوي أو أخروي قال : " بغير حق " أي لا صغير ولا كبير في نفس الأمر ولا في اعتقادهم فهو أبلغ مما في البقرة على عادة أفعال الحكماء في الابتداء بالأخف فالأخف ، ولما خص ذكر أكمل الخلق عبر بما يعم أتباعهم فقال معيداً للفعل زيادة في لومهم وتقريعهم ﴿ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ آل عمران: ٢١ أي العدل، ولما كان ذلك شاملاً لمن لا قدرة لهم على قتله من الملائكة قال " من الناس " أي كلهم سواء كانوا أنبياء أولا، ولا يجوز أن يكون المراد بهذا القيد زيادة توبيخهم بأنهم يقتلون جنسهم الذي من حقهم أن يألفوه ويسعوا في بقائه وهذا تحقيق لأن قتلهم لمجرد العدوان" [٤].

---

1)البرهان للكرماني، ص٣٠.

2)فتح الرحمن ص٣٠، روح المعاني ج١/٣٨٨.

3)انظر ملاك التأويل ج١، ٢١٤-٢١٧.

4) نظم الدرر ج٢ ، ص ٤٨

وأخيراً نشير إلى أن توجيه أبي حيان للآيات ، وما فيها من تشابه توجيه جيد لم يسبق إليه، ولا يتعارض مع التوجيهات الأخرى التي ذكرها علمـــاء المتــشابه، والمفسرون الذين راعوا سياق الآيات واختلاف المقصودين، أما أبو حيان فقد راعى الجانب النحوي في توجيهه، حيث إنه من أبرز علماء النحو في عصره لـــذا غلـــب عليه مراعاة هذا الجانب.

ولأبي حيان توجيه آخر للآيات يضاف إلى ما سبق، وقد نقله عـــن الـــرازي دون أن يشير إليه يقول فيه " قيل : وعرف الحق هنا لأنه أشير به إلى المعهود فـــي قوله عليه السلام لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث " وأما المنكر فالمراد بـــه تأكيد العموم أي لم يكن هناك حق لا ما يعرفه المسلمون ولا غيره[1]".

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾ البقرة: ١٢٦

وقوله تعالى :﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ إبراهيم: ٣٥

يقول أبو حيان عند تفسيره للآية من سورة البقرة مبيناً السبب في تنكير " بلدا " وتعريفه في سورة إبراهيم " وهذا إشارة إلى الوادي الذي دعا لأهله حين أســـكنهم فيه، وهو قوله ﴿ بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾ إبراهيم: ٣٧ أو إلـــى المكـــان الذي صار بلداً، ولذلك نكره فقال " بلداً أمناً " وحين صار بلداً قال ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى ﴾ إبراهيم: ٣٥ وقال ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ البلد: ١هذا إن كـــان الدعاء مرتين في وقتين. وقيل الآيتان سواء فتحتمل آية التنكير أن يكون قبلها معرفة محذوفة أي اجعل هذا البلدَ أمناً ويكون بلداً النكرة توطئه لما يجئ بعده. كما تقول : كان هذا اليوم يوماً حاراً، فتكون الإشارة إليه في الآيتين بعد كونه بلداً "

---

1)البحر المحيط، ج١، ص٣٤٦– وينظر التفسير الكبير للرازي، ج٣، ص٩٦.

ويحتمل وجهاً آخر وهو : أنه لا يكون محذوف ولا يكون إذ ذاك بلــداً. بــل ادعى له بذلك وتكون المعرفة الذي جاء في قوله. " هذا البلد " باعتبار ما يؤول إليه سماه بلدا"[١].

ثم تجد أبا حيان ينقل كلام الزمخشري في تفــسيره لــسورة إبــراهيم عنــد توضيحه للفرق بين الآيتين قائلاً : " وقال الزمخشري : هنا سأل في الأول أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها ولا يخافون وفي الثاني أن يخرج من صــفة كــان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن كأنه قال. هو بلد مخــوف، فاجعلــه آمنــاً " انتهى "[٢].

وتحدث الخطيب الإسكافي عن هذه المسألة وأتى بتعليلين مختلفين. يقول فــي الأول:-

" إن الدعوة الأولى وقعت، ولم يكن المكان قد جعل بلداً، فكأنــه قــال : رب اجعل هذا الوادي بلداً آمنا، لأن الله تعالى حكى عنه أنه قــال :﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ ﴾ إبراهيم: ٣٧ بعد قوله اجعل هذا الوادي بلداً آمنا، ووجه الكلام فيه : تنكير " بلد " الذي هو مفعول ثان، و " هذا " مفعــول أول. والدعوة الثانية وقعت، وقد جعل الوادي بلدا فكأنه قال : اجعل هذا المكــان الــذي صيرته كما أردت ومصرته كما سألت ذا أمن على من أوى إليه ولاذ بــه فيكــون "البلد" على هذا عطف بيان على مذهب سيبويه، وصفة على مذهب أبــي العبــاس المبرد و " آمناً " مفعولاً ثانياً، فعرف حيث عرف بالبلدية، ونكر حيث كان مكاناً من الأمكنة غير مشهور بالتميز عنها بخصوصية من عمارة وسكنى الناس"[٣]

---

1)المصدر السابق ج١، ص٥٥٠.

2) نفسه ، ج٥، ص٥٥٢.

3)درة التنزيل ج١، ص٢٨٢- ٢٨٤.

أما تعليله الثاني فيرى فيه أن " البلد " قد حذف اكتفاء بالإشارة إليه، وتقدير ذلك في آية البقرة : " اجعل هذا البلد آمناً " يقول " والجواب الثاني أن تكون الدعوتان واقعتين بعد ما صار المكان بلداً وإنما طلب من الله تعالى أن يجعله آمناً،..... فيجوز أن يكون المراد : اجعل هذا البلد بلداً آمناً فيدعو له بالأمن بعد ما قد صار بلداً على ما مثلت ويكون مثل قوله " اجعل هذا البلد آمنا " وتكون الدعوة واحدة قد أخبر الله عنها في الموضعين"[١].

وقد أخذ الكرماني تعليل الخطيب الاسكافي و ذكره باختصار شديد[٢].

وقد أخذ بعض العلماء بتوجيه الاسكافي الأول ومنهم ابن جماعة[٣] والأنصاري[٤].

وممن وافقه أيضاً من المفسرين : الفخر الرازي[٥] وأبو السعود[٦] وجلال الدين السيوطي[٧].

أما ابن الزبير الغرناطي فقد ذكر تعليلاً وجيهاً يقول فيه "إن اسم الإشارة الذي هو "هذا" في سورة البقرة لم يقصد تبعيته اكتفاء بالواقع قبله من قوله تعالى: "وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا" وقوله: "وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفيين والعاكفين.." وتعريف البيت حاصل منه تعريف البلد إلى أن يقول: "ولو تعرف لفظ بلد بالألف واللام وجرى على اسم الإشارة لم يكن ليحرز بياناً زائداً على ما تحصل مما تقدم بل كان يكون كالتكرار فورد الكلام على ما هو أحرز

---

1)المصدر السابق، ص٢٨٤-٢٨٦.

2)البرهان للكرماني ص٣٤.

3)كشف المعاني ص١١١.

4)فتح الرحمن ص٣٦.

5)التفسير الكبير ٥٠/٤.

6)تفسير أبو السعود ٢٦٧/٣.

7)الاتقان في علوم القرآن ٣٢١/٢.

للإيجاز، وأبلغ في المقصود، مع حصول ما كانت التبعية تعطيه، فجاء على ما يجب. وأما آية سورة إبراهيم فلم يتقدم فيها ما يقوم لاسم الإشارة مقام التابع المعرف بجنس ما يشار إليه فلم يكن بد من إجراء البلد عليه تابعاً له بالألف اللام على المعهود الجاري في أسماء الإشارة "[١].

ثم نجد ابن الزبير بعد ذلك يذكر رأي الخطيب الإسكافي الأول مصرحاً باسمه، وعلق على ذلك الرأي بقوله " قاله صاحب كتاب الدرة وهو عندي بعيد، إذ ليس بمفهوم من لفظ الآي وهو بعد ممكن، والله أعلم[٢]"

بعد هذا العرض تبين أن أبا حيان يذكر أربعة آراء ، الرأيين الأولين للاسكافي، والثالث للزمخشري ،والرابع رأيه هو الذي أضافه إلى هذه الآراء. وقد أثرى هذه المسألة وجاء بكل ما يمكن أن يقال في سبب التعريف والتنكير في هاتين الآيتين فأسرار كتاب الله لا تعد ولا تحصى.

ومن ذلك قوله تعالى﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ﴾ البقرة:١٧٣

وقوله تعالى﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ المائدة:٣

وقوله تعالى﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ الأنعام: ١٤٥

يذكر أبو حيان سبب التعريف والتنكير في الآيات المتشابهه عند تفسيره للآية من سورة الأنعام فيقول : " وجاء الترتيب هنا كالترتيب الذي في البقرة والمائدة

1)ملاك التأويل ج١، ص٢٣٤-٢٣٥.

2)المصدر السابق ج١ / ص٢٣٥.

وجاءت هنا هذه المحرمات منكرة ، والدم موصوف بقولــه " مــسفوحاً " والفــسق موصوفاً بقوله " أهل لغير الله به " وفي تينك السورتين معرفاً لأن هذه السورة مكية فعلق بالتنكير، وتانك السورتان مدنيتان فجاءت تلك الأسماء معارف بالعهد حوالــة على ما سبق تنزيله في هذه السورة"[١]

لم يتطرق أحد من المفسرين أو علماء المتشابه إلى الحديث عــن التعريــف والتنكير في الآيات السابقة.

وما ذكره أبو حيان من أن الآية الأولى في الأنعام مكية لذا جاءت المحرمات منكرة، والآيتان الأخيرتان مدنيتان لذا جاءت المحرمات معارف. أرى أنه تعليل جيد لكنه غير كاف ويمكن أن يكون سبب ذلك هو سياق الآيات.

ويمكن أن يكون التعريف في آية البقرة وآية المائدة للإيضاح ، حيث إنــه من أغراض التعريف توضيح ما لم يكن واضحاً للمخاطب .

---

1)البحر المحيط ج٤، ص٣١١.

المبحث الثاني

الإفراد والجمع

المبحث الثاني

الإفراد والجمع

كلما أمعنا النظر في أسرار ألفاظ القرآن الكريم وجدنا أسراراً عظيمة، ولطائف عجيبة، فقد كان لعلماء المتشابه عناية بموضوع الإفراد والجمع ، فالكلمة في كتاب الله تعالى تجيء مفردة لغرض بلاغي يستدعيه السياق القرآني ، أو لتحقيق معنى مراد، أو لمناسبة ما جاورها من ألفاظ ، وكذلك الحال في جمعها ، ولذلك نلحظ التنوع بين الآيات المتشابهة في ألفاظها، المختلفة من حيث الإفراد والجمع .

ومن الآيات التي ذكرها أبو حيان في هذا المبحث :

قوله تعالى :﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ٨٠

وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ آل عمران: ٢٤

يذكر أبو حيان الفرق بين " معدودة ومعدودات عند تفسيره الآية من سورة آل عمران فيقول " وتقدم تفسير هذه الأيام المعدودات في سورة البقرة فأغنى عن إعادته هنا، إلا أنه جاء هناك : " معدودة " وهنا " معدودات " وهما طريقان فصيحان تقول، جبال شامخة، وجبال شامخات فتجعل صفة جمع التكسير للمذكر الذي لا يعقل تارة لصفة الواحدة المؤنثة، وتارة لصفة المؤنثات. فكما تقول : نساء قائمات. كذلك تقول جبال راسيات وذلك مقيس مطرد فيه"[1].

---

1)البحر المحيط، ج٢، ص٦٦٦.

الفرق بين الآيتين في الإفراد والجمع، فقد جاءت لفظة " معدودة " وصفاً مفرداً لأيام، وفي آل عمران جاءت جمعاً " معدودات " والموصوف في الآيتين هو" أيام" فلماذا الاختلاف ؟

يرى الإسكافي أن الجمع بالألف والتاء أصله للمؤنث نحو مسلمة ومسلمات، وصفحة وصفحات، ومكسورة ومكسورات. ولا يكاد يجيء الجمع الذي واحده مذكر هذا المجيء ألفاظاً معدودة نحو حمام وحمامات .... وعلامة الجمع المؤنث الواحد. الألف والتاء في الأصل، فلما كان " معدودة " من المطرد المستمر، استعمل لفظها في الأول. ولما كان الجمع بالألف والتاء قد يكون فيما واحده مذكر وإن قل فكان على سبيل من سبل المجاز يستعمل ذلك فيه، كقوله تعالى. ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ البقرة: ٢٠٣- والأيام جمع يوم وهو مذكر ، فيكون هذا على أحد الوجهين إما أن يكون المراد : اذكروا الله في ساعات أيام معلومات ومعدودات .... وإما أن يكون ألحق بما في واحده علامة التأنيث لاستوائهما في الجمع ودخولهما في الفرعية التي يكتسب بها لفظ المؤنث " [١]

ونلاحظ أن الإسكافي لم يوضح سر الإفراد في آية البقرة وسر الجمع في آية آل عمران. وإنما تعليله جاء مبينا للوجه النحوي في أن آية البقرة جاءت على الأصل وآل عمران على الفرع.

وقد أخذ الكرماني : تعليل الاسكافي ولكن بشيء من الاختصار[٢] ووافقه الأنصاري[٣].

أما ابن الزبير الغرناطي – فيوافق الإسكافي ويضيف سبباً أخر إلى ما ذكره، فيرى " أن آية البقرة بنيت على الإيجاز بخلاف آية آل عمران. فيقول : " ألا

---

1)انظر درة التنزيل ج١، ص٢٦٠-٢٦٥.

2)البرهان للكرماني، ص٣٢.

3)فتح الرحمن للأنصاري، ص٣١.

ترى قوله تعالى في آية آل عمران " ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات " وفي البقرة " وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة " وإخباره تعالى باغترارهم بقوله " وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون " وهذا بسط لحالهم الحامل على سوء مرتكبهم ولم يقع في سورة البقرة تعرض لشيء من ذلك بل أوجز القول ولم يذكر سببه، فناسب الإفراد الإيجاز وناسب الجمع الإسهاب ، ولو جمع في سورة البقرة وأفرد في سورة آل عمران أو أفرد فيهما أو جمع فيهما لما ناسب. فورد كل على ما يناسب ويجب " [١]

وقد وافق الرازي الاسكافي واختصر توجيهه[٢] وكذلك الألوسي في روح المعاني والذي يضيف وجهاً أخر وهو التفنن في التعبير[٣].

أما ابن عاشور فيشير إلى رأي أبي حيان في أن معدودات جمع لمعدودة – ويخالفه برأي آخر، يقول في تفسيره مشيراً إلى أبي حيان " ويظهر أنه ترك فيه تحقيقاً وذلك أن الوجه في الوصف الجاري على جمع مذكر إذا أنثوه أن يكون مؤنثاً مفرداً، لأن الجمع قد أول بالجماعة والجماعة كلمة مفردة وهذا هو الغالب، غير أنهم إذا أرادوا التنبيه على كثرة ذلك الجمع أجروا وصفه على صيغة جمع المؤنث ليكون في معنى الجماعات وأن الجمع ينحل إلى جماعات كثيرة، ولذلك فأنا أرى أن معدودات أكثر من معدودة ولأجل هذا قال تعالى " وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة " لأنهم يقللونها غروراً أو تعزيزاً، وقال هنا " معدودات " لأنها ثلاثون يوماً"[٤].

---

1)ملاك التأويل، ج١، ص٢٢٦-٢٢٧

2)التفسير الكبير، ج٣، ص١٣٠.

3)روح المعاني، ج٣، ص١٥١.

4)التحرير والتنوير، ج٢، ١٦١.

وبالتأمل في كلام أبى حيان – نجد انه لم يذكر فرقا بين "معدودة ومعدودات" وأن كليهما فصيح ، وكذلك ما ذكره العلماء من توجيه للآيتين لم يكن مقنعا لمن يبحث عن أسرار التشابه والاختلاف بين الآيات المتشابهة وما في ذلك من إعجاز ، ولأحد المعاصرين توجيه أرى انه أبعد غورا وأكثر تفصيلا، نظر فيه إلى سياق الآيات وراعى فيه الجانب المعنوي، وهو أن السر في إيثار لفظ معدودات في أية آل عمران استدعاه مقام التعجب والتشنيع، فاقتضى مبالغتهم في تهوين العذاب وتقليله صيغة الجمع ،تفصيل ذلك وبسطه أن أية البقرة إخبار من الله تعالى عن جنايات اليهود وتعديد لجرائمهم ومنها قولهم هذا اغترارا واستخفافا بعذاب الله، ساقه الله تأسيسا للمؤمنين الطامعين في إيمان اليهود "أتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون" ثم نعى عليهم أمييهم وعلمائهم بعد ذلك فجاء تهوينهم للعذاب في هذا السياق أقل مبالغة من سياق أية آل عمران التي جاءت عقب حجاج أهل الكتاب ومجادلتهم رسول الله بالباطل "فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعني" ثم تعجب من إعراضهم عن الحق وتوليهم عن الاحتكام إلى الله فقال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ ففي مقام الحجاج والمجادلة اندفع اليهود إلى أقصى حد المبالغة ذاهبين إلى أن أيام تعذيبهم تقف عند ادني العدد، وقد تفاوتت الروايات في تحديد هذا العدد المزعوم بين أربعين يوما وسبعة أيام ، فحيث جعلت الأيام للكثرة أو مات إلى زعمهم أنهم أربعون يوما ،وحيث أريد بها القلة أو مات إلى السبعة، وجاء كل في موضعه اللائق بمقام القول ومستدعيات السياق[1].

---

1) انظر الإعجاز البياني دراسة تحليلية للأفراد والجمع في القران الكريم، ص٢٠.

ومن ذلك قوله تعالى :﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ النساء: ١٣

وقوله تعالى :﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ النساء: ١٤

عند تفسير أبي حيان للآية الرابعة عشر من سورة النساء نجده يعلل إفراد خالداً في هذه الآية وجمعه في الآية السابقة لها، فيقول.

" قيل : وأفرد " خالداً " هنا، وجمع في " خالدين فيها " لأن أهل الطاعة أهل الشفاعة، وإذا شفع في غيره دخلها، والعاصي لا يدخل النار به غيره فبقي وحيداً"(١).

وبالرجوع إلى كتب التفسير – وهي كثيرة – لأتبين عمن من المفسرين أو علماء المتشابه نقل هذا الرأي، لم أظفر بشيء مما ذكره أبو حيان.

إلا أنني وجدت ابن أبي الأصبع في كتابه بديع القرآن يبين سبب مجيء " خالداً " مفرداً في الآية الثانية وجمعاً في الآية الأولى فيقول " ذهب بعض المفسرين إلى أن ضمير الخالدين مشيرٌ إلى أن الوقوف مع حدود الله وطاعته أمر متَبع يجب الاقتداء به ، وكل من عمل به تناوله هذا الوعد، وتعدى حدود الله تعالى معصية "ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق " فلا يجوز متابعة من يعمل به، فلذلك أتى بضمير الخالد في النار موحداً، وذهب غير هذا أن ضمير الخالدين في الجنة إنما جمع لقصد الملاءمة في النظم فإنه سبحانه لما قال " جنات " بلفظ الجمع جاورها بلفظ الجمع في "خالدين" ، ولما قال "ناراً "بلفظ الإفراد قال " خالداً فيها" ليوصف الكلام بالملاءمة، وحسن الجوار، فيكون داخلاً في باب ائتلاف الألفاظ بمعانيها وهذا

1)البحر المحيط، ج٣، ص٢٦٨.

أشبه من الأول. والذي عندي : أن ضمير الخالدين في الجنة إنما جمع لأن كل من دخل الجنة خالد فيها أبداً ، وإن تفاوتت درجات الخالدين بدليل قوله تعالى " وما هم منها بمخرجين " مطلقاً في حق كل من دخلها ، وأهل النار فيهم الخالد من الكفار والمنافقين، وغير الخالدين من عصاة المؤمنين، فساغ الجمع هناك، ولم يسغ ههنا لأن الخالدين في النار فرقة واحدة ولأن المنافقين كفار في الباطن، والخالدين في الجنات طبقات وجماعات على مقادير درجاتهم بحسب ما اعتد لهم به من أعمالهم وإن عمهم الخلود" (١).

نجد ابن أبي الإصبع قد ذكر ثلاثة آراء في سر جمع الخالدين في الجنة، وإفراد الخالد في النار أولهما وثانيهما نقلهما عن المفسرين، أما الثالث فهو من عنده كما ذكر.

وقد أشار الدكتور يوسف الأنصاري في بحثه عن جهود ابن أبي الأصبع المصري في المتشابه القرآني إلى أن الرأيين اللذين نقلهما عن المفسرين لهما من الوجاهة والقبول ما ليس للرأي الذي نص على أنه من عنده (٢).

ثم يضيف قائلاً " ولعل خير تعليل قرأته في إيضاح الفرق بين هاتين الآيتين، وارتضيه لأنه صادف في نفسي قبولاً له – ما ذكره أحد المعاصرين في قوله " فقد جمع خالدين – في وصف ثواب الطائعين، وأفرده في وصف عقاب العاصين " فكان في الجمع تكريم بالأنس، وفي الإفراد تعذيب بالوحشة والاغتراب، وقد استشرف هذا المعنى العلامة أبو السعود فكان من بوارق التوفيق والهداية قال رحمه الله : ولعل إيثار الإفراد ههنا نظراً إلى ظاهر اللفظ، واختيار الجمع هناك

1) بديع القرآن ، ص ١٣٠ وما بعدها

2)انظر ابن أبي الأصبع المصري وجهوده في المتشابه القرآني، د. يوسف بن عبدالله الأنصاري، ص٢٨.

نظراً إلى المعنى، للإيذان بأن الخلود في دار الثواب بصفة الاجتماع أجلب للأنــس، كما أن الخلود في دار العذاب بصفة الإنفراد أشد في استجلاب الوحشة " [١].

أما الألوسي في روح المعاني فقد نقل ما جاء في البحر المحيط من تعليل[٢].

ومما تقدم من تعليلات لإفراد خالداً " في آية وجمعــه فــي آيــة أخــرى لا تعارض بينها بل تتفاوت من عالم لآخر، وكل له رأيه الذي يرتضيه ، ولعل أقربها فعلاً للسبب الحقيقي للإفراد والجمع هو ما ذكره أبو السعود في تفسيره[٣] ووافقــه فيه الدكتور محمد الأمين الخضري. [٤]

---

1)المرجع السابق، ص٢٩.

2)روح المعاني للأوسي ج٤، ص٦١٢.

3)انظر تفسر أبو السعود ج١، ص٦٦٢

4)الإعجاز البياني دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن ، ص ٢٩

المبحث الثالث

الذكر والحذف

المبحث الثالث

الذكر والحذف

هو أن تقف على آيتين متشابهتين تختلفان في ذكر كلمة وحذفها، بمعنى أن كلمة ما مذكورة في آية من الآيات ومحذوفة من آية أخرى شبيهة بها "وفي طبع اللغة أن يسقط من الألفاظ مايدل عليه غيره ، أو ما يرشد إليه سياق الكلام ، أو دلالة الحال، وأصل بلاغتها في هذه الوجازة التي تعتمد على ذكاء القارئ والسامع، وتعول على إثارة حسه، وبعث خياله وتنشيط نفسه ، حتى يفهم بالقرينة ويدرك باللمحة ويفطن إلى معاني الألفاظ التي طواها التعبير "[١] ويعد الذكر والحذف في الكلمات من أكثر وأغزر مسائل الذكر والحذف في المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، ويهمنا من هذه المسائل ما وقف عليه أبو حيان في تفسيره.

ومن ذلك قوله تعالى﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ البقرة: ١٩٣

وقوله تعالى :﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ الأنفال: ٣٩

يسير أبو حيان على ما سار عليه أغلب علماء المتشابه الذين وجهوا هذه الآية. فيقول " وجاء في الأنفال : " ويكون الدين كله لله " ولم يجيء هنا : كله، لأن آية الأنفال في الكفار عموماً، وهنا في مشركي مكة، فناسب هناك التعميم، ولم يحتج هنا إليه. قيل : وهذا لا يتوجه إلا على قول من جعل الضمير في : وقاتلوهم. عائداً على أهل مكة "[٢].

---

1) خصائص التراكيب ، د/ محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة . ط٣ ، ص ١١١

2)البحر المحيط، ج٢، ص١١٤.

ثم يقول عند تفسيره لآية الأنفال " وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الـدين كله لله " " وهنا زيادة " كله" توكيداً للدين" [١]

يقول الإسكافي " إن الآية الأولى من سورة البقرة جاءت في قتال أهل مكة، ألا ترى ما قبلها " واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم " ثم قال " ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه " وهـذا مخـتص بقتـال قـوم مخصوصين من أهل الشرك وهم نازلو الحرم. فاقتصر على الدين من غير توكيـد على معنى : حتى يكون الدين حيث هؤلاء، لا في كل مكان، لأنه لا يحـصل بقتـل مشركي مكة الدين في كل البلاد. وأما في سورة الأنفال فالأمر ورد عاماً في قتـال كل الكافرين ، ألا ترى أن قبل الآية " قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم مـا قـد سلف" وليس هذا في طائفة من الكفار دون طائفة " [٢]

وقد وافقه الكرماني وذكر كلاماً مختصراً يقول فيه " لأن القتال فـي هـذه السورة " أي البقرة " مع أهل مكة، وفي الأنفال مع جميع الكفار فقيده بقوله " كله"[٣] ولم يذهب الغرناطي بعيداً عما قاله صاحب الدرة أيضاً،[٤] وكـذلك الأنـصاري[٥] وتابعهم الألوسي[٦].

أما ابن جماعة فيرى أن آية البقرة نزلت في أول سنة من الهجرة في سـرية عبد الله بن جحش لعمرو بن الحضرمي وصناديد مكة أحياء ، ولم يكن للمـسلمين رجاء في إسلامهم تلك الحال، وآية الأنفال : نزلت بعد وقعة بدر، وقتل صناديدهم،

---

1)البحر المحيط ، ج٤، ص٦٢٦.
2)درة التنزيل للإسكافي ج١، ص٣٣١-٣٣٢.
3)البرهان للكرماني، ص٤٠.
4)ملاك التأويل، ج١، ص٢٦١-٢٦٣.
5)فتح الرحمن ص ٤٥
6)روح المعاني ج٢، ٦٥٠.

فكان المسلمون بعد ذلك أرجى لإسلام أهل مكة عامة وغيرهم، فأكد سبحانه وتعالى رجاءهم ذلك بقوله تعالى " ويكون الدين كله لله " أي لا يعبد سواه "[1].

ويخالف ابن عاشور ابن جماعة في ترتيب النزول بين السورتين فقد ذكر أن آية الأنفال أسبق نزولاً من آية البقرة فاحتيج فيها إلى تأكيد مفاد صيغة اختصاص جنس الدين بأنه لله تعالى، لئلا يتوهم الاقتناع بإسلام غالب المشركين. فلما تقرر معنى العموم وصار نصاً من هذه الآية عدل عن إعادته في آية البقرة تطلباً للإيجاز "[2]

وهذا التعارض بين هذين التعليلين لا يقلل من أهميتهما إضافة إلى التعليلات السابقة، فأبو حيان ذكر الرأيين اللذين سار عليهما العلماء عند الحديث عن هاتين الآيتين ، وهما أن آية الأنفال ذكرت " كله " لأن القتال مع جميع الكفار وفي البقرة حذفت " كله " لأن القتال مع أهل مكة إضافة إلى أن " كله " جاءت مؤكدة للدين.

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ الأنعام: ٥

وقوله تعالى ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ الشعراء: ٦

لم يبتعد أبو حيان في توجيهه لهذه الآيات عن علماء المتشابه، وقد اعتمد في توجيهه على أن سورة الأنعام متقدمة في النزول على الشعراء فاستوفى فيها اللفظ. يقول عند تفسيره لآية الأنعام " وجاء هنا تقييد الكذب بالحق والتنفيس بـ " سوف " وفي الشعراء " فقد كذبوا فسيأتيهم" ، لأن الأنعام متقدمة في النزول على الشعراء

1)كشف المعاني ص١١٩، ج٢/ ٦٥٠.

2)التحرير والتنوير ج٩، ص٣٤٧.

فاستوفى فيها اللفظ ، وحذف من الشعراء وهو مراداً حالـــة علـــى الأول وناســـب الحذف الاختصار في حرف التنفيس، فجاء بالسين" [1].

ويوضح الخطيب الإسكافي سبب الذكر والحذف في الآيتين فيقــول " الآيـــة الأولى وفّى المعنى فيها حقه من اللفظ لأنها سابقة للثانية، وإن كانتا مكيتين، فأشبعت ألفاظ الأولى مستوفية لمعناها، وفي الثانية اعتمد على الاختصار لما سبق في الأولى من البيان فاقتصر على قوله " كذبوا " وهذا اللفظ إذا أطلق كان لمن كذب بالحق ... ولما بنيت هذه الثانية على الاختصار والاكتفاء بالقليل من الكثير جعــل فيهـــا بـــدل "سوف" السين وحدها، وهي مؤدية معناها "[2].

وقد وافقه الكرماني في البرهان فقال في الفرق بين الآيتين " سورة الأنعـــام متقدمة فقيَد التكذيب بقوله " بالحق لما جاءهم " ثم قال " فسوف يأتيهم " على التمام، وذكر في الشعراء " فقد كذبوا " مطلقاً لأن تقييده في هذه السورة يـــدل عليـــه، ثـــم اقتصر على السين هنا بدل سوف ليتفق اللفظان فيه على الاختصار"[3].

وقد أخذ بهذا التوجيه أيضاً ابن الزبير الغرناطي وأبو يحى الأنصاري[4].

أما ابن جماعة فيرى أن الفرق بين الآيتين من التنويع في الفصاحة[5].

وأرى أن هذا التوجيه الذي قال به أبوحيان من أن سورة الأنعام متقدمة نـــزولا فاستكمل اللفظ وحذف في الثاني للاختصار توجيه لا يشفي غلة الباحث عن أســـرار المتشابه في الآيتين ، حيث نجد هناك آيات استكملت اللفظ وهي متـــأخرة نـــزولا ً، واختصرته وهي متقدمة عليها ، فقوله تعالى في سورة النساء وهي مدنية " ســـوف

---

1)البحر المحيط.ج٤ ، ص ١٠٠

2)درة التنزيل ج٢، ص٤٧٨-٤٧٩.

3)البرهان للكرماني ص٥٩.

4)انظر ملاك التأويل ج١، ص٤١٢، فتح الرحمن ٤١٦.

5)انظر كشف المعاني، ص ١٦٢.

٢) البحر المحيط ج٤ ص ٤٢٨ .

نصليهم نارا " مستكملاً للفظ ، مع أن قوله تعالى في سورة المدثر وهي مكية " سأصليه سقر" جاءت مختصرة ، بل هناك في داخل السورة الواحدة يأتي اللفظ مستكملاً ومختصراً ، وقد أشار إلى ذلك الأستاذ : محمد ذنون يونس في دراسة له عن مشكلة زيادة المبنى ودلالتها على زيادة المعنى ، وقد تحدث بشكل مفصل عن السين وسوف ، وتكلم عن هذه المشكلة اللغوية بشيء من المنطق ، واستشهد بأقوال العلماء في ذلك ، ومما قاله في بحثه " وضع السين وسوف كان لتركيب محكم ، لو استبدلنا أحدهما مكان الآخر لاختلفت البنية العرفية التي اتفق عليها الناطقون ، ومن ثم اختلفت دلالتها الخاضعة لقانون التركيب القواعدي ، والنحاة لم يتعرضوا إلى أكثر من دخولها على الفعل المضارع ، ولكن متى تدخل ؟ وما يعقبها من أفعال ؟ وما نوعية التراكيب اللاحقة لها ؟ وأي الأفعال التي يتقدمها وتعطف عليه؟ كل هذا كان مهملا وهم يضعون قواعد السين وسوف ، ولايجب أن نتناسى المقتضيات البنائية الداعية لكل من الأداتين فنحرم أنفسنا متعة الفهم الدقيق لتوزيع الأداتين في القرآن توزيعاً منظماً بالغ الأهمية " [1]

ومن ذلك تعالى ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ ﴾ الأعراف:٨٢

وقوله تعالى ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ النمل: ٥٦

يقول أبو حيان في الفرق بين الآيتين.

---

[1]) انظر مشكلة زيادة المبنى ودلالتها على زيادة المعنى دراسة تطبيقية على السين وسوف في القرآن الكريم _ محمد ذنون يونس _ جامعة الموصل _ كلية الآداب.

" الضمير في " أخرجوهم " عائد على لوط ومن آمن به. ولما تـــأخر نـــزول هذه السورة عن سورة النمل أضمر ما فسره الظاهر في النمل من قوله ﴿ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡ ﴾ النمل: ٥٦ "

يرى أبو حيان أن الفرق بين الآيتين يعود إلى تقدم إحداهما في النزول علـــى الأخرى ، فسورة النمل نزلت أولاً لذلك أضمر في الأعراف ما فسر فـــي النمـــل . وقد ذكر هذا الرأي أكثر من واحد العلماء ، وأولهم الإسكافي الذي قـــال " إن فـــي إضمار " آل لوط " في الأعراف وإظهاره في سورة النمل إن الـــسورتين مكيتـــان وموجب هذا الإضمار والإظهار أن يكون ما جاء فيه الإظهار نازلاً قبل ما جاء فيه الإضمار، فلما أظهر في الآية المنزلة قبل اعتُمد في القصة التي هي هي عند ذكرهم على الإضمار الذي أصله أن يكون بعد تقدم الذكر"[١].

أما الغرناطي فقد ذكر تعليلاً جيداً يقول فيه " إنه لما زيد في تعنيفهم في النمل وتعريفهم بإتيانهم الفاحشة على علم بها أو مـــع مـــشاهدة بعـــضهم بعـــضاً وعـــدم استخفائهم بها ، وذلك أقبح في المرتكب، فلما زيد في تعليل الإخراج التنصيص على الآل، لأن قوله : " آل لوط " أنص في إخراج جميع من للوط عليه السلام من ذويـــه وأهله من قوله " أخرجوهم " بزيادة التنصيص الأعم بإزاء الأزيد في التقريـــع " [٢] وأرى أن هذا التعليل غير وجيه لأن كلا السورتين فيها تقريع وتعنيف لقـــوم لـــوط. وقد تساوتا في ذلك ، أما البقاعي في نظم الدرر فلم يقدم أياً مـــن الـــسورتين علـــى الأخرى في النزول إنما يرى أن في قوله " أخرجوا آل لوط " إظهاراً لما أضمر في الأعراف لأن الإظهار أليق بسورة العلم والحكمة وإظهار الخبء"[٣].

1)درة التنزيل ج٢، ص٦٣٥-٦٣٦.

2)ملاك التأويل ج١، ص٥٥٠.

3)نظم الدرر للبقاعي، ج٥، ص٤٣٥.

ويذكر الألوسي تعليلين أحدهما له ، وهو قوله " ولعل ذكر " أخرجوهم " هنا و " أخرجوا آل لوط " في النمل إشارة إلى أنهم قالوا مرة هـذا وأخـرى ذاك أو أن بعضاً قال كذا وآخر قال كذا " والرأي الآخر للنيسابوري. وقد وافق فيه الإسـكافي والكرماني وأباحيان[١]. ويعلق الألوسي بعد أن ذكر قول النيسابوري " ولعـل مـا ذكرناه أولى فتأمل". فالألوسي لا يرى فرقاً واضحاً بين الآيتين على الرغم مما فيها من إضمار وإظهار، وقريب منه رأي ابن عاشور في تفسيره[٢]. وأرى أنه تعليـل غير مقنع. أما الرأي الأرجح فهو ما أخذ به أبو حيان في تفسيره.

ومن ذلك تعالى ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ الأعراف: ١١٠

وقوله تعالى ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ الشعراء: ٣٥

يذكر أبو حيان سبب الذكر والحذف في الآيتين المتشابهتين فيقول " وجاء في سورة الشعراء " بسحره " وهنا حذفت، لأن الآية الأولى هنا بنيت على الاختـصار فناسبت الحذف ولأن لفظ ساحر يدل على السحر" [٣].

يعلل أبو حيان سبب حذف قوله " بسحره " إلى أن الآية من سورة الأعـراف بنيت على الاختصار وأن لفظ " ساحر " في الآية التي قبلها يدل على السحر وهـو في تعليله هذا يوافق الكرماني في البرهان[٤] ويوافقهم أيضاً الأنـصاري فـي فـتح الرحمن[٥].

أما الاسكافي فله توجيه آخر يقول فيه :

---

1)انظر روح المعاني، ج٨، ص٥٥٤.

2)التحرير والتحبير ج٢٠، ص٥.

3)البحر المحيط، ج٤ / ٤٥٥.

4)انظر البرهان ص٨١.

5)انظر فتح الرحمن ص١٤٧.

" لما أسند الفعل في سورة الشعراء إلى فرعون، وحكى ما قاله وأنه قال للملأ حوله ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ الشعراء: ٣٤ وكان أشدهم تمرداً وأولهم تجبراً، وأبلغهم فيما يرد به الحق كان في قوله : " يريد أن يخرجكم من أرضكم " ذكر السبب الذي يصل به إلى الإخراج، وهو " بسحره " فأشبع المقال بعد قوله :﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ الشعراء: ٣٤ بأن ذكر أنه " يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره " وأما الموضع الذي لم يذكر فيه " بسحره " فهو ما حكى من قول الملأ في سورة الأعراف، حيث قال ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ الأعراف: ١٠٩ – ١١٠ والملأ لم يبلغوا مبلغ فرعون في إبطال ما أورده موسى عليه السلام، ولم يجفوا في الخطاب جفاءه، فتناولت الحكاية ما قاله فرعون على جهته بتكرير لفظ " السحر " من فعله بعدما أخرجه بصفته حيث قال : "إن هذا لساحر عليم" [١] وقد وافقه ابن الزبير وابن جماعة. [٢]

وما ذكره الإسكافي من تعليل يشفي غلة الباحث عن البلاغة المعجزة التي تضع كل لفظ موضعه اللائق به ، وإن كانت جميع التوجيهات متقاربة ولا تعارض بينها ، والإيجاز والإطناب هو الأساس الذي قامت عليه .

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ الأعراف: ١٢٥

وقوله تعالى ﴿ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ الشعراء: ٥٠

يبين أبو حيان السبب في ذكر قوله " لا ضير " في الشعراء وحذفه من الأعراف بقوله " لأن هذه السورة اختصرت فيها القصة واتسعت في الشعراء ، ذكر فيها أحوال فرعون من أولها إلى آخرها فبدأ بقوله : " ألم نربك فينا وليداً " وختم

---

1)درة التنزيل ج٢/ ٦٥١-٦٥٢.

2)انظر ملاك التأويل ج١/ ٥٦٣-٥٦٤، وكشف المعاني ١٨٧.

بقوله﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴾ الشعراء: ٦٦ فوقع فيها زوائد لم تقع في هذه السورة ولا في طه. قاله الكرماني" [١].

يوافق أبو حيان الكرماني وينقل عنه توجيهه، وأرى أنه توجيه دقيق واضح بالنظر إلى غيره من التوجيهات الأخرى، كتوجيه الإسكافي الذي يقول فيه :" إنهم قابلوا وعيده بما يهونه ويزيل ألمه من انتقالهم إلى ثواب ربهم مع المتحقق من منقلب معذبهم، فجاء في سورة الشعراء – وهي التي قصد بها الاقتصاص الأكبر : " لا ضير " أي لا ضرر علينا فإن منقلبنا إلى جزاء ربنا فننعم أبداً، وتعذب أنت أبداً، فالضرر الذي تحاول إنزاله بنا، بك نازل، وعليك مقيم، ونحن نألم ساعة لا يعتد بها مع دوام النعيم بعدها، فكأنه لم يلحقنا ضرر وفي سورة الأعراف وقع الاقتصار على قوله : " ... إنا إلى ربنا منقلبون " وفيه كفاية وإبانه عن هذا المعنى، ودلالة بناء على ما قصد فيها مما بين وشرح فيما سواها "[٢].

وما ذكره الاسكافي توجيه طيب يمكن أن يضاف إلى ما ذكره الكرماني ولا تعارض بينهما .

أما ابن الزبير فيقابل بين قوله "لا ضير" في آية الشعراء وما تقدم من قوله "وقالوا بعزة فرعون" من نفس السورة – فيقول: قوله "لا ضير" مقابل به ما تقدم من قوله : "وقالوا بعزة فرعون " لما اعتقدوا أولاً أن له عزة ونسبوها إليه، فظنوا أنه يقدر على ما يريده ويستبد بفعله ، ثم لما وضح لهم الحق رجعوا عن اعتقادهم وظنهم وعلموا أن القدرة والعزة لله سبحانه وسلموا لخالقهم ولم يبالوا بفرعون وملئه فقالوا : " لا ضير " أي لا ضرر ولا خوف من فرعون إذ العزة لله وحده، ولما لم

---

1)البحر المحيط ج٤/٤٦٣، وينظر البرهان للكرماني ص٨٣.

2)درة التنزيل ج٢، ص٦٨٠-٦٨١.

يقع من قولهم في الأعراف أولاً مثل الواقع هنا لم يجيئوا في الجواب بما جاءوا هنا فافترق الموضعان وجاء كلّ على ما يجب " [١].

وينظر ابن جماعة إلى سياق آية الشعراء فيقول " لما كان الوعيد في الشعراء أشد ناسب مقابلتهم له بعدم التأثر به ما يرجونه عند الله تعالى" [٢].

وأرى أن هذا التعليل وجيه ، ويضاف إلى ما ذكره أبو حيان في تفسيره نقلاً عن الكرماني فكلمة " لا ضير " فيها غيظ لفرعون وتحدٍ له لأن القصة في الشعراء أطول والتحدي أكبر والحوار أشد من الأعراف. لذا ناسب ذكر " لا ضير "

---

1)ملاك التأويل ج١، ٥٧٦.

2)كشف المعاني ص١٩٢.

المبحث الرابع

التقديم والتأخير

المبحث الرابع

التقديم وتأخير

القرآن الكريم دقيق في وضع الألفاظ ونظمها بجانب بعضها البعض ، فيقدم الألفاظ ويؤخرها حسبما يقتضيه المقام . وموضوع التقديم والتأخير يحتل مكاناً سامياً في البلاغة العربية ويكسب الكلام جمالاً وتأثيراً ، يقول الإمام عبد القاهر متحدثاً عن أهميته " هو باب كثير الفوائد ، جم المحاسن ، واسع التصرف ، بعيد الغاية ، لايزال يفترُّ لك عن بديعة ، ويفضي بك إلى لطيفة ، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه ، ويلطف لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك ، أن قدِّم فيه شيء، وحوِّل اللفظ عن مكان إلى مكان "(١) وقد جمع الدكتور المطعني مناهج العلماء من بلاغيين ومفسرين في دراسة التقديم والتأخير في كتابه خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢)، وقد كان لعلماء المتشابه نظر دقيق وإبداع في عرض المسائل واستخراج لأسرار الاختلاف بين الآيات التي توضح منهج القرآن الكريم في التقديم والتأخير في ضوء الآيات المتشابهات، وهناك مواطن تقتضي تقديم هذه اللفظة أو تلك، كل ذلك مراعى فيه سياق الكلام، والاتساق العام. ومن مواضع التقديم والتأخير التي ذكرها أبو حيان في تفسيره :

قوله تعالى ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ البقرة: ٤٨

وقوله تعالى ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ البقرة: ١٢٣

---

1) دلائل الإعجاز ، ص ١٠٦ .

2) انظر خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ،ج٢ ، ص ٧٩ ــ ٢٠١ .

يذكر أبو حيان سر التقديم والتأخير في الآيتين السابقتين " ولما كـان الأمـر مختلفاً عند الناس في الشفاعة والفدية فمن يغلب عليه حب الرياسة قدم الشفاعة على الفدية ومن يغلب عليه حب المال قدم الفدية على الشفاعة. جاءت هذه الجمـل هنـا مقدماً فيها الشفاعة . وجاءت الفدية مقدمة على الشفاعة في جملة أخرى، ليدل ذلـك على اختلاف الأمرين، وبدئ هنا بالشفاعة، لأن ذلك أليق بعلو النفس وجاء هنا بلفظ القبول وهناك بلفظ النفع إشارة إلى انتفاء أصل الشيء وانتفاء ما يترتب عليه وبدئ هنا بالقبول لأنه أصل للشيء المترتب عليه فأعطى المتقدم ذكر المتقدم وجوداً وأخر هناك النفع إعطاء للمتأخر ذكر المتأخر وجوداً "(١).

تحدث العلماء والمفسرون عن تقديم لفظ الشفاعة على لفظ العدل فـي الآيـة الأولى وتأخيرها في الآية الثانية وتقديم العدل، فالخطيب الإسكافي عند تناوله لهـذه الآية لم يوضح سبب التقديم والتأخير في الآيتين وما فيها من التشابه ، بل نلاحظ أنه يشرح معنى الآيتين فقط (٢).

أما الكرماني في البرهان فله تعليل جيد يقول فيه : "وإنما قدم الشفاعة قطعـاً لطمع من زعم أن آباءهم تشفع لهم ، وأن الأصنام شفعاؤهم عند الله، وأخرها فـي الآية الأخرى لأن التقدير في الآيتين معاً، لا يقبل منها شفاعة فتنفعها تلك الـشفاعة لأن النفع بعد القبول، وقدم العدل في الآية الأخرى ليكون لفظ القبول مقدماً فيها"(٣).

وقد وافقه الزركشي في البرهان، ونسب القول إلى أحد شيوخه رحمهـم الله تعالى(٤). أما ابن الزبير فله رأي آخر اعتمد فيه على السياق المتقدم للآيتين. فيذكر "أن الآية الأولى تقدمها قوله تعالى " أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفـسكم " فهـو مظنة عندهم لرجائهم أن ينفع عند مشاهدة الجزاء الإحساني للمأمورين بالبر حـين

---

1)البحر المحيط ج١، ص٢٨١.

2)أنظر درة التنزيل للإسكافي ج١، ص٢٢٦.

3)البرهان في متشابه القرآن ص٢٧، وينظر بصائر ذوي التميز ج١، ص١٤٢.

4)انظر البرهان في علوم القرآن ج١، ص١٢٦.

قبلوا وامتثلوا أخذاً بظاهر حال الأمرين وإن كانوا يبطنون خلاف ما يظهرون، وهذا جار على مألوف طمع يهود.فقد توهموا أن أمرهم الناس بالبر أعظـم شـفيع لهـم لينجيهم من العذاب، فقدمت الشفاعة لنفي هذا المعنى، ولم يتقدم في الآية الأخرى ما يستدعي هذا فقدم فيها ذكر الفئة التي هي أولى وأحرى في كمال التخلص على مـا عهد في الدنيا لو أمكنت"[١].

ومن علماء المتشابه أيضاً الأنصاري الذي له توجيه آخر موجز يقول فيـه " إن الحكمة في تقديم الشفاعة وعكسة، للإشارة هنا إلى من ميله إلى حب نفسه أشـد منه إلى حب المال، وثم إلى من هو بعكس ذلك"[٢]. ويبدو أن هذا التوجيه الذي ذكره الأنصاري قد أخذه من أبي حيان وأوجزه بهذا الشكل، قريب منه توجيه أحد كبـار المفسرين وهو الفخر الرازي في تفسيره الكبير الذي يقول فيه "إن من كان ميله إلى حب المال أشد من ميله إلى علو النفس فإنه يقدم التمسك بالـشافعين علـى إعطـاء الفدية ومن كان بالعكس يقدم الفدية على الشفاعة ففائدة تغيير الترتيب الإشارة إلـى هذين الصنفين"[٣].

أما ابن عاشور فيرى في تعليله أن التقديم والتأخير" هو تفنن في الكلام تنتفي به سآمة الإعادة مع حصول المقصود من التكرير" [٤]. ولا أرى ذلك سـبباً كافيـاً للتقديم والتأخير في الآيتين أما ما ذكره علماء المتشابه مـن توجيـه. ومـا ذكـره المفسرون فكله مقبول وكلها أسرار استنبطها العلماء من تلك الآيات الكريمة وجميع تلك التعليلات مجتمعة لا تناقض بينها ، وكلها سبب في التقديم والتأخير في الآيتـين وقد أضاف أبو حيان تعليلاً مختلفاً عن غيره من العلماء، فقد ذكر سر تقديم الشفاعة وتأخيرها وسر التعبير بلفظ القبول مرة وبلفظ النفع مرة أخرى .

---

1)انظر ملاك التأويل ج١، ص١٩٦-١٩٧.

2)فتح الرحمن ص٢٦.

3)مفاتيح الغيب للرازي ج٣، ص٥١.

4)التحرير والتنوير ج١، ص٦٠٨.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ ﴾ البقرة: ٥٨.

وقوله تعالى: ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا ﴾ الأعراف: ١٦١.

يذكر أبو حيان سبب التقديم والتأخير في الآيتين عند تفسيره للآية من سورة البقرة فيقول "هنا قدم دخول الباب على القول وهناك عكس وأجيب بأن الواو للجمع والمخاطبون بهذا مذنبون فاشتغاله بحط الذنب مقدّم على اشتغاله بالعبادة فكلفوا بقول حطة أولاً، ثم بالدخول وغير مذنبين، فاشتغاله أولاً بالعبادة ثم بذكر التوبة ثانياً على سبيل هضم النفس وإزالة العجب، فلما احتمل الانقسام ذكر حكم كلّ واحد منهما في سورة بأيهما بدأ " [١].

ويقول عند تفسيره للآية من سورة الأعراف. "وأما التقديم والتأخير في "وقولوا" وادخلوا" فقال الزمخشري: سواء قدّموا الحطة على دخول الباب وأخروها فهم جامعون في الإيجاد بينهما. وقوله سواء قدّموا وأخروها تركيب غير عربي وإصلاحه: سواء أقدموا أم أخروها. كما قال تعالى "سواء علينا أجزعنا أم صبرنا" ويمكن أن يقال: ناسب تقديم الأمر بدخول الباب سجداً مع تركيب "ادخلوا هذه القرية" ٥٨ لأنه فعل دال على الخضوع والذلة، وحطة قول، والفعل أقوى في إظهار الخضوع من القول، فناسب أن يذكر مع مبدأ الشيء وهو الدخول ولأن قبله ادخلوا فناسب الأمر بالدخول للقرية الأمر بدخول بابها على هيئة الخضوع ولأن دخول القرية لا يمكن إلا بدخول بابها فصار باب القرية كأنه بدل من القرية أعيد معه العامل بخلاف الأمر بالسكنى"[٢].

يجمع أبو حيان بين أكثر من توجيه لهاتين الآيتين. الأول نقله عن الرازي إلا أنه لم يشر إلى ذلك. أما الثاني فهو للزمخشري وقد أشار إليه. أما الرأي الثالث

1)البحر المحيط، ج١، ص٣٣٠.

2)المصدر السابق، ج٤، ص٥١٦.

فالجزء الأول منه موافق لرأي الكرماني الذي يقول فيه "وقدّم" وادخلوا الباب سجداً على قوله "وقولوا حطة" في هذه السورة، وأخرها في الأعراف، لأن السابق في هذه السورة "ادخلوا" فبين كيفية الدخول"[١]. ثم يذكر أبو حيان أيضاً أن الفعل "ادخلوا" دال على الخضوع والذلة. أما الخطيب الإسكافي فقد أرجع التقديم والتأخير" إلى أن القرآن إنما حكى المعنى دون اللفظ ، ومادام الأمر كذلك فلا غرابة " ([٢]) وما ذكره أبوحيان وغيره من توجيهات عامة ليست كافية ، وتخلو من التحليل الموضوعي الدقيق ، وما رآه الدكتور " المطعني " من توجيه للآيتين أرى أنه أقرب إلى الدقة والله أعلم ، يقول في توجيهه " المعروف أن السجود قد يكون شكراً على النعم ، والاستغفار طلباً للعفو من الذنوب ، والقوم في الموضعين منُعَم عليهم ومخطئون ، فتقديم السجود في البقرة على الاستغفار تغليب لجانب الشكر على جانب الاستغفار، وهذا التغليب مبعثه أمران ، الأول : أن الله حثهم صراحة على الشكر في معرض الحديث ، الثاني : أن نعمة الله عليهم في البقرة أظهر وأكمل منها في الأعراف ، وذلك لاشتمال الحديث في البقرة على بعثهم بعد الموت بالصاعقة ، وهذه نعمة جليلة، كما وصف الأكل بالرغد (فكلوا منها حيث شئتم رغدا)، وقد فسر الرغد بالسعة، ولم يأت هذا الوصف في الأعراف " [٣]

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ البقرة: ٢٢١

وقوله تعالى ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ ﴾ آل عمران: ١٣٣

---

1) البرهان للكرماني، ص٢٨.

2) درة التنزيل ج١ ص ٢٣٨ .

3) خصائص التعبير القرآني ج٢ ص ١٥١

وقال تعالى ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ ﴾ الحديد: ٢١

عند النظر إلى الآيات السابقة نلاحظ تقديم الجنة على المغفرة في الآية الأولى وتأخيرها في الآيتين التاليتين، وقد ذكر أبو حيان تعليلاً لذلك عند تفسيره للآية الأولى يقول فيه " وتقدم هنا الجنة على المغفرة وتأخر عنها في قوله " وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة " وفي قوله "سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة " والأصل فيه تقدم المغفرة على الجنة، لأن دخول الجنة متسبب عن حصول المغفرة ففي تلك الآيتين جاء على هذا الأصل، وأما هنا فتقدم ذكر الجنة على المغفرة لتحسن المقابلة ، فإن قبله " أولئك يدعون إلى النار " فجاء " والله يدعو إلى الجنة " وليبدأ بما تتشوف إليه النفس حين ذكر دعاء الله، فأتى بالأشرف للأشرف، ثم أتبع بالمغفرة على سبيل التتمة في الإحسان، وتهيئة سبب دخول الجنة " (١)

ولم أجد من تناول هذه الآيات بالتوجيه ممن كان سابقاً لأبي حيان غير أن ابن الزبير ذكر الآيتين الثانيتين مبيناً الفرق بين قوله " سارعوا " و " سابقوا " وقوله "جنة عرضها عرض السماوات والأرض " وقوله " جنة عرضها كعرض السماوات والأرض " (٢)

إلا أننا نجد الألوسي في روح المعاني يوافق أبا حيان في توجيهه فيقول " إلى الجنة والمغفرة " أي إلى الاعتقاد الحق والعمل الصالح الموصلين إليهما، وتقديم الجنة على المغفرة مع قولهم التخلية أولى بالتقديم على التحلية لرعاية مقابلة النار ابتداءً "(٣) ويقول في موضع آخر " وتقديم المغفرة على الجنة لما أن التخلية مقدمة على التحلية، وقيل : لأنها كالسبب لدخول الجنة "(٤)، وأرى أن توجيه أبي حيان جيد

---

1)البحر المحيط ج٢، ص٢٦٥.

2)انظر ملاك التأويل ج١، ص٣١٦-٣٢٠.

3) روح المعاني، ج٢، ص٧٠٩.

4) المصدر السابق، ج٤، ص٣٧٦

ومناسب لسبب التقديم والتأخير في الآية، فالمغفرة سبب لدخول الجنة لأن السلامة قبل الغنيمة وأصحاب الجنة هم الذين غفرت ذنوبهم، أما تقديم الجنة فلرعاية مقابلة النار.

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ﴾ البقرة: ١٧٣

وقوله تعالى﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ المائدة: ٣

يقول أبو حيان في الفرق بين الآيتين من حيث التقديم والتأخير " وتأخر هنا به – أي في المائدة – وتقدم هناك – أي في البقرة – تفنناً في الكلام واتساعاً، ولكون الجلالة وقعت هناك فصلاً أو كالفصل، وهنا جاءت معطوفات بعدها، فليست فصلاً ولا كالفصل. وما جاء كذلك يقتضي في أكثر المواضع المد" [1].

وقد ذكر علماء المتشابه السر في التقديم والتأخير في الآيتين المتشابهتين، فالخطيب الاسكافي يرى إن تقديم الضمير المجرور بالباء " به " في آية البقرة هو الأصل ،أما تقديم " لغير الله " في الآيات الثلاث فلأنه أهم فقدم المستنكر وهو الذبح لغير الله"[2] وقد وافقه الكرماني واختصر توجيهه فقال " قدم به في البقرة لأن تقديم الباء الأصل ، فإنها تجري مجرى الهمزة والتشديد في التعدي، فكانت كحرف من الفعل "أُهلَّ" فكان الموضع الأول أولى بما هو الأصل ليعلم ما يقتضيه اللفظ – ثم قدم فيما سواها ما هو المستنكر وهو الذبح لغير الله – وتقديم ما هو الغرض أولى

---

1) البحر المحيط ج٣ ص ٥٩١

2) درة التنزيل ج١ ص ٣١٦ـ٣١٩

ولهذا جاز تقديم المفعول على الفاعل، والحال على ذي الحال، والظرف على العامل فيه إذا كان ذلك أكثر للغرض في الإخبار"[١]. وقد وافقه الأنصاري[٢].

أما ابن الزبير في ملاك التأويل ، فبعد أن بين طريقه العرب في التقديم ونقل كلاماً لسيبويه، بين السبب في التقديم والتأخير بكلام ملخصه " أنه لما تحصل في آية البقرة ما أشير إليه من تأكيد هذا المحرم ما ليس في الآي الأخر ناسبه تقديم المضمر المجرور في قوله " وما أهل به لغير الله " أما الآي الأخر فليس فيها ما في هذه فتأخر الضمير المجرور إلى محله الذي هو موضعه إذ لم يقصد هذا القصد ولم يكن ليلائمه التقديم"[٣]

وقد وافقه ابن جماعة في كشف المعاني إلا أنه أضاف إلى تعليله "إن آية المائدة وردت بعد تعظيم شعائر الله وأوامره ، والأمر بتقواه وكذلك آية النحل بعد قوله " واشكروا نعمة الله " وكان تقديم اسمه أهم" [٤] ثم يضيف تعليلاً آخر لم أجده عند غيره يقول فيه " وأيضاً فإن آيتي النحل والأنعام نزلتا بمكة، فكان تقديم ذكر الله بترك ذكر الأصنام على ذبائحهم أهم لما يجب من توحيده وإفراده بالتسمية على الذبائح ، وآية البقرة نزلت بالمدينة لبيان ما يحل وما يحرم ، فقدم الأهم فيه والله أعلم " [٥]

والمتأمل في كلام أبي حيان وتوجيهه يجد أنه أقرب للصواب نحوياً – ففي آية البقرة جاء لفظ الجلالة في نهاية المعطوفات التي حرمها الله فكان لفظ الجلالة فصلاً، وفي آية المائدة لم يكن لفظ الجلالة فصلاً ، لذلك أخر الجار والمجرور أما من حيث المعنى فما ذكره ابن جماعة هو الأليق ببيان القرآن وأسراره .

---

1) البرهان ص ٣٧

2) فتح الرحمن ص٤٢

3) انظر ملاك التأويل ج١ ص ٢٤٩ــ ٢٥١

4) كشف المعاني ص ١١٦

5) كشف المعاني ص ١١٦

ومن ذلك قولــه تعــالى﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾آل عمران: ١٠٦ - ١٠٧

يقول أبو حيان في سر ترتيب الآية الكريمة من آل عمران " هــذا تفــصيل لأحكام من تبيض وجوههم وتسود ، وابتدئ بالذين اسودت للاهتمام بالتحــذير مــن حالهم، ولمجاورة قوله : " وتسودُّ وجوه " وللابتداء بالمؤمنين، والاختتــام بحكمهــم فيكون مطلع الكلام ومقطعه شيئاً يسر الطبع، ويشرح الصدر" [١].

ولم أجد لعلماء المتشابه كلاماً حول هاتين الآيتين أو توجيهاً لهما . إلا أننــا نجد ابن أبي الأصبع في بديع القرآن قد ذكر هذه الآية وأنه قد روعي فيهــا حــسن الجوار [٢].

ومن المفسرين الرازي الذي أشار إلى حسن الترتيب في آية آل عمران بكلام فيه الكثير من الإيضاح يقول فيه " ابتدأ بذكر أهل الثواب وهم أهــل البيــاض، لأن تقديم الأشرف على الأخس في الذكر أحسن ، ثم ختم بذكرهم أيضاً تنبيهاً علــى أن إرادة الغضب كما قال " سبقت رحمتي غضبي " وأن الفصحاء والشعراء قالوا يجب أن يكون مطلع الكلام ومقطعه شيئاً يسر الطبع ويشرح الصدر و لا شــك أن ذكــر رحمة الله هو الذي يكون كذلك فلا جرم وقع الابتداء بذكر أهل الثــواب والاختتــام بذكرهم."[٣]

وأشار الألوسي إلى سر ذلك الترتيب والتقديم والتأخير فقــال " فأمــا الــذين أسودت وجوههم " تفصيل لأحوال الفريقين، وابتدأ بحال الذين اســودت وجــوههم

---

1) البحر المحيط ج٣، ص٣٦.

2) انظر بديع القرآن ص١٥٤.

3)التفسير الكبير للرازي ج١، ص١٥٠.

لمجاورته "وتسود وجوه " وليكون الابتداء والاختتام بما يسر الطبع ويشرح الصدر "[1].

ويقول الطاهر بن عاشور " ثم قدم في التفصيل ذكر سمة أهل العذاب تعجيلاً بمساء تهم"[2].

وهكذا نجد كلام المفسرين عن هذه الآية وسر هذا الترتيب فيها لا يكاد يختلف من واحد لآخر فمنهم من أطنب في ذلك ومنهم من أوجز في العبارة.

إلا أن أبا حيان أول من أشار بلفظة المجاورة حيث قدمت كلمة " اسودت " لتكون مجاورة لكلمة " وتسود " ولعله قد اطلع على ما كتبه ابن أبي الأصبع حول السر في ترتيب هذه الآية .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿١٣٥﴾ ﴾سورة النساء آية ١٣٥.

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾سورة المائدة آية - ٨

الاختلاف بين الآيتين المتشابهتين هو من جهة التقديم والتأخير ، ففي آية النساء تقديم قوله تعالى ﴿بالقسط ﴾ على شهداء ، وفي آية المائدة تأخير كلمة ﴿بالقسط ﴾ على شهداء.

---

1)روح المعاني ج٤، ص٣٣٦.

2)التحرير والتنوير ج٤، ص٤٥.

يقول أبو حيان في تفسيره لآية النساء معللاً تقديم "القسط"

"وتقدمت صفة قوامين بالقسط على شهداء لله، لأن القيام بالقسط أعم والشهادة أخص، ولأن القيام بالقسط فعل وقول والشهادة قول فقط"(١).

ثم يقول في موضع آخر عند تفسيره للآية من سورة المائدة معللاً سبب التقديم والتأخير "تقدم تفسير مثل هذه الجملة الأولى في النساء إلا أن هناك بدئ بالقسط وهنا أخر، وهذا من التوسع في الكلام والتفنن في الفصاحة، ويلزم من كان قائماً لله أن يكون شاهداً بالقسط ومن كان قائماً بالقسط أن يكون قائماً لله، إلا أن التي في النساء جاءت في معرض الاعتراف على نفسه وعلى الوالدين والأقربين فبدئ فيها بالقسط الذي هو العدل والسواء من غير محاباة نفس ولا والد ولا قرابة، وهنا جاءت في معرض ترك العداوات والإحن، فبدئ فيها بالقيام لله تعالى أولاً لأنه أردع للمؤمنين ثم أردف بالشهادة بالعدل، فالتي في معرض المحبة والمحاباة بدئ فيها بما هو آكد وهو القسط، وفي معرض العداوة والشنآن بدئ فيها بالقيام لله، فناسب كل معرض بما جيء به إليه وأيضاً فتقدم هناك حديث النشوز والإعراض وقوله تعالى: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ ﴾ النساء: ١٢٩، وقوله تعالى: ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا ﴾ النساء: ١٢٨، فناسب ذكر تقديم القسط، وهنا تأخر ذكر العداوة فناسب أن يجاورها ذكر القسط"(٢).

يذكر أبو حيان عدة توجيهات يرى أنها سبب في التقديم والتأخير أولها تقديم القسط في آية النساء وأن القيام بالقسط فعل وقول والشهادة قول فقط، وهذا التوجيه ذكره الرازي في تفسيره فقال "إنما قدم الأمر بالقيام بالقسط على الأمر بالشهادة لوجوه: منها أن القيام بالقسط فعل، والشهادة قول، والفعل أقوى من القول"(٣).

---

1)البحر المحيط، ج٣، ص٥٢٣.

2)المصدر السابق، ج٣، ٦١٤.

3) التفسير الكبير للرازي، ج١١، ص٥٨.

ثم نجد أبا حيان في موضع آخر لا يرى أن هناك فرقاً بين التقديم والتأخر في الآيتين ويرجع ذلك إلى التفنن في الكلام، ولا أرى أن ذلك يمكن أن يكون سبباً في التقديم والتأخير خاصة في كتاب الله الكريم.

ثم يكمل أبو حيان توجيهه ويجعل الأمر أكثر وضوحاً ويرجع السبب إلى اختلاف المقام الذي وردت فيه الآيتان، فالأولى في معرض المحبة والمحاباة للنفس وللوالدين والأقربين، والثانية في معرض العداوة والشنآن، فالسياق الذي وردت فيه الآيتان هو الأساس في هذا التعليل.

ثم نجد أبا حيان يذكر وجهاً آخر يقوم على المجاورة فآية النساء تقدمتها آيات ذكرت القسط والعدل بين النساء فناسب أن تبدأ الآية بذكر العداوة فناسب أن يجاورها ذكر القسط، فاعتمدت آية النساء على مناسبة ما قبلها وآية المائدة على مناسبة ما بعدها.

ومع اختلاف التوجيهات عند أبي حيان يختلف العلماء في تعليل سبب التقديم والتأخر في الآيتين، فمنهم من يرجع السبب إلى السياق الذي قيلت فيه الآيات ومنهم من يذكر أسباباً تعود إلى اللغة والنحو.

يقول الإسكافي "الآية الأولى في الشهادة أمر الله عز وجل من عنده شهادة أن يقوم بالحق فيها، ويشهد لله تعالى على كل من عنده حق كغيره يمنعه إياه حتى يصل إليه، فقال قوموا بالقسط، أي بالعدل في حال شهادتكم لله على كل ظالم حتى يؤخذ الحق منه، فقدم "بالقسط" لأنه من تمام "قوامين" إذ فعله يتعدى إلى مفعوله بالباء، وأما شهداء فإنها إذا كانت حالاً من الضمير في "قوامين" فإن حقها أن تجئ بعد تمام "قوامين" وكذلك إن كانت خبراً ثانياً وإن كانت صفة "القوامين" فإن حقها أن تجئ بعدها ..... وأما الآية التي في سورة المائدة فإن فحواها يدل على أنها للولاة فقال تعالى ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ لا لنفع ويكون "بالقسط" متعلقاً بـ"قوامين" أي كونوا قوامين لأجل طاعة الله بالعدل والحكم به في حال كونكم شهداء أي وسائط بين

الخلق والخالق أو بين النبي وأمته... والدليل على أن الخطاب لولاة الأحكام قوله بعده ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ المائدة:٨، وذلك عام في المخالفين من أهل الأديان والموافقين ممن حصلت لهم بغضة وعداوة أي اعدلوا على الولي والعدو عدلاً واحداً"[١] وقد وافقه الكرماني واختصر تعليله[٢].

أما ابن الزبير، وابن جماعة فنظرا للسياق المتصل بالآيتين، فالآيات المتصلة بآية النساء مبنية على الأمر بالعدل والقسط، كنشوز الرجال وإعراضهم عن النساء والصلح على مال وإصلاح حال الزوجين، وآية المائدة جاءت بعد أحكام تتعلق بالوفاء بالعهود والمواثيق وأحكام تتعلق بالطهارة. يقول ابن الزبير "إن الآيات المتصلة بآية سورة النساء مبنية على الأمر بالعدل والقسط قال تعالى: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾، وقال بعد ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ﴾، ثم قال ﴿ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَـٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ﴾، وتوالت الآي بعد على هذا المعنى فقدم قوله بالقسط ليناسب ما ذكره وأما آية المائدة فثبت قبلها الأمر بالطهارة ثم تذكيره سبحانه بتذكر نعمه والوقوف مع ما عهد به إلى عباده والأمر بتقواه فناسبه قوله: "كونوا قوامين لله" ثم اتبع بما بني على ذلك من الشهادة بالقسط[٣].

ومن التعليلات ما اعتمد على سبب النزول، وهذا ما ذكره الدكتور عبدالعظيم المعطني، فبعد أن ذكر أن سورة النساء مدنية باتفاق، وبإجماع على أن المائدة هي آخر ما نزل من القرآن. ذكر أن قوله تعالى: "كونوا قوامين بالقسط" خطاب خالص للمؤمنين، لأن القوامة عند المؤمنين أمر متحقق، والمطلوب تحري العدل في الشهادة والحكم، وذكر سبب نزول الآية، وأنها نزلت في النبي صلى الله عليه وسلم..

---

1) درة التنزيل للإسكافي ج١ ص ٤١٩ – ٤٢٢.

2) البرهان للكرماني ص٥٤.

3) انظر ملاك التأويل ج١، ص٣٥٨، كشف المعاني ص١٥٠.

اختصم إليه غني وفقير. وكان ضلعه مع الفقير رأى أن الفقير لا يظلم الغني. فأبى الله تعالى إلا أن يقوم بالقسط في الغني والفقير فقال: "يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط". حتى بلغ إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما". وأما ما قدم فيه "كونوا قوامين لله" فهو خطاب للمؤمنين والناس عامة. لأن السورة في كثير من الآراء نزلت بحجة الوداع، أو هي آخر ما نزل من القرآن، ولهذا فإن أهل مكة داخلون في المخاطبين بها، إذ هي في مقام الإرشاد العام، لذلك قدم فيها، "كونوا قوامين لله" لأن القوامة لله أمر ليس بمتحقق عند جميع المخاطبين بل متحقق عند بعضهم دون البعض الأخر"[1].

وأخيراً نجد أن التعليلات للتقديم والتأخير في الآيات لا تعارض فيما بينها، وأرى والله أعلم أن الأرجح هو تعليل ابن الزبير الذي ينظر إلى السياق، فهو يربط بين الآية وما تقدمها من آيات، وهذا ما أخذ به أبو حيان في تعليله، إلا أن نظره كان أعم وأشمل من ابن الزبير حيث علل تأخير "القسط" في آية المائدة بالنظر إلى ما جاء بعدها من الآيات التي تناولت أنواعاً عديدة من العداوات، يقول أبو حيان مشيراً إلى أية المائدة في آخر تعليله "وهنا تأخر ذكر العداوة فناسب أن يجاورها ذكر القسط"[2] ولعل أبا حيان قصد عداوة قوم موسى له، والعداوة التي كانت بين ابني آدم والتي أدت إلى قتل أحدهما للآخر، وعداوة المشركين للمسلمين وللرسول محمد صلى الله عليه وسلم وغير ذلك، وفي الآيات التالية أمر من الله سبحانه وتعالى لأنبيائه بأن يحكموا بالقسط ويأمروا بالعدل فناسب ذلك أيضاً تأخير القسط، فأبو حيان قد اجتهد في الوصول إلى السبب أو العلة في تقديم القسط في الآية الأولى وتأخيره في الآية الثانية فقد جمع بين عدة توجيهات، منها ما نقله عن غيره ومنها ما أضافه وقد وفق في ذلك، فأسرار كتاب الله لا تتزاحم.

---

1) خصائص التعبير القرآني ج٢، ص١٦٦.

2) البحر المحيط ج٣ ص٦١٤.

ومــن ذلــك قولــه تعــالى ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ الأنعام: ١٥١

وقوله تعالى ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ الإسراء: ٣١

يقول أبو حيان في تفسيره لسورة الأنعام مبيناً التشابه بــين الآيتــين " جــاء التركيب هنا " نحن نرزقكم وإياهم " وفي الإسراء " نحن نرزقهم وإياكم " فيمكن أن يكون ذلك من التفنن في الكلام ويمكن أن يقال في هذه الآية : جاء " مــن إمــلاق " فظاهره حصول الإملاق للوالد لا توقعه وخشيته وإن كان واجداً للمــال فبــدأ أولاً بقوله " نحن نرزقكم " خطاباً للآباء وتبشيراً لهم بزوال الإملاق وإحالة الرزق على الخلاق الرزاق. ثم عطف عليهم " الأولاد " وأما في الإسراء فظاهر التركيب أنهــم موسرون وأن قتلهم إياهم إنما هو لتوقع حصول الإملاق والخشية منه فبــدئ فيــه بقوله " نحن نرزقهم " إخباراً بتكفله تعالى برزقهم فلستم أنتم رازقيهم وعطف عليهم الآباء وصارت الآيتان مفيدتين معنيين ، أحدهما : أن الآباء نهوا عن قتل الأولاد مع وجود إملاقهم. والآخر : أنهم نهوا عن قتلهم وإن كانوا موســرين لتوقــع الإمــلاق وخشيته وحمل الآيتين على ما يفيد معنيين أولى من التأكيد"[1].

اتفق علماء المتشابه وغيرهم من المفسرين على توجيه هاتين الآيتين.

يقول الخطيب الاسكافي " فأما قوله في سورة الأنعام " نحن نرزقكم وإياهم " فلأن قبله : " ولا تقتلوا أولادكم من إملاق " أي : من أجل إمــلاق وانقطــاع مــال وزاد، وهذا نهي عن قتلهم مع فقرهم وخوفهم على أنفسهم إذا لزمتهم مؤونة غيرهم .... وأما الآية الثانية فإنه قال فيها " خشية إملاق " والإملاق غير واقع، فكأنه قال : خوف الفقر على الأولاد، وكان عقب هذا إزالة الخوف عنهم، ثم عن القاتلين، أي :

---

1)البحر المحيط ج٤، ص٣٢٤.

لا تقتلوهم لما تخشون عليهم من الفقر. فالله يرزقهم وإياكم، فقدم في كل موضع من الموضعين ما اقتضى تقديمه وأخر ما اقتضى الموضع تأخيره"(١).

وقد اتفق بقية علماء المتشابه على هذا التوجيه كالكرماني وابن جماعة والأنصاري رحمهم الله جميعاً(٢).

أما ابن الزبير فقد كان مخالفاً لغيره في توجيهه للآية الثانية حيث يقول:-

" وأما الآية الأخرى فقصد بها كفار العرب، وكان وأدهم البنات خشية الفقر المتوقع والعجز عن مؤنتهن فيما يتوقعونه مستقبلاً فقيل : " خشية إملاق " فجعلت الخشية في العلة في فعلهم" (٣) وأنا أرى أن توجيهه هذا بعيد عن المقصود من الآية لأن الآية الكريمة ذكرت الأولاد في قوله تعالى " ولا تقتلوا أولادكم " وكلمة الأولاد تشمل البنين والبنات لأن النفقة واحدة على الأولاد سواءً على البنين أو البنات، والشائع في الجاهلية هو أن وأد البنات كان بسبب الخوف من العار.

ومن الذين أشاروا إلى هاتين الآيتين أيضاً ابن أبي الأصبع المصري في كتابيه تحرير التحبير وبديع القرآن فقد ذكرهما في باب التغاير وذكر أنهما من باب تغاير المعنى لمغايرة اللفظ ، وفي باب الإيضاح وأنه نوع يأتي موضحاً لإشكال في جملتين من الكلام متضمنين معنى واحداً قد اختلفت العبارة فيهما (٤).

وقد أشار البقاعي إلى ذلك بقوله "ولما أوصى بالسبب في الوجود، نهى عن التسبب في الإعدام وبدأ بأشده" فقال "ولا تقتلوا أولادكم" ولما كان النهي عاماً وكان ربما وجب على الولد قتلٌ، خص لبيان الجهة فقال : "من إملاق" أي من أجل فقر حاصل بكم ، ثم علل ذلك، ولأجل أن الظاهر هو حصول الفقر قدم الآباء فقال "

---

1)درة التنزيل ج٢، ص٥٦٢.

2)انظر البرهان ٦٩، كشف المعاني : ١٧٥، فتح الرحمن: ١٣١.

3)ملاك التأويل ج١، ٤٧٩.

4)انظر تحرير التحبير ص٥٦١، بديع القرآن ص١٠٦، ص٢٦٠.

نحن نرزقكم " بالخطاب أي أيها الفقراء، ثم عطف عليه الأبناء، فقال " وإياهم " وظاهر قوله في الإسراء " خشية إملاق "أن الآباء موسرون ولكنهم يخشون من إطعام الأبناء الفقر، فبدأ بالأولاد فقال : " نحن نرزقهم " ثم عطف الآباء فقال " وإياكم " نبه عليه أبو حيان" [١]

ومما تقدم نلاحظ أن أبا حيان أول المفسرين الذين ذكروا التشابه في هاتين الآيتين لأننا عند الرجوع إلى كتب التفسير المتقدمة على أبي حيان كتفسير الزمخشري والرازي والبيضاوي والنسفي وغيرهم لم نجد منهم من ذكر الفرق بين الآيتين أما كتب التفسير المتأخرة عن تفسير أبي حيان، فقد وقفت عند الآيتين وبينت الفرق بين المعنيين، من تلك التفاسير : ابن كثير، وأبو السعود، والألوسي، والطاهر بن عاشور رحمهم الله تعالى[٢].

وقد ذكر الخطيب القزويني أيضاً توجيه هاتين الآيتين في " الإيضاح " في تقديم بعض معمولات الفعل على بعض فقال " قدم المخاطبين في الأولى دون الثانية لأن الخطاب في الأولى للفقراء بدليل قوله تعالى " من إملاق " فكان رزقهم أهم عندهم من رزق أولادهم، والخطاب في الثانية للأغنياء بدليل قوله. " خشية إملاق " فإن الخشية إنما تكون مما لم يقع فكان رزق أولادهم هو المطلوب دون رزقهم لأنه حاصل، فكان أهم، فقدم الوعد برزق أولادهم على الوعد برزقهم"[٣].

---

1) نظم الدرر ج٢، ص٧٤١.

2) انظر تفسير القرآن العظيم ج٢/ ١٠٨٠، تفسير أبي السعود، ج٢، ٣٠٢، روح المعاني ج٨/٤٠٣، التحرير والتنوير ج٨/ ١٥٩.

3)الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ص١١٤، دار إحياء العلوم بيروت، ط٢، ١٤١٢هـ ، ١٩٩٣م.

ومن ذلك قوله تعالى في قصة آدم وحواء ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الأعراف: ٢٣

وقوله تعالى في قصة بني إسرائيل ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ الأعراف: ١٤٩

يذكر أبو حيان سبب البدء بالرحمة في الآية الثانية وتأخيرها في الآية الأولى فيقول : " قالوا " لئن لم يرحمنا ربنا " انقطاع إلى الله تعالى واعتراف بعظيم ما أقدموا عليه وهذا كما قال : آدم وحواء﴿ وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا ﴾ الأعراف: ٢٣

ولما كان هذا الذنب وهو اتخاذ غير الله إلهاً أعظم الذنوب ، بدءووا بالرحمة التي وسعت كل شيء ومن نتاجها غفران الذنب ، وأما في قصة آدم فإنه جرت محاورة بينه تعالى وبينهما وعتاب على ما صدر منهما من أكل ثمر الشجرة بعد نهيه إياهما عن قربانها فضلاً عن أكل ثمرها فبادرا إلى الغفران وأتبعاه بالرحمة ، إذ غفران ما وقع العتاب عليه آكد ما يطلب أولاً "[1].

ولم يتحدث علماء المتشابه اللفظي عن هاتين الآيتين وما فيهما من تقديم وتأخير، ولم تذكر أيضاً عند المفسرين الذين اهتموا بهذا الجانب سوى في تفسير أبي السعود الذي يقول معللاً تقديم الرحمة على المغفرة في الآية " ١٤٩ " من الأعراف في قصة بني إسرائيل " وتقديم الرحمة على المغفرة مع أن التخلية حقها أن تقدم على التحلية إما للمسارعة إلى ما هو المقصود الأصلي وإما لأن المراد بالرحمة مطلق إرادة الخير بهم وهو مبدأ لإنزال التوبة المكفرة لذنوبهم"[2]وقد وافقه الألوسي ناقلاً عنه هذا التوجيه[3].

---

1) البحر المحيط ج٤، ص٤٩٧.

2) تفسير أبو السعود ج٢/ ٤٠٦.

3) انظر روح المعاني ج٩ / ٨٧.

وأبو السعود يعلل تقديم الرحمة في الآية التي تحدثت عن بني إسرائيل فقط دون ذكر الآية التي تحدثت عن قصة آدم وحواء. ويرى أن تقديم الرحمة جاء لسببين. إما للمسارعة إلى ما هو المقصود الأصلي أي الرحمة ، وإما لأن المراد بالرحمة مطلق إرادة الخير بهم وهو مبدأ لإنزال التوبة المكفرة لذنونهم.

وفي المقابل نجد أن تعليل أبي حيان وجيه ومنطقي حيث إن اتخاذ غير الله ذنب عظيم فطلبوا الرحمة التي وسعت كل شيء أولاً، وفي قصة آدم أذنبوا ذنباً حذرهم الله منه مسبقاً فوقعوا فيه فبادروا بطلب المغفرة والتوبة منه ثم الرحمة وقد تفرد أبو حيان في هذا التوجيه على حد علمي ولم يسبق إليه .

ومن ذلك قوله تعالى﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ الأعراف:١٨٨.

وقوله تعالى ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ ﴾ يونس: ٤٩

يذكر أبو حيان سبب تقديم النفع على الضر في الآية من سورة الأعراف مبيناً الفرق بينها وبين الآية من سورة يونس بقوله." وقدم هنا النفع على الضر لأنه تقدم "من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل" فقدم الهداية على الضلال، وبعده لاستكثرت من الخير وما مسني السوء فناسب تقديم النفع، وقدم الضر في يونس على الأصل لأن العبادة لله تكون خوفاً من عقابه أولاً ثم طمعاً في ثوابه ولذلك قال : ﴿ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا ﴾ السجدة: ١٦ فإذا تقدم النفع فلسابقه لفظ تضمنه وأيضاً ففي يونس موافقة ما قبلها ففيها ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، ما لا ينفعنا ولا يضرنا، لأنه موصول بقوله﴿ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ ﴾ الأنعام: ٧٠ وفي يونس ﴿ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ ﴾ يونس: ١٠٦وتقدمه ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ يونس:

١٠٣ وفي الأنبياء قال ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ الأنبياء: ٦٦ وتقدمه قول الكفار لإبراهيم في المحاجة ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ الأنبياء: ٦٥ وفي الفرقان ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴾ الفرقان: ٥٥ وتقدمه ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾ الفرقان: ٤٥ ونعم كثيرة، وهذا النوع من لطائف القرآن العظيم وساطع براهينه والاستثناء متصل، أي: إلا ما شاء الله من تمكيني منه فإني أملكه. وذلك بمشيئة الله " [١].

يوافق أبو حيان الكرماني في توجيهه للآيتين إلا أنه لم يشر إليه، ووافقهما أيضاً أبو يحيى الأنصاري[٢] والزركشي في البرهان[٣]. والألوسي[٤] .

أما الإسكافي فله توجيه آخر يرى فيه إن آية الأعراف تقدمها ذكر الساعة في قوله تعالى ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ ﴾ الأعراف: ١٨٧ فناسب تقديم النفع الذي هو ثواب الآخرة وتأخير الضر الذي هو العقاب ، وأما الآية في سورة يونس فتقدمها استعجال الكفار بالعذاب في قوله تعالى ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ يونس: ٤٨ وقبلها قوله تعالى ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ يونس: ٤٦ فناسب تقديم الضر على النفع[٥]. وقد وافقه على هذا التوجيه ابن الزبير الغرناطي وبدر الدين بن جماعة [٦].

ومن المفسرين الذين تناولوا الآية بالتوجيه أبو السعود عند تفسيره للآية من سورة يونس حيث يقول " وتقديم الضر لما أن مساق النظم لإظهار العجز عنه وأما

---

1) البحر المحيط ج٤/ ٥٥٢.

2) انظر فتح الرحمن ص/ ١٥٣ – ١٥٤.

3) انظر البرهان للزركشي ج١٢٢/١.

4) انظر روح المعاني ج١٧٧/٩.

5) انظر درة التنزيل ص/١٣٣-١٣٤.

6) ملاك التأويل ج١، ٥٧٦ وما بعدها، كشف المعاني ص ١٩٢

ذكر النفع فلتوسع الدائرة تكملة للعجز وما وقع في سورة الأعراف من تقديم النفع للإشعار بأهميته والمقام مقامه والمعنى أني لا أملك شيئاً من شؤوني رداً وإيراداً مع أن ذلك أقرب حصولاً فكيف أملك شئونكم حتى أتسبب في إتيان عذابكم الموعود(١).

وجميع التعليلات متقاربة وقد اعتمدت على سياق الآيات وأرى أن هذا هو الأصوب، وما ذكره أبو حيان نقلاً عن الكرماني في أن الأصل تقديم الضر بعيد عن الصواب والله تعالى أعلم. وقد ذكر ابن عاشور أن السر في تقديم النفع في آية الأعراف: "أن النفع أحب إلى الإنسان" (٢).

فالإنسان بفطرته يتطلع للنفع وللخير قال تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ سورة الأنبياء، آية: ٩٠، فليس الأصل هو تقديم الضر لأن العبادة تكون خوفاً من عقاب الله ثم طمعاً في ثوابه، بل الأصل هو الجمع في العبادة بين الخوف والرجاء.

ومن ذلك تعالى ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾ طه: ٧٠

وقوله تعالى ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ الأعراف: ١٢١ – ١٢٢.

وقوله تعالى ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾﴾ الشعراء: ٤٧ –٤٨

يقول أبو حيان" وقدم موسى في الأعراف وأخر هارون لأجل الفواصل ولكون موسى هو المنسوب إليه العصا التي ظهر فيها ما ظهر من الإعجاز، وأخر موسى لأجل الفواصل أيضاً كقوله " لكان لزاماً وأجل مسمى" وأزواجاً من نبات

1) تفسير أبي السعود، ج٢، ص٦٧٣.

2) التحرير والتنوير، ج٩، ص٢٠٧.

شتى" إذا كان شتى صفة لقوله أزواجاً ولا فرق بين قام زيد وعمرو وقـام عمـرو وزيد إذ الواولا تقتضي ترتيباً على أنه يحتمل أن يكون القولان من قـائلين نطقـت طائفة بقولهم رب موسى وهارون وطائفة بقولهم " رب هـارون وموسـى" ولمـا اشتركوا في المعنى صح نسبة كل من القولين إلى الجميع وقيل : قدم " هارون " هنا لأنه كان أكبر سناً من " موسى " وقيل لأن فرعون كان ربى موسى فبدؤوا بهارون ليزول تمويه فرعون أنه ربى موسى فيقول أنا ربيته وقالوا: رب هارون وموسـى ولم يكتفوا بقولهم برب العالمين للنص على أنهم آمنوا "برب" هذين وكان فيما قبـل يزعم أنه رب العالمين" [١].

لكل من المفسرين وعلماء المتشابه رأى حول تقديم هـارون علـى موسـى وتأخيره ، وهناك من ذكر سبباً واحداً لذلك، وهناك من ذكر سببين وأكثر.

فمن علماء المتشابه الكرماني في البرهان الذي يـرى أن التقـديم والتـأخير مراعاة لفواصل الآي[٢].

والغرناطي يرى أيضاً " أنها جرت وفق فواصل تلك السورة ورؤوس آياتهـا أو أن ذلك كان في موطن واحد، أو لعله كان في موطنين، أو لعله قد تكـرر مـنهم وإن كان في موطن واحد ، أو لعل بعضهم قال هذا وقال بعضهم هذا أو لعل المعنى الذي حكي عنهم تعطيه العبارتان" [٣].

ومن المفسرين نذكر على سبيل المثال تعليل أبي السعود الـذي يقـول فيـه " تأخير موسى عند حكاية كلامهم لرعاية الفواصل وقد جـوز أن يكـون ترتيـب كلامهم أيضاً هكذا إما لكبر سن هارون عليه الصلاة والسلام وأمـا للمبالغـة فـي الاحتراز عن التوهم الباطل من جهة فرعون وقومه حيث كان فرعون ربى موسـى

---

1)البحر المحيط ج٦، ص٣٢٢.

2)البرهان للكرماني ص٨٢.

3)ملاك التأويل ج١، ص٥٦٩.

عليه السلام في صغره فلو قدموا موسى عليه السلام لربما توهم اللعين وقومه من أول الأمر أن مرادهم فرعون"[1]. ويرى ابن عاشور أن " تقديم موسى لا دلالة فيه على تفضيل ولا غيره، لأن الواو لا تفيد أكثر من مطلق الجمع ، وتقديم هارون لرعاية الفاصلة "[2]. وعند الرجوع إلى تعليل أبي حيان نجد أنه قد جمع في تعليله كل ما قيل حول سبب التقديم والتأخير في تلك الآيات .

ونلاحظ أن معظم المفسرين وعلماء المتشابه قالوا بأن الفاصلة هي سبب التقديم والتأخير "وقد اعتنى القرآن الكريم عناية واضحة بالفواصل لما لذلك من تأثير كبير على السمع ووقع مؤثر في النفس. فقد ترى أنه مرة يقدم كلمة ومرة يؤخرها انسجاماً مع فواصل الآيات. فمثلاً يقول مرة: ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ الشعراء: ٤٧ – ٤٨ بتقديم موسى على هارون، فيجعل كلمة هارون نهاية الفاصلة انسجاماً مع الفواصل السابقة واللاحقة. ومرة يقول ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ طه: ٧٠ بتقديم "هارون" وجعل "موسى" نهاية الفاصلة لأن الألف فيها هي التي تناسب فواصل الآي في سورة طه" [3].

ومع اجتهاد هؤلاء العلماء في بيان السر في اختلاف الفاصلة في الآيات المتشابهات وأن ذلك مراعاة للجانب اللفظي إلا انه من الخطأ إن يقال بأن اختلاف الصياغة في الآيات المتشابهات بالتقديم والتأخير لمراعاة الفاصلة والمحافظة على الوزن، بل إن القران الكريم يراعى الجانب المعنوي إلى جانب المناسبة اللفظية.

"غير الذي نريد أن نؤكده هنا أن القران الكريم راعى في كل ذلك أيضا ما يقتضيه التعبير والمعنى، ولم يفعل ذلك للانسجام الموسيقى وحده فإنة لو لم يكن

---

1)تفسير أبو السعود ج٣، ص٦٤٨.

2)التحرير والتنوير ج١٦، ص٢٦٢. فتح الرحمن ص، ٢٦٣، وينظر التفسير الكبير للرازي ج٢٢، ص٧٥، تفسير البيضاوي ج٢، ص١٠٣، تفسير النسفي ج٣، ص٩٢، روح المعاني ج٩، ص٣٧.

3)التعبير القرآني، د. فاضل السامرائي، ص٢١٧.

الجانب الموسيقى مراعى في ذلك لا قتضاه الكلام من جهة أخرى . فهو لم يختم أية الشعراء بكلمة "هارون" وآية طه بكلمة (موسى) مراعاة للانسجام الموسيقى وحده ،بل اقتضاه الكلام من جهة أخرى ، فقد راعى الانسجام الموسيقي وما يقتضيه الكلام، فلم يجر موطن على أخر وهذا غاية الإعجاز ونهاية الحسن في الكلام"[1]. وما لم يتنبه له كثير من المفسرين وعلماء المتشابه، وأرى أنه توجيه جيد وله من الو جاهه الشيئ الكثير، ما ذكره الدكتور محمد الأمين الخضري ، حيث يقول متحدثا عن سورة طه واختصاصها بتقديم هارون على موسى عليهما السلام.

"أما لماذا كان فضل العناية والاهتمام بدور هارون في هذه السورة وحدها فهذا ما يفصح عنه السياق، حيث جاء في دعاء موسى من هذه السورة : (واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري). فهي السورة الوحيدة التي صرح فيها بهذه المشاركة ، وهي أقوى في إبراز دوره من قوله في الشعراء "فأرسل إلى هارون" وهي الوحيدة بين السور الثلاث التي طلب فيها من ربه إن يجعله وزيرا ز وقال في هذه السورة "فإياه فقولا إنا رسولا ربك" ٤٧. فأبرز بتثنية الرسول استقلال (هارون) في حين ظهرت تبعيته في إفراد الرسول من سورة الشعراء "" فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين".

واستمرارا لإبراز استقلال هارون ومشاركته المؤثرة في الأحداث وصفه قوم فرعون بما وصفوا به موسى من السحر "قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى "فتوالت ضمائر التثنية لتؤكد مشاركة هارون لموسى في مجابهة القوم، أما في سورتي الأعراف، والشعراء فقد أفردوا موسى عليه السلام بوصف السحر، وتوارت شخصية هارون تماما فجاء في سورة الأعراف "قال الملأ من قوم فرعون أن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون" كل ذلك جعل من تقديم هارون في سورة طه إبرازا لدوره،

---

1)المرجع السابق، ص٢١٨.

وتركيزا على مشاركته في الأحداث، ثم جاء موسى بعده على سبيل الترقي من البدء بالأفضل فالأفضل، بخلاف ذكره بعد موسى في مثل سياقاته فإنه يوحى بتبعيته ، ويبدو في دور المساند لا المشارك"[1].

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ الأنبياء: ٣١.

وقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠) ﴾ نوح: ١٩ – ٢٠.

يقول أبو حيان " وجاء هنا تقديم " فجاجاً على قوله " سبلاً " وفي سورة نوح قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠) ﴾ نوح: ٢٠ فقال الزمخشري : وهي يعني " فجاجاً " صفة ولكن جعلت حالاً كقوله : لمية موحشاً طلل

يعني أنها حال من سبل وهي نكرة، فلو تأخر " فجاجاً " لكان صفة كما في تلك الآية ولكن تقدم فانتصب على الحال، قال : فإن قلت : ما الفرق بينهما من جهة المعنى ؟ قلت : وجهان أحدهما إعلام بأنه جعل فيها طرقاً واسعة، والثاني بأنه حين خلقها خلقها على تلك الصفة فهو بيان لما أبهم ثمة انتهى" [2].

يتابع أبو حيان الزمخشري[3] في تعليله للتقديم والتأخير في كلتا الآيتين ويشير إليه في بداية كلامه ، ويذكر رأيه في قوله تعالى " فجاجاً " وأنها صفة ولكنها جعلت حالاً. ثم يوضح أبو حيان المقصود من كلام الزمخشري فيقول " يعني أنها حال من سبل وهي نكرة ، فلو تأخر " فجاجا " لكان صفة كما في تلك الآية ولكن

1)من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية، محمد الأمين الخضري، ص١٨-١٩، ١٤١٤هـ.
2)البحر المحيط ج٦، ص٣٨٠.
3)الكشاف للزمخشري ج٢، ص٥٧١.

تقدم فانتصب على الحال"[1]. ثم يعود فينقل عن الزمخشري ما رآه بينهما من فـــرق من جهة المعنى.

ونجد أن هاتين الآيتين الكريمتين قد ذكرهما معظم المفسرين مبينين ما فيهما من تقديم وتأخير كالرازي [2]، والنسفي[3].غير أني لم أجد لهما توجيها في الكتب التي عنيت بتوجيه المتشابه اللفظي .

أما البيضاوي في تفسيره فيقول " فجاجاً سبلاً " مسالك واســـعة وإنمـــا قـــدم فجاجاً وهو وصف له ليصير حالاً فيدل على أنه حين خلقها، خلقها كذلك أو ليبـــدل منها سبلا فيدل ضمناً على أنه خلقها ووسعها للسابلة مـــع مـــا يكـــون فيـــه مـــن التوكيد"[4]. فالبيضاوي يضيف رأياً جديداً إلى ما قالـــه الزمخـــشري ونقلـــه عنـــه المفسرون. وهو أن هناك بدلا ومبدلا منه وتوكيداً .

وللألوسي في روح المعاني كلام طويل حول الآيتين ذكر فيه عـــدة أقـــوال تضمنها رأي الزمخشري، يقول في توجيهه "والظاهر أن "فجاجـــاً"، نـــصب علـــى المفعولية لجعل، وقوله سبحانه "سبلاً" بدل منه فيدل ضمناً على أنه تعـــالى خلقهـــا ووسعها للسابلة مع ما فيه من التأكيد، لأن البدل كالتكرار وعلى نية تكرار العامـــل والمبدل منه ليس في حكم السقوط مطلقاً. وذكر أن بعضهم أوجـــب كـــون " ســـبلاً "مفعولاً وكون" فجاجاً "بدلاً قائلاً إن الفج اسم لا صفة لدلالته على ذات معينة وهـــو الطريق الواسع، والاسم يوصف ولا يوصف به ، ولذا وقع موصوفاً في قوله تعالى " من كل فج عميق " والحمل على تجريده عن دلالته على ذات معينة لا قرينة عليه ثم يقول إن سبلاً عطف بيان وهو سائغ في النكرات حيث قال: هو تفـــسير للفجـــاج

---

1)البحر المحيط، ج٦، ص٣٨٠.

2)التفسير الكبير للرازي، ج٢٢، ص١٤٢.

3)تفسير النسفي ج٣، ص١١٩، وينظر التحرير والتنوير ج١٧، ص٥٧.

4)تفسير البيضاوي ج٣، ص١١٣، وينظر تفسير أبو السعود ج٣، ص٦٩٩.

وبيان أن تلك الفجاج نافذة فقد يكون الفج غير نافذ وقدم هنا وأخر في آية سورة نوح لأن تلك الآية واردة للامتنان على سبيل الإجمال وهذه للاعتبار والحث على إمعان النظر وذلك يقتضي التفصيل ومن ثم ذكرت عقب قوله تعالى " كانتا رتقاً " ويقول في آخر كلامه:

" وأنت تعلم أن الأظهر نصب " فجاجاً، هنا على المفعولية لجعل ، ووجه التغاير بين الآيتين لا يخفى فتأمل " [١].

فالألوسي في كلامه السابق يجعل هناك عدة احتمالات للتقديم والتأخير – يضيفها إلى رأي أبي حيان والزمخشري ولا أتفق معه في أن هناك تكراراً للتأكيد ، فالتوكيد اللفظي يكون بإعادة اللفظ أو تقويته بمرادفه معنى[٢] وقوله تعالى " فجاجاً سبلاً" ليس فيها ترادف فالسبيل الطريق الذي فيه سهولة وجمعه سبل والفج شقة يكتنفها جبلان، ويستعمل في الطريق الواسع وجمعه فجاج[٣].

والمتأمل في قوله تعالى " وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلا لعلهم يهتدون " يدرك الفرق فقوله " فيها " تعود على الجبال ، والفجاج هي الطرق التي بين الجبال. " وإن من الأدلة على قدرته وكماله ووحدانيته ورحمته أنه لما كانت الأرض لا تستقر إلا بالجبال، أرساها بها وأوتدها لئلا تميد بالعباد، أي : لئلا تضطرب فلا يتمكن العباد من السكون فيها، ولا حرثها، ولا الاستقرار بها فأرساها بالجبال فحصل بسبب ذلك من المصالح والمنافع ما حصل ولما كانت الجبال المتصل بعضها ببعض قد تتصل اتصالاً كثيراً جداً فلو بقيت بحالها جبالاً شامخات، وقللاً باذخات، لتعطل الاتصال بين كثير من البلدان، فمن حكمة الله أن جعل بين تلك الجبال فجاجاً سبلاً، أي طرقاً سهلة لا حزنة، لعلهم

---

1)روح المعاني، ج١٧، ص٥٠.

2)أنظر معاني النحو ، ص٦٢.

3)أنظر مفردات الراغب، ص٢٢٣، وص ٣٧٣.

يهتدون إلى الوصول إلى مطالبهم من البلدان، ولعلهم يهتدون بالاستدلال بذلك على وحدانية المنان" [1].

وهناك توجيه لأحد المعاصرين يقول فيه " قدم الفجاج على السبل في الآية الأولى ، وأخرها عنها في آية نوح وذلك أن الفج في الأصل هو الطريق في الجبل أو بين الجبلين، فلما تقدم في آية الأنبياء ذكر الرواسي وهي الجبال قدم الفجاج لذلك بخلاف آية نوح فإنه لم يرد فيها ذكر للجبال فأخرها "[2].

والرأي عندي أن آية الأنبياء مدار الحديث فيها على الجبال ولذلك جاءت الفجاج مقدمة لأنها من متعلقات الجبال ، فهي من باب التفصيل للمجمل إذ هي الطرق والسبل الجبلية ،وأما آية نوح فمدار الحديث فيها على انبساط الأرض ولذلك قدم السبل باعتبارها الطرق التي تتوزعها الأرض عامة ، ومنها الفجاج التي هي الطرق المنبسطة بين الجبال الشاهقة ، والله أعلم بمراده .

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ المؤمنون: ٨٣

وقوله تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ النمل: ٦٧ – ٦٨

يبين أبو حيان سبب التقديم والتأخير في الآيتين السابقتين فيقول " وجاء هنا تقديم الموعود به، وهو "هذا " وتأخر في آية أخرى على حسب ما سيق الكلام لأجله، فحيث تأكد الإخبار عنهم بإنكار البعث والآخرة عمدوا إليها بالتقديم على

1)تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص٤٩٤.

2) التعبير القرآني، ص٦٢.

سبيل الاعتناء، وحيث لم يكن ذلك، عمدوا إلى إنكار إيجاد المبعوث، فقدموه وأخروا الموعود به " [١].

بنى أبو حيان توجيهه على ما سيق الكلام لأجله، وعند الرجوع إلى كتب التفسير نجد أن آراء المفسرين جاءت متشابهة تقريباً إلا أن لكل عالم أسلوباً مختلفاً في التعبير ، وأول هذه التفاسير الكشاف للزمخشري "الذي ينظر إلى أن التقديم دليل على أن المقدم هو الغرض المتعمد بالذكر، وأن الكلام إنما سيق لأجله. ففي إحدى الآيتين دل على أن اتخاذ البعث هو الذي تعمد بالكلام، وفي الأخرى على أن اتخاذ المبعوث بذلك الصدد " [٢].

ويشير الرازي أيضاً إلى أهمية المقدم فيقول " التقديم دليل على أن المقدم هو المقصود الأصلي وأن الكلام سيق لأجله ثم إنه سبحانه لما كان قد بين الدلالة على هذين الأصلين، ومن الظاهر أن كل من أحاط بهما فقد عرف صحة الحشر والنشر ثبت أنهم أعرضوا عنها ولم يتأملوها وكان سبب ذلك الإعراض حب الدنيا وحب الرياسة والجاه وعدم الانقياد للغير. لا جرم اقتصر على بيان أن الدنيا فانية زائلة فقال " قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين"[٣].

والأصل هو ما جاء في سورة المؤمنين وفي سورة النمل قدم البعث لأنه هو المقصود ولأنهم قد أنكروه وقد سيق الكلام لأجله، والمنصوب في سورة المؤمنين كان بعد المرفوع وهو الأصل وفي سورة النمل قدم المنصوب " هذا " على المرفوع لكونه المقصود. وقد ذكر ذلك السكاكي في المفتاح فقال " لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا " فذكر بعد المرفوع وما تبعه المنصوب وهو موضعه، وقال في سورة النمل : " لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا " فقدم لكونه منها أهم، يدلك على ذلك أن الذي

---

1)البحر المحيط ج٧، ص١٢٢.

2)الكشاف للزمخشري، ج٣، ص١٥٨.

3)التفسير الكبير، ج٢٤، ص١٨٣.

قبل هذه الآية " أئذا كنا تراباًوآباؤنا أئنا لمخرجون " والذي قبل الأولى " أئـذا متنـا وكنا تراباً وعظاماً " فالجهة المنظور فيها هناك هي كون أنفسهم تراباً وعظاماً، والجهة المنظور فيها هاهنا هي كون أنفسهم وكون آبائهم تراباً لأجزاء هناك من بناهم على صورة نفسه، ولا شبهة أنها أدخل عندهم في تبعيد البعث، فاستلزم زيادة الاعتناء بالقصد إلى ذكره، فصيره هذا العارض أهم " [١].

وهناك أقوال أخرى في كتب التفسير حول التقديم والتأخير في الآيتين السابقتين وقد أجمعت على أن تقديم الموعود " هذا " على " نحن " لأنه المقصود بالذكر[٢].

وقال عبدالقاهر الجرجاني في ذلك " وأعلم أنا لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئاً يجري مجرى الأصل غير العناية والاهتمام، قال صاحب الكتاب، وهو يذكر الفاعل والمفعول: "كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم ، وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم" [٣].

أما علماء المتشابه فقد نظروا والى السياق وتلاؤم اللفظ، يقول الخطيب الإسكافي "الجواب أن يقال: لما كان الأول في حكاية تظاهرت فيها أفعال أسندت إلى فاعليها متصلة بها وهو "بل قالوا مثل ما قال الأولون " ،فهذان فعلان تعلق بهما هذا المحكي ، وكل واحد منهما جاء بعده فاعله مواصلا له غير منفصل عنه، ثم بعده "قالوا أءذا متنا" فكل هذه الأفعال قصد بها حكاية ماجاء بعدها ، فلما قال "لقد وعدنا " وجب في البناء على الأفعال المتقدمة أن يتمم حكم الفاعل وهو توكيده،

---

1)المفتاح للسكاكي، ص٢٣٩، وينظر التحرير والتنوير ج٢، ص٢٥.

2)انظر تفسير النسفي، ج٣، ص٣٢٠ – تفسير البيضاوي ج٣، ص٢٨٨. نظم الدرر ج٥، ص٤٤٦، تفسير أبو السعود، ج٤، ص٢٧٨. روح المعاني ج٢٠، ص٢٩٦، فتح الرحمن للأنصاري، ص٢٨٣.

3)دلائل الإعجاز للجرجاني ص١٠٧.

والعطف عليه فقدم "نحن وإباؤنا" على المفعول الثاني، وهو "هذا" لذلك، ولأن الأصل إذا جرى عليه الشيء أولى من غيره.

أما الآية الثانية من سورة النمل فان الذي تقدمها "وقال الذين كفروا ءاذا كنا ترابا وإباؤنا" فأخر المعطوف على اسم كان الذي هو كالفاعل لها وهو قوله "وآباؤنا" عن المنصوب الذي هو كالمفعول لها وهو قوله " ترابا" فصار ما هو كالمفعول مقدما على ما هو معطوف على الفاعل " المضمر"[1] ووافقه على هذا التوجيه الكرماي، وابن جماعة الأنصاري[2].

أما ابن الزبير فقد ربط بين أية المؤمنين وبين الآية التي تقدمتها بخمس عشرة آية ، يقول في توجيهه " لأنه لما تقدم قبل أية المؤمنين قوله تعالى "أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت أبائهم الأولين" فتقدم التعريف في هذه الآية أن آباءهم قد جاءتهم الرسل ، وأنذروا كما أنذر هؤلاء ، لهذا قالوا : "لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين" ولما لم يتقدم في أية النمل ذكر إنذار آبائهم كان أهم شيء ذكر الموعود به الذي هو (هذا) فقالوا "لقد وعدنا هذا""[3].

وحين نتأمل التوجيهات السابقة نجد أنها جيده ومقبولة ، فهناك من نظر إلى أن التقديم يعود إلى أهمية المقدم ، وهناك من نظر إلى أنه يعود سياق الآيات وتلاؤم الألفاظ ، إلا أن هناك من نظر إلى الحالة النفسية التي كان عليها منكرو البعث فآية النمل جاء قبلها "أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون" فصيرورتهم ترابا أبعدت عنهم احتمال وقوع البعث ، فقدم اسم الإشارة لكونه محل إنكارهم القوى ، فصار أسرع حضورا في الذهن ، أما آية المؤمنين فجاء قبلها "قالو أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أءنا لمبعوثون" فهم هنا قد أقروا بالموت وأنهم سيصبحون ترابا وعظاما ،والعظام

---

1)درة التنزيل ج٢، ص٩٤٣.

2) أنظر البرهان، ص١٣٥، كشف المعاني ص٢٧٥، فتح الرحمن ص ٢٨٣.

3)ملاك التأويل، ج٢، ص٨٨٠.

أثر باق من آثار الحياة التي كانوا يحيونها والإنكار هنا أضعف لوجود العظام ولتقدم ذكر الموت، وهذا الضعف والله أعلم كان سببا في تقديم "نحن وآباؤنا" وتأخير هـذا لأنه موضع الاستغراب والإنكار[1].

ويمكن أن يكون سبب التقديم في أن سورة "المؤمنين" مقام الحديث في الآيات قبل أية الشاهد حول الكفار أنفسهم ومواقفهم التي من بينها إنكار البعث ، بينما سورة "النمل" المقام فيها قبل أية الشاهد عن إنكار الكفار لأفضال الله ومن جملة منكـراتهم إنكار البعث فكان الأنسب تقديم "نحن" وآباؤنا في سورة المـؤمنين لأنـه يناسـب المقام الرئيسي وهو الحديث عن "الكفار وآباؤهم" بينما كان تقديم هذا في سورة النمل أنسب لأنه يناسب مقام المنكرات التي منها إنكار البعث والله اعلم.

1)انظر: خصائص التعبير القرآني، عبدالعظيم المطعني، ج٢، ص١٨٥.

المبحث الخامس

تغير بنية الكلمة

المبحث الخامس

تغيير بنية الكلمة

هناك آيات قرآنية متشابهة تختلف مفرداتها ، فتأتي في موطن منها على صيغة، وفي موطن آخر على صيغة أخرى ، وقد اعتنى الإمام عبد القاهر بموضوع اختيار الصيغة عناية حسنة ، ولا سيما الفروق بين الاسم والفعل عند حديثه عن" الفروق في الخبر" [١] وقد يكون الاختلاف في بنية الكلمة من حيث الاسمية والفعلية، والاختلاف في صيغة الماضي والمضارع وفي صيغ الاشتقاق وفي صيغ الوصف ، ومن الآيات التي وجهها أبو حيان وتدخل في هذا المبحث :

قوله تعالى: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ ﴾البقرة: ٥٨.

وقوله تعالى: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ﴾الأعراف: ١٦١.

اختلفت صيغة جمع "خطيئة" في الآيتين السابقتين وقد أشار أبو حيان إلى ذلك عند تفسيره للآية من سورة البقرة فقال: "هنا "خطاياكم" وهناك "خطيئاتكم" وأجيب بأن الخطايا جمع كثرة فناسب حيث قرن به ما يليق بجوده ، وهو غفران الكثير والخطيئات جمع قلة لما لم يضف ذلك إلى نفسه" [٢].

وأبو حيان يوافق الإسكافي والكرماني والرازي في هذا التوجيه [٣].

أما ابن الزبير فقد رأى أن جموع التكسير ترد في الغالب للكثرة، فطابق الوارد في البقرة ما قصد من تكثير الآلاء والنعم. وأما الجمع بالألف والتاء فبابه القلة في الغالب أيضاً ما لم يقترن به ما يبين أن المراد به الكثرة، فناسب ما ورد في

---

1) انظر دلائل الإعجاز ص ١٧٣ ــ ١٩٨

2) البحر المحيط، ج١، ص٣٣٠.

3) انظر درة التنزيل، ص١١، البرهان، ص٢٩، التفسير الكبير، ج٣، ٨٦.

الأعراف من حيث لم تبن آيها من قصد تعداد النعم على ما بنيت عليه آي البقرة"[1].

وأرى أن الأرجح هو رأي ابن الزبير ، حيث إن آية البقرة في سياق تعداد النعم على بني إسرائيل وتكريمهم فناسب هذا التكريم مجيء "خطايا " بصورة جمع التكسير ليبين لنا أن الله يغفر لهم خطاياهم مهما كثرت بخلاف آية الأعراف فإنه لما كان المقام فيها مقام تقريع وتأنيب جاءت " خطيئة " مجموعة بالألف والتاء لتدل على القلة .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ ﴾ النساء: ١١٧.

وقوله تعالى: ﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ ﴾ الصافات: ٧.

يذكر أبو حيان الفرق بين " مارد" و "مريداً" في كل من الآيتين بكلام موجز مختصر يقول فيه: "وهناك جاء "مريداً" وهنا "مارد" مراعاة للفواصل"[2].

ولعل أول من أشار إلى الفرق. بين التعبير بـ"مارد" و "مريد" هو أبو حيان في تفسيره. ثم البقاعي الذي أشار إلى ذلك بقوله "مريداً" أي عاتياً صلباً عاصياً ملازماً للعصيان، مجرداً من كلّ خير، محترقاً بأفعال الشر بعيداً من كلّ أمن... وعبر بصيغة فعيل التي هي للمبالغة في سياق ذمهم تنبيهاً على أنهم تعبدوا لما لا إلباس في شرارته، لأنه شرّ كلهّ، بخلاف ما في سورة الصافات، فإن سياقه يقتضي عدم المبالغة " [3].

---

1)ملاك التأويل، ج ١، ٢٠٧.

2)البحر المحيط، ج٧، ص٤٦٩.

3)نظم الدرر، ج٢، ص٣٢٠.

ويشرح أبو السعود في تفسيره معنى المارد والمريد فيقول "المريد والمارد.. هو الذي لا يتعلق بخير وأصل التركيب للملاسة ومنه صرح ممرد وشجرة مرداء للتي تناثر ورقها"(١).

وأرى أن تعليل أبي حيان له وجه من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ، فهناك تلاؤم صوتي بين مريداً وما قبله "مصيراً و بعيداً" ، وتلاؤم بين مارد وما قبله "المشارق و الكواكب".

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴾ طه: ١٣٠

وقوله تعالى ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ هود: ١١٤

يقول أبو حيان في تفسيره للآية من سورة طه.

" جاءت التثنية على الأصل والجمع لأمن اللبس إذ النهار ليس له إلا طرفان. وقيل : هو على حقيقة الجمع الفجر الطرف الأول، والظهر والعصر من الطرف الثاني، والطرف الثالث المغرب والعشاء وقيل : النهار له أربعة أطراف عند طلوع الشمس، وعند غروبها، وعند زوال الشمس، وعند وقوفها للزوال، وقيل: الظهر في آخر طرف النهار الأول، وأول طرف النهار الآخر، فهي في طرفين منه، والطرف الثالث غروب الشمس وهو وقت المغرب ، وقيل يجعل النهار للجنس فلكل يوم طرف فيتكرر بتكرره ، وقيل المراد بالأطراف الساعات لأن الطرف آخر الشيء" (٢).

---

1)تفسير أبو السعود، ج١، ص٨٧٣.

2)البحر المحيط ج٦، ص٣٥٨.

ذكر أبو حيان عدة أقوال للمقصود بالأطراف ولم يختلف عن غيره من العلماء الذين أرجعوا سبب التعبير بالجمع في أطراف إلى أمن اللبس وأن التثنية هي الأصل – ونلاحظ أن علماء المتشابه لم يذكروا هاتين الآيتين وما فيهما من تشابه إلا أن معظم المفسرين ذكروهما في ثنايا تفاسيرهم وتشابه كلامهم في ذلك واختلف ، يقول الزمخشري – " فإن قلت : ما وجه قوله وأطراف النهار على الجمع وإنما هما طرفان كما قال – وأقم الصلاة طرفي النهار – ؟ قلت : الوجه أمن الإلباس وفي التثنية زيادة بيان ونظير مجيء الأمرين في الآيتين مجيئهما في قوله : ظهراهما مثل ظهور الترسين وقرئ وأطراف النهار عطفاً على آناء الليل" [1].

ويقول الرازي في تفسيره " لقائل أن يقول : النهار له طرفان فكيف قال " وأطراف النهار " بل الأولى أن يقول كما قال ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ ﴾ هود: ١١٤ وجوابه من الناس من قال: أقل الجمع اثنان فسقط السؤال، ومنهم من قال إنما جمع لأنه يتكرر في كل نهار ويعود" [2]. فالرازي يرى كغيره أن التثنية هي الأولى وهي الأصل. والزمخشري يرى أنها زيادة بيان وأن الجمع لأمن اللبس ويوافقه في ذلك البيضاوي فيقول " وأطراف النهار، تكرير لصلاتي الصبح والمغرب إرادة الاختصاص، ومجيئه بلفظ الجمع لأمن الإلباس كقوله :-

ظهراهما مثل ظهور الترسين .

أو أمر بصلاة الظهر فإنه نهاية النصف الأول من النهار وبداية النصف الآخر وجمعه باعتبار النصفين أو لأن النهار جنس، أو بالتطوع في أجزاء النهار" [3] ويرى النسفي[4] وأبو السعود[5] أن الجمع لأمن الإلباس أيضاً.

---

1)الكشاف للزمخشري، ج٢، ص٥٥٩.

2)التفسير الكبير للرازي، ج١٦، ص١١٦.

3)تفسير البيضاوي ج٣، ص١٠١.

4)تفسير النسفي، ج٣، ص١٠٧.

5)تفسير أبو السعود، ج٣، ص٦٧٨.

ونستطيع أن نقول بعد كل ما تقدم من كلام المفسرين أنهم أجمعوا على أن العلة في جمع أطراف هو أمن اللبس. ما عدا الرازي الذي لم يكن له رأي محدد بل تردد بين قولين، وهما أن الجمع أقله اثنان، ومن قال إنما جمع لأنه يتكرر في كل نهار ويعود.

وأرى أن أفضل توجيه للفرق بين الآيتين هو توجيه ابن عاشور في تحرير التحبير الذي يقول فيه :- " للنهار طرفان لا أطراف كما قال تعالى : " وأقم الصلاة طرفي النهار " فالجمع في قوله " وأطراف النهار " من إ طلاق اسم الجمع على المثنى، وهو متسع فيه في العربية عند أمن اللبس كقوله تعالى " فقد صغت قلوبكما " والذي حسنه هنا مشاكلة الجمع للجمع في قوله " ومن آناء الليل فسبح " [١] فنجد أن ابن عاشور أبان في تعليله عن سبب الجمع ، ومناسبته لما جاء في سياق الآيات من جمع في كلمة " آناء " ، وقد استشهد بآية أخرى مشابهة ، والمتأمل في الآيات الكريمة يلاحظ أن الآية التي ورد فيها " أطراف " بلفظ الجمع كان فيها أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بالتسبيح ، والتسبيح يكون في جميع الأوقات ليس له وقت محدد من النهار أو الليل ، أما الآية الأخرى التي وردت فيها " طرفي " بالتثنية . كان فيها أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بالصلاة ، والصلاة كما هو معروف لها أوقات محددة من النهار قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾ النساء: ١٠٣ وللصلاة خمسة أوقات مفروضة إلا أن هناك وقتين لهما فضل وتميز عن غيرهما ، وهما وقت صلاة الفجر ووقت صلاة العصر. فقد جاء في الحديث الشريف:- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل ، وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم ، فيسألهم الله وهو أعلم بهم كيف

1)التحرير والتنوير، ج١٦، ص٣٣٩.

تركتم عبادي ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون " متفق عليه[1].

ولعل المقصود بالطرفين هما وقت الفجر ووقت العصر – والله أعلم.

ومن ذلك قول تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ ﴾ الأعراف: ٥٧.

وقوله تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾ الفرقان: ٤٨

وقوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ فاطر: ٩

وقوله تعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ الروم: ٤٦

يقول أبو حيان في الفرق بين الفعل " أرسل " والفعل " يرسل " مشيراً إلى الكرماني صاحب كتاب البرهان " وقال الكرماني : " قال هنا " يرسل " لأن قبل ذلك ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ الأعراف: ٥٦ فهما في المستقبل فناسبه المستقبل، وفي الفرقان، وفاطر " أرسل " ، لأن قبله ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾ الفرقان: ٤٥ وبعده ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾ الفرقان: ٥٣ ومن آياته أن " يرسل " الروم ٤٦ ليوافق ما قبله من المستقبل ، وفي فاطر قبله ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ

1) رياض الصالحين للإمام أبي زكريا النووي ، ت: شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ط٢٣ ، ١٤١٧هـ ص ٤٣٥

﴿ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ ﴾ فـاطر: ١، وذلـك مـاض فناسـبه الماضـي، انتهـى ملخصاً"[1].

لم يكن لأبي حيان رأي خاص به في التشابه بين الآيات السابقة إنما توجيهه منقول عن الكرماني في البرهان [2]، ورأْي الكرماني هذا موافق للإسكافي الذي يرى " أن الآية التي في سورة الأعراف جاء فيها " يرسل " بلفظ المستقبل لأن قبلها: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦ ﴾ الأعراف: ٥٥ – ٥٦ ، فكان في ذلك بعث على الدعاء والتضرع، وتعليق الخوف والطمع بما يكون منه من الرحمة وصنوف ما رزق الله الخلق من النعم فكان لفظ المستقبل أشبه بموضع الخوف والطمع للداعين، وأدعى لهم إلى الدعاء ، وأما في سورة الفرقان، ومجيء هذا اللفظ فيها بلفظ الماضي فلأن قبل الآية ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا ٤٥ ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا ٤٦ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا ٤٧ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ٤٨ ﴾ الفرقـان: ٤٥ – ٤٨ فلمـا عـدد أنواع ما أنعم به، وكان إرسال الرياح من جملته عده مع ما تقدمه وأخبر منه عمـا فعله وأوجده .

وأما في سورة الروم فإن قبل الآية ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ ﴾ الروم: ٤٦ فبنى قوله " الله الذي يرسل الرياح .." علـى البناء الذي جعل عليه ما هو من آياته فحث على الاعتبار بما يعتاد من فعله تبـارك الله سبحانه وتعالى وأما في سورة الملائكة، واختيار لفظ الماضي فيها على المستقبل

1)البحر المحيط، ج٤، ص٤٠٧.

2)انظر البرهان للكرماني ص٧٤.

فلأن أولها ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ فاطر: ١ بمعنى فطر وجعل وخاتمة هذه العشر من مبتدأ السورة : ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ ﴾ فاطر: ٩ فلما افتتح العشر من أول السورة بالتمدح بما صنع أتبعه ما كان من جنسه مما فعل، فكان اختيار لفظ الماضي ها هنا لذلك " [١].

أما تعليل ابن الزبير فكان موافقاً لما ذكره الإسكافي في آية الفرقان والروم وفاطر أما آية الأعراف فقد ذكر أنه تقدمها قوله " يغشي الليل النهار " وأورد ما يتوالى بطول نواله العالم بمشيئتة ويتجدد عليهم مما به قوام حالهم إلى انقضاء الأمد المحدود ومجيء اليوم الموعود" [٢] فهو يرى أن المضارع يفيد التجدد والحدوث ، وقد جمع ابن جماعه بين توجيه الاسكافي وابن الزبير وكان كلامه مختصر جداً [٣].

وقد وافق أبو يحي الأنصاري في توجيهه الكرماني وأبو حيان وكان كلامه مختصراً[٤].

وجميع التوجيهات مقبولة ولا تعارض فيما بينها .

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿١١٢﴾ ﴾ الأعراف: ١١١ - ١١٢

وقوله تعالى ﴿ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ﴿٣٧﴾ ﴾ الشعراء: ٣٦ - ٣٧

يعلل أبو حيان تغيير صيغة " ساحر " إلى " سحار " بقوله وقرأ الأخوان بكل سحار هنا وفي يونس والباقون ساحر وفي الشعراء أجمعوا على سحار . وتناسب "

---

1)درة التنزيل ج٢، ٥٩٠-٥٩١.

2)انظر ملاك التأويل ج١/ ٤٩٧ وما بعدها.

3)انظر كشف المعاني ص١٨١-١٨٢.

4)انظر فتح الرحمن ص١٤١.

سحار " الـشعراء ٣٧ "عليم" لكونهما من ألفاظ المبالغة ولما كان قد تقـدم إن هـذا لساحر عليم ناسب هنا أن يقابل بقوله : بكل ساحر عليم " [١].

ويقول أبو حيان في موضع آخر عند تفسيره للآية من سورة الشعراء "ولمـا قال: "إن هذا لساحر عليم " عارضوا بقوله " بكل سحار " فجاءوا بكلمة الاسـتغراق والبناء الذي للمبالغة لينفسوا عنه بعض ما لحقه من الكرب[٢].

ومن الذين أشاروا إلى الاختلاف بين الصيغتين الكرماني الذي يقول " قوله : " بكل ساحر عليم " ١١٢ وفي الشعراء " بكل سحار " ٣٧ لأنه راعى ما قبله في هذه السورة وهو قوله " إن هذا لساحر عليم ١٠٩ وراعى في الشعراء الإمام فإنه فيـه " بكل سحار " بالألف وقرئ في هذه السورة " سحار " أيضاً طلباً للمبالغة. وموافقـة لما في الشعراء[٣].

ويقول الرازي في تفسيره للأعراف قرأ حمزة والكسائي بكل سحار، والباقون بكل ساحر فمن قرأ سحار فحجته أنه قد وصف بعليم. ووصفه به يدل على تناهيـه فيه وحذقه به ، فحسن لذلك أن يذكر بالاسم الدال على المبالغة في السحر، ومن قرأ ساحر فحجته قوله " وألقي السحرة { الأعراف ١٢٠} ولعلنا نتبع الـسحرة {الـشورى : ٤٠} والسحرة جمع ساحر مثل كتبه وكاتب وفجرة وفاجر واحتجوا أيـضاً بقولـه " سحروا أعين الناس " واسم الفاعل من سحروا ساحر" [٤].

ويقول معللاً ذكر صيغة المبالغة في قوله – سحار – " وعارضوا قوله " إن هذا لساحر عليم " بقولهم " بكل سحّار عليم " فجاءوا بكلمة الإحاطة وبصيغة المبالغة ليطيبوا قلبه وليسكنوا بعض قلقه" [٥]. وقد نقل النسفي هذا التعليل في تفسيره[١].

---

1)البحر المحيط، ج٤/ ٤٥٦.

2)المصدر السابق، ج٧/٢٠.

3)البرهان ص٨١، وينظر كشف المعاني ص١٩١، وفتح الرحمن ١٤٨.

4)التفسير الكبير للرازي، ج١٤/١٦٣.

5)المصدر السابق ج٢٤/١١٥.

ولم يبتعد البقاعي عما قيل حول اختلاف الصيغتين فقال : "ولما كانت دلالة السياق على رعب فرعون أقل مما في الشعراء لما اقتضاه الحال في كل منهما، قرأ الجمهور " ساحر عليم " أي بالغ العلم في السحر، وفي قراءة حمزة والكسائي " سحّار " زيادة مبالغة أيضاً لما رأوا من قلق فرعون في الجملة " [٢].

ويقول في موضع آخر " وكأنهم فهموا شدة قلقه فسكنوه بالتعبير بأداة الإحاطة وصيغة المبالغة فقالوا : بكل سحار " أي بليغ السحر " عليم " أي متناه في العلم به بعد ما تناهى في التجربة " [٣].

ومما تقدم من توجيهات نجد أن أبا حيان أتى بكل ما يمكن أن توجه به الآيات فالآراء قد أجمعت على ثلاثة أسباب لاختلاف صيغة الكلمة من " ساحر " إلى " سحّار " وهذه الأسباب هي :-

اختلاف في القراءات بين حمزة والكسائي والجمهور.

مراعاة سياق الآيات .

مراعاة نفسية فرعون وقلقه الشديد من موسى في سورة الشعراء ومحاولة تهدئته بصيغة المبالغة .

ويمكن أن يكون السبب الرئيسي هو اختلاف القراءات .

ومن الممكن أن يقال: أنه تقدم في سورة الشعراء قوله "بسحره" فناسب لفظ "سحار" فكان هناك تسلسل في الآيات "ساحر ثم بسحره ثم سحار" وقد أحدث ذلك تناغماً صوتياً بين الكلمات. وأما في الأعراف فقد حذف قوله "بسحره" والله أعلم.

---

1) انظر مدارك التنزيل للنسفي، ج٢، ص٢٦٧.

2) نظم الدرر للبقاعي، ج٣/٨١.

3) المصدر السابق، ج٥/٣٥٨.

المبحث السادس

إبدال كلمة بغيرها

المبحث السادس

إبدال كلمة بغيرها

يعبر القرآن الكريم عن المعنى المراد بلفظ معين ويحرص على أن يكون هذا اللفظ بذاته هو المقصود دون غيره من الألفاظ التي يتوهم أن تقوم مقامه في أداء المعنى، أو تسد مسدّه في الوصول إلى الغرض ، وإذا تأملنا الآيات المتشابهات في القرآن الكريم نجد منها ما كان مختلفاً في كلمة واحدة وإبدالها بكلمة أخرى لوجدناه أمراً مقصودا قائماً على أعلى درجات البلاغة والإعجاز، ومن الآيات المتشابهة في هذا المبحث التي أبدلت فيها كلمة بغيرها:

قوله تعالى ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ الأنبياء: ٩٢.

وقوله تعالى ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾ المؤمنون: ٥٢.

يبين أبو حيان السبب في مجيء "فاتقون" في المؤمنون و"فاعبدون" في الأنبياء بقوله "وجاء هنا" أي في المؤمنون "وأنا ربكم فاتقون" وهو أبلغ في التخويف والتحذير من قوله في الأنبياء "فاعبدون" لأن هذه جاءت عقيب إهلاك طوائف كثيرين من قوم نوح والأمم الذين من بعدهم، وفي الأنبياء وإن تقدمت أيضاً قصة نوح وما قبلها فإنه جاء بعدها ما يدل على الإحسان واللطف التام في قصة أيوب ويونس وزكريا ومريم، فناسب الأمر بالعبادة لمن هذه صفته تعالى"[1].

نجد أن هناك سراً بلاغياً في اختلاف الفاصلة ، فالكلام متصل بما قبله في كلا الموضعين ، والاختلاف يعود إلى سياق الكلام ، وهذا ما ذكره أبو حيان في توجيهه، إلا أن هناك سبباً آخر يذكره الإسكافي" وهو أن الآية الأولى " وأنا ربكم فاعبدون " واختصاصها دون قوله : " فاتقون " فلأنه خطاب للفرق التي تفرقت في

1)البحر المحيط ج٦، ص٤٩٩.

طرق الباطل ، ولم تخلص العبادة لله فنبأهم إلى أن يعبدوه، والتي في سورة المؤمنين إنما هي خطاب للرسل عليهم السلام لقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾ المؤمنون: ٥١ – ٥٢ وقد جاء في خطاب الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه والمؤمنين والصالحين بعدهم : اتقوا الله، قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ﴾ الأحزاب:١، وقال ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ التوبة:١١٩، وقال ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ ﴾ الحشر: ١٨ فلما كان أكثر من خوطب في السورة الآخرة الأنبياء والمؤمنون ، وهم يعبدون الله جل ذكره، وضم إليهم غيرهم من الفرق غُلِّبوا عليهم فخوطبوا بما يخاطب به المؤمنون، وهو " اتقوا الله " إذ كان أكثرهم له عابدين " [١].

فالإسكافي في تعليله لاختلاف الفاصلة يرجع إلى سياق الآيات ، فهو يرى أن الفِرَق التي تفرَّقت في طرق الباطل ولم تخلص العبادة ناسبها قوله "فاعبدون" أما خطاب الرسل عليهم السلام والمؤمنين بعدهم فيناسبه قوله "فاتقون" لأن أكثرهم كانوا عابدين لله.

أما الغرناطي في ملاك التأويل – فله تعليلان الأول " يرى فيه أن سورة الأنبياء لم يرد فيها ذكر لفظ التقوى بل ورد فيها الأمر بالعبادة ، وأما سورة المؤمنين فتكرر فيها ذكر التقوى في ثلاثة مواضع، وفيما بعد الآية " [٢].

أما التعليل الآخر، فلا شك في أن أبا حيان قد اطلع عليه – فالغرناطي يقول في تعليله مشيراً إلى سورة الأنبياء " فتضمنت هذه الآي بضعة عشر نبياً، أولهم إبراهيم وآخرهم من أعقب ذكره بالآية المذكورة، وقد اقتصر من قصصهم في هذه

---

1)درة التنزيل ج٢، ص٩١٧–٩١٨، وينظر البرهان ص١٣٠.

2)انظر ملاك التأويل ج٢، ص٨٤٩.

الآي على ما يطلع المؤمنين على تكفله سبحانه بالمصطفين من عباده وما اختـصهم به، ولم يرد مع ذلك تكذيب قومهم لهم، ولا ما يرجع إلى هذا ، وكل هـذا تـأنيس وذكر نعم وآلاء وألطاف يناسبها قوله " فاعبدون " لكونه أمراً بالعبادة مجرداً عمـا في قوله " فاتقون " من التخويف. وأما الوارد في سورة المؤمنين فمتضمن الطـرف الذي عدل عنه في سورة الأنبياء، وهو ذكر جواب الأمم للرسل وقبيح تكذيبهم إياهم وشنيع ردهم وقبيح مقالهم " [١].

فأبو حيان في توجيهه للآيات ذكر لنا سبباً وجيهاً في مجيء الأمر بـالتقوى في سورة المؤمنين وأنها أبلغ في التخويف لأنها جعل النفس في وقاية مما يخاف ثم يسمى الخوف تارة تقوى، والتقوى في تعارف الشرع حفظ النفس عما يؤثم، وذلـك بترك المحظور قال تعالى ﴿ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ الأعـراف: ٣٥، فنجد أنه فطن إلي علاقة التقوى بالخوف أما العبادة فهـي غايـة التـذلل ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى[٢] فالذي ينظر إلى سياق الآيات في سورة الأنبياء وفضله سبحانه على أيوب ويونس وزكريا ومريم عليهم السلام يجـد أن من كانت هذه أفضاله وهذا إحسانه ولطفه يستحق العبادة ، ومن خلال ما تقـدم من توجيهات أرى أن توجيه أبي حيان هو الصواب حتى وإن اعتمد فيه على كـلام الغرناطي في كتابه فله الفضل في أنه اختار التعليل الأصوب والأقرب إلى الـسبب في اختلاف الفاصلتين وأنه صاغ ذلك بأسلوب سهل وبعبارة موجزة أدت الغـرض في أسطر قليلة .

---

1)ملاك التأويل ج٢، ص٨٥٠.

2)انظر المفردات في غريب القرآن، ص٥٣٠-٥٣١.

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَا ﴾ البقرة: ١٨٧

وقوله تعالى ﴿ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَا ﴾ البقرة: ٢٢٩

يقول أبو حيان في توجيهه للآيتين من سورة البقرة " النهي عن القربان للحدود أبلغ من النهي عن الإلتباس بها وهذا كما قال صلى الله عليه وسلم " إن لكل ملك حمى، وحمى الله محارمه، فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه" والرتع حول الحمى وقربانه واحد، وجاء هنا: "فلا تقربوها" وفي مكان آخر " فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله"، وقوله "ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده " ، لأنه غلب هنا جهة النهي ، إذ هو المعقب بقوله : تلك حدود الله، وما كان منهياً عن فعله كان النهي عن قربانه أبلغ، وأما حيث جاء فلا تعتدوها وجاء عقب بيان عدد الطلاق، وذكر أحكام العدة والإيلاء والحيض، فناسب أن ينهى عن التعدي فيها، وهو مجاوزة الحدّ الذي حدَّه الله فيها، وكذلك قوله تعالى ﴿ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ ﴾ النساء: ١٤جاء بعد أحكام المواريث، وذكر أنصباء الوارث والنظر في أموال اليتامى وبيان عدد ما يحل من الزوجات، فناسب أن يذكر عقيب هذا كله التعدي الذي هو مجاوزة ما شرعه الله من هذه الأحكام إلى ما لم يشرعه وجاء قوله " تلك حدود الله " عقيب قوله "وصية من الله" ثم وعد من أطاع بالجنةوأوعد من عصا وتعدى حدوده بالنار فكل نهي من القربان والتعدي واقع في مكان مناسبته"[1].

وقد اتفق علماء المتشابه في موقفهم من قوله تعالى " فلا تقربوها " في أن النهي عن مقاربة الشيئ عنوان على تأكيد التحريم وتغليظه .

---

1) البحر المحيط، ج٢، ص٩١.

وقد ذكر صاحب درة التنزيل كلاماً موجزاً مفيداً في حديثه عن التشابه بين الآيتين يبين فيه أقسام الحدود فيقول :-

"الحدود ضربان: حدّ هو منع من ارتكاب المحظور، وحدّ هو فاصله بين الحلال والحرام، فالأول ينهى عن مقاربته ، والثاني ينهى عن مجاوزته، وهما المذكوران في السورة " [1]

أما الرازي في تفسيره فقد ذكر ثلاثة أقوال الأول وهو الأحسن والأقوى كما يقول الرازي وهو رأي الزمخشري في الكشاف نقله الرازي عنه بلفظه ولم يشر إلى ذلك يقول " الأول وهو الأحسن والأقوى أن من كان في طاعة الله والعمل بشرائعه فهو متصرف في حيز الحق فنهي أن يتعداه لأن من تعداه وقع في حيز الضلال، ثم بولغ في ذلك فنهي أن يقرب الحد الذي هو الحاجز بين حيز الحق والباطل، لئلا يداني الباطل وأن يكون بعيداً عن الطرف فضلاً أن يتخطاه كما قال عليه الصلاة والسلام " إن لكل ملك حمى وحمى الله محارمه فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه" [2].

وللطبري كلام جميل في معنى الآية " تلك حدود الله فلا تعتدوها " يقول فيه " وإنما عنى تعالى ذكره بقوله " تلك حدود الله فلا تعتدوها " هذه الأشياء التي بينت لكم في هذه الآيات التي مضت من نكاح المشركات الوثنيات، وإنكاح المشركين المسلمات ، وإتيان النساء في المحيض، وما قد بين في الآيات الماضية قبل قوله " تلك حدود الله " مما أحل لعباده وحرم عليهم وما أمر ونهى، ثم قال لهم تعالى ذكره هذه الأشياء التي بينت لكم حلالها من حرامها " حدودي " يعني به معالم فصول ما بين طاعتي ومعصيتي " فلا تعتدوها " يقول : فلا تتجاوزوا ما أحللته لكم إلى ما حرمته عليكم، وما أمرتكم به إلى ما نهيتكم عنه، ولا طاعتي إلى معصيتي، فإن من

---

1)درة التنزيل، ج١، ص٣٣٠. وينظر ملاك التأويل ج١ ص٢٥٨ .

2)التفسير الكبير ج٥، ص٩٩، الكشاف ج١، ص٣٤٠.

تعدى ذلك يعني من تخطاه وتجاوزه إلى ما حرمت عليه أو نهيته، فإنه هو الظالم"[١].

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ ﴾ آل عمران: ٤٠

وقوله تعالى ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾ آل عمران: ٤٧

يعلل أبو حيان التعبير بالفعل " يفعل " في الآية الأولى و " يخلق " في الآية الثانية بقوله : " قال كذلك الله يخلق ما يشاء " تقدم الكلام في نظيرها في قصة زكريا، إلا أن في قصته " يفعل ما يشاء " من حيث أن أمر زكريا داخل في الإمكان العادي الذي يتعارف وإن قل، وفي قصة مريم : يخلق ، لأنه لا يتعارف مثله، وهو وجود ولد من غير والد، فهو إيجاد واختراع من غير سبب عادي، فلذلك جاء بلفظ : يخلق، الدال على هذا المعنى" [٢].

وعند الرجوع إلى كتب المتشابه اللفظي لم أجد من تناول هاتين الآيتين بالتوجيه، إلا أنني وجدت ابن أبي الأصبع "الذي كانت له جهود في توجيه الآيات المتشابهات" في كتابه بديع القرآن يكشف لنا عن سر اختلاف التعبير القرآني في هاتين الآيتين بقوله: " فلقائل أن يقول : لم قال في حق زكريا " يفعل " وقال في قصة مريم " يخلق" والمعنى واحد، فإنه بشارة بولد في الموضعين، والانفصال عن ذلك أن استبعاد زكريا لذلك استبعاد لأمر غير خارق للعادة، وإنما وقوع مثله نادر بعيد فحسن أن يعبر عنه بلفظه "يفعل" لأن صيغة الفعل يخبر بها عمن تكرر منه

1)تفسير الطبري، ج٢، ص٤٨٧.

2)البحر المحيط ج٢، ص٧٣٩.

مثل ذلك الفعل، واستبعاد مريم عليها السلام – استبعاد أمر لا يقع مثله إلا خارقاً غير معتاد، فكان الإخبار عنه سبحانه، بوقوعه بلفظة الخلق أنسب لأن الخلق في اللغة هو التقدير، والتقدير مقدم على التصوير، وهو في اصطلاح الشرع الاختراع وفعل ما لا يقع مثله أولى بالاختراع، فناسب الإخبار عنه بلفظه الخلق " (١).

ومن المتأخرين عن أبي حيان البقاعي الذي وجه هاتين الآيتين بشيء من الإيجاز حيث قال " يخلق " أي يقدر ويصنع ويخترع " ما يشاء " فعبر بالخلق إشارة إلى أن العجب فيه لا في مطلق الفعل كما في يحى عليه السلام من جعل الشيخ كالشاب ثم علل ذلك بما بين سهولته فقال " إذا قضى أمراً " (٢).

ويقول الألوسي في روح المعاني " وقد مر عليك الكلام في مثل هذه الجملة خلا أن التعبير هنا بيخلق وهناك بيفعل لاختلاف القصتين في الغرابة. فإن الثانية أغرب، فالخلق المبني على الاختراع أنسب بها، ولهذا عقبه ببيان كيفيته فقال سبحانه " إذا قضى أمراً " أي أراد شيئاً " (٣)

وأخيراً نجد أن جميع التعليلات السابقة لا تتعارض وتتفق جميعاً في أن الفعل "يفعل داخل في الإمكان العادي أما الفعل " يخلق " فهو إيجاد واختراع، ونجد أيضاً أنه مع تقدم ابن أبي الأصبع على أبي حيان فلا أجزم بأنه قد نقل عنه فكل منهما متفرد في كلامه وكل منهما كان له أسلوبه في التوجيه وكل منهما قد أصاب.

---

1) بديع القرآن، لأبن أبي الأصبع ص٣٣٦-٣٣٧، ويراجع بحث الدكتور/ يوسف الأنصاري في جهود ابن أبي الأصبع المصري في المتشابه القرآني ص٥٣، وما بعدها.

2) نظم الدرر للبقاعي، ج٢، ص٩٠.

3) روح المعاني ج٣، ص٢٢٢.

ومن ذلك قوله تعــالى ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٧٠ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١ ﴾ آل عمـــران: ٧٠ – ٧١

يبين أبو حيان السبب الذي لأجله ختمت الآية الأولى بقولــه "تــشهدون" والثانية بـــ" تعلمون" فيقول "وختمت الآية قبل هذه بقوله" وأنتم تشهدون" وهذه بقوله "وأنتم تعلمون" لأن المنكر عليهم في تلك هو الكفر بآيات الله وهي أخص من الحق، لأن آيات الله بعض الحق، والشهادة أخص من العلم، فناسب الأخص الأخص وهنا الحق أعم من الآيات وغيرها، والعلم أعم من الشهادة، فناسب الأعم الأعم"[(١)].

وعند الرجوع إلى ماكتبه المفسرون تجده يتجه إلى إيــضاح وبيــان معنــى الآيات وتفسيرها دون بيان السبب في تغاير الفاصلتين في الآيتين.

يقول الزمخشري في ذلك " وشهادتهم اعترافهم بأنها آيــات الله أوَ تكفــرون بالقرآن ودلائل نبوة الرسول " وأنتم تشهدون نعمته في الكتابين أوَ تكفرون بآيات الله جميعاً وأنتم تعلمون أنها حق" [(٢)]

ولم أعثر فيما وقفت عليه من كتب المتشابه القرآني على شيء يتصل بتغاير الفاصلتين في هاتين الآيتين. وأرى أن الاختلاف بين الخاتمة في الآيتين يعود إلــى السياق كما ذكر أبو حيان فالخطاب في الآية الأولى لليهود والنصارى وتوبيخ لهم ، وجاء في تفسير الطبري

" تشهدون أن نعت محمد نبي الله صلى الله عليه وسلم في كتابكم ثم تكفــرون به وتنكرونه ولا تؤمنون به ،.... " آيات الله " محمد ، وأما "تشهدون" فيشهدون أنه الحق ، يجدونه مكتوباً عندهم ، وفي قوله تعالى " ياأهل الكتاب لم تلبــسون الحــق

1) البحر المحيط، ج٢، ص٨٧٨.

2)الكشاف ج١، ص٤٣٦، وينظر البيضاوي ج١، ص٢٦٤. تفسير النسفي ج١، ص٢٤٦، تفسير الرازي ج٨، ص٨١.

بالباطل " أي لم تخلطون الحق بالباطل ، وكان خلطهم الحق بالباطل إظهارهم بألسنتهم من التصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم وماجاء به من عند الله ، غير الذي في قلوبهم من اليهودية والنصرانية ، "وأنتم تعلمون" أن الذي تكتمونه من الحق حق ، وأنه من عند الله ، فالعلم أعمق وأعم من الشهادة فناسب الخلط بين الحق والباطل وكتمان الحق " (١)

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ النساء:١٢٨

وقوله تعالى ﴿ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ النساء: ١٢٩

يوجه أبو حيان الآيات السابقة معتمداً على السياق فيقول " وختمت تلك بالإحسان وهذه بالإصلاح لأن الأولى في مندوب إليه إذ له ألا يحسن وأن يشح ويصالح بما يرضيه، وهذه في لازم، إذ ليس له إلا أن يصلح، بل يلزمه العدل فيما يملك" (٢)

وعند الرجوع إلى الكتب السابقة لأبي حيان نقف على ثلاثة كتب مهمة وجهت تلك الآيات، أولها درة التنزيل للإسكافي ، فعند شرحه للآية الأولى ختم كلامه بقوله " هذا يقتضي مخاطبة الأزواج بمجانبة القبيح وإيثار الحسنى في معاملتهن، فبعث الله تعالى في هذا المكان على فعل الإحسان، وأما الآية الثانية فاقتضى في هذا الموضع أن يحث الأزواج على إصلاح ما كان منهم من الإنصباب إلى الواحدة دون ضراتها بالتوبة مما سلف ، واستئناف ما يقدرون عليه من

1) أنظر تفسير الطبري ج٣ ، ص ٣٠٧ ــ ٣٠٩ بتصرف

2)البحر المحيط ج٣، ص٥١٩.

التسوية، ويملكونه من الخلوة ، وسعة النفقة ، وحسن العشرة ، فقال " وإن تصلحوا وتتقوا"[١]

أما الغرناطي في ملاك التأويل فبعد أن شرح معنى الآيتين أشار إلى مجيء إحداهما بالإحسان والأخرى بالإصلاح فقال " وإن تحسنوا وتتقوا " فندب كلاً منهما إلى الإحسان والتقوى والزوج أخص بذلك ، وأولى وأن يحتمل كل منهما من صاحبه ويصبر فإن الله مطلع عليه خبير بما يكنه ويخفيه ... ثم يقول في نهاية كلامه عن الآية الثانية " وإن تصلحوا وتتقوا" المراد ما استطعتم وكان في إمكانكم فإن الله يغفر لكم ما سوى ذلك" [٢].

ويقول ابن جماعة في كشف المعاني " أما الأول : فالمراد أن يتصالحا على مال تبذله المرأة من مهر أو غيره ليطلقها. فإنه خير من دوام العشرة بالنشوز والإعراض ثم عذر النساء بقوله تعالى " وأحضرت الأنفس الشح، ثم قال وإن تحسنوا معاشرتهن بترك النشوز والإعراض، فإنه خبير بذلك، فيجازيكم عليه . وعن الثاني: أن العدل بين النساء عزيز ولو حرصتم، لأن الميل إلى بعضهن يتعلق بالقلب وهو غير مملوك للإنسان ، وإذا كان كذلك فلا تميلوا كل الميل فتصير المرأة كالمعلقة التي لا مزوجة ولا مطلقة ثم قال : وإن تصلحوا معاشرتهن بقدرالإمكان وتقوموا بحقوقهن المقدور عليها، فإن الله تعالى يتجاوز عما لا تملكونه من الميل بمعرفته ورحمته" [٣]

ومما تقدم نجد أن كلام علماء المتشابه عن الآيات – أشبه بالشرح والتفسير لمعنى الآيتين دون التركيز على الفرق بين الآيتين . أما أبو حيان فقد فرق بين الآيتين بكلام مختصر فيه الكثير من الدقة، وكان توجيهه واضحاً معتمداً على سياق

---

1)انظر درة التنزيل ج١، ص٤١١-٤١٢.

2) ملاك التأويل ج١، ص٤١١- ٤١٢.

3) كشف المعاني ص ١٤٨

الآيات. وقد اتفق مع ابن الزبير في أن الإحسان في الآية الأولى مندوب إليه ، أما الآية الثانية فيرى ابن الزبير أنها حث على الإصلاح على قدر الاستطاعة ووافقه الإسكافي ، أما أبو حيان فيرى أن الإصلاح والعدل - واجب ولازم - حتى يكون مستحقاً للمغفرة والرحمة - على ما بدر منه قبل ذلك ، وهذا هو الراجح .

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ الأنعام: ٩٧ - ٩٨

يذكر أبو حيان سبب اختلاف الفاصلتين في الآيتين السابقتين - فيقول " لما كان الاهتداء بالنجوم واضحاً ختمه بقوله " يعلمون " أي من له إدراك ينتفع بالنظر في النجوم وفائدتها، ولما كان الإنشاء من نفس واحدة والتصريف في أحوال كثيرة يحتاج إلى فكر وتدقيق نظر ختمه بقوله " يفقهون " إذ الفقه هو استعمال فطنة ودقة نظر وفكر، فناسب ختم كل جملة بما يناسب ما صدر به الكلام" [١]

لم يختلف أبو حيان في توجيهه عمن سبقه من المفسرين إنما اختلف التعبير عن ذلك الفرق عند كل واحد منهم يقول الزمخشري : " فإن قلت : لم قيل " يعلمون" مع ذكر النجوم و " يفقهون " مع ذكر إنشاء بني آدم؟ قلت : كان إنشاء الإنس من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة ألطف وأدق صنعة وتدبيراً، فكان ذكر الفقه الذي هو استعمال فطنة وتدقيق نظر مطابقاً له"[٢]. وقد نقل هذا التوجيه الرازي في تفسيره[٣]. والألوسي في روح المعاني[٤].

---

1)البحر المحيط، ج٤، ص٢٤٤.

2)الكشاف ج٢، ص٣٦.

3)التفسير الكبير للرازي ج١٣، ص٨٥.

4)روح المعاني ج٧، ص٣٠٢.

ويقول البيضاوي في تفسيره " ذَكَر مع ذِكْر النجوم "يعلمون" لأن أمرها ظاهر، ومع ذِكْر تخليق بني آدم "يفقهون" لأن إنشاءهم من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة دقيق غامض يحتاج إلى استعمال فطنة وتدقيق نظر"[١].

ولم يبتعد علماء المتشابه كثيراً عن توجيهات المفسرين إلا أنهم كانوا أكثر إسهاباً وتفصيلاً وقد اتفقوا على أن الفقه أخص من العلم ،وأنه التوسل إلى علم غائب بشاهد، وأن العلم إدراك الشيئ بحقيقته [٢].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ البقرة: ١٧٣

وقوله تعالى﴿ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٥﴾ ﴾ الأنعام:١٤٥.

يشير أبو حيان إلى الآية ١٧٣ من سورة البقرة عند تفسيره للآية ١٤٥ من سورة الأنعام مبيناً السبب الذي من أجله كان التعبير بقوله " فإن ربك " في آية الأنعام فيقول: " تقدم تفسير مثل هذا ولما كان صدر الآية مفتتحاً بخطابه تعالى بقوله " قل لا أجد " اختتم الآية بالخطاب فقال : "فإن ربك" ودل على اعتنائه به تعالى بتشريف خطابه افتتاحاً واختتاماً " [٣]

---

1)تفسير البيضاوي ج٢، ص ٣٧. وينظر تفسير النسفي ج٢، ص٣٨، ونظم الدرر ج٢، ص٦٨٤، وتفسير أبو السعود، ج٢، ص٢٥٥، والتحرير والتنوير ج٧، ص٣٩٧.

2)انظر درة التنزيل، ج٢، ص٥٣٠، وما بعدها، البرهان ص٦٥، ملاك التأويل، ج١، ص٤٦٢ وما بعدها، كشف المعاني ص١٧٠.

3)البحر المحيط ج٤، ص٣١٤.

اقتصر أبو حيان في توجيهه على آية الأنعــام وكــان توجيهــه مختــصراً ومحصوراً في سبب مجيء قوله تعالى " فإن ربك " خطاب للرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ختمت به الآية الكريمة وقد اختلف في توجيهه عن غيره من العلماء.

يقول الإسكافي مبيناً الفرق بين الآية ١٧٣ من سورة البقرة والآية ١٤٥ مــن الأنعام والآية ١١٥ من النحل . من حيث أن الآية الأولى ختمت بقوله تعــالى " إن الله غفور رحيم " والثانية " فإن ربك غفور رحيم " والثالثة " فإن الله غفور رحيم "

" لكل موضع معنى يوجب اختصاص اللفظ الذي ذكر فيه، فأما الأول فلأنــه لما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ﴾ البقرة: ١٧٢ – ١٧٣ كان بما قدمه مثبتــاً علــيهم إلهيته لأن الإله هو الذي تحق له العبادة بما له من النعمة، فلما قدم ذكر ما رزقهــم منها وطالبهم بشكرها أتبعه بقوله " إن كنتم إياه تعبدون " وختم الآية بأن قــال " إن الله غفور رحيم " أي إن من أنعم عليكم غاية النعمة واستحق بها غاية التعبد والتذلل هو الذي يغفر لكم عند الضرورة تناول ما حرم عليكم في حال الاختيار، رحيم بكم. وكذلك الآية الثالثة مبنية على مثل هذا لأن أولهــا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١١٤ ﴾ النحل: ١١٤ فكــان مشبهاً لما قدمناه فقال " فإن الله غفور رحيم " وأما الثانية فلأنــه قــدم عليــه ذكــر أصناف ما خلقه الله تعالى لتربية الأجسام فقــال ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعۡرُوشَٰتٍ ﴾ الأنعام: ١٤١ فذكر الثمار والحب وأتبعه بذكر الحيوان من الإبل والبقر والغنم خص هذا الموضع بذكر " الرب " لأن الرب هو القائم بمصالح المربوب فكان هذا أليــق بهذا المكان" [١]

---

1)درة التنزيل ج٢، ص٣١٢-٣٢٣.

أما الغرناطي فله تعليل آخر يقول فيه " فمن اضطر غير باغ ولا عاد فـإن ربك ... وهذا التفات لأن الجاري على "لا أجد فيما أوحي إلي" أن لو قيـل: فـإن ربي أو فإن الله، فعدل إلى الخطاب التفاتا فقيل " فإن ربك " لأن الكـلام إذا تنـوع حرك الخواطر إلى تفهمه، فقال تعالى " فإن ربك " ومع قصد الالتفات لم يعدل فيـه عند تخصيص الخطاب لأنه موضع تعنيف وزجر لمن تقدم ، فورد الالتفـات باسـم الربوبية مع الإضافة إلى ضمير خطابه صلى الله عليه وسلم ولم يقل : فإن الله وكان يكون فيه الالتفات لما قصد فيه من نحو الوارد في قوله: "ذلك بأن الله مولى الـذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم" وما ورد من مثله ليكون ذلك معرفاً بمكانته، عليـه السلام، وتحكيماً للإعراض عنهم وعدم التفاتهم وتناسب آخر الكلام وأوله"[1].

ومن المفسرين الذين تناولوا آية الأنعام بالتوجيه أبو السعود في تفـسيره والذي يقول: "وفي التعرض لوصف الربوبية إيماء إلى علة الحكم ، وفي الإضـافة إلى ضميره عليه السلام إظهار لكمال اللطف به عليه السلام" [2].

أما ابن عاشور فله توجيه جيد في تفسيره يقول فيه. " وإنما جاء المسند إليـه في جملة الجزاء وهو "ربك" معرفاً بالإضافة دون العلمية كما في آية سورة البقـرة "إن الله غفور رحيم" لما يؤذن به لفظ الرب من الرأفة واللطف بالمربوب والولايـة، تنبيهاً على أن الله جعل هذه الرخصة للمسلمين الذين عبدوه ولم يشركوا بـه، وأنـه أعرض عن المشركين الذين أشركوا معه غيره لأن الإضافة تـشعر بالاختـصاص لأنها على تقدير لام الاختصاص، فلما عبر عن الغفور تعالى بأنه رب النبي صـلى الله عليه وسلم، علم أنه رب الذين اتبعوه، وأنه ليس رب المشركين باعتبار ما فـي معنى الرب من الولاية، فهو في معنى قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ محمد: ١١، أي لا مولى يعاملهم بآثار الولاية وشعارها، ذلك

---

1)ملاك التأويل ج١، ص٢٥٢.

2)تفسير أبي السعود ج٣، ٤١٠.

لأن هذه الآية وقعت في سياق حجاج المشركين بخلاف آية البقرة فإنها مفتتحة بقوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾"[1].

ومما تقدم نجد أن جميع التوجيهات السابقة مقبولة وتعتمد على سياق الآيات، وقد كان تعليل أبي حيان جيدا بالرغم من وجازته واختصاره، وأرى أنه الأصوب من بين التعليلات الأخرى حيث إن الخطاب في بداية الآية للرسول صلى الله عليه وسلم " قل يا محمد " وفي نهاية الآية خطاب تشريف له صلى الله عليه وسلم " فإن ربك " فقد ربط أبو حيان بين بداية الآية ونهايتها .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ الأنعام: ١٥١

وقوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١٥٢ ﴾ الأنعام: ١٥٢

وقوله تعالى :

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ الأنعام: ١٥٣.

---

1) التحرير والتنوير ج٨ ص ١٤٠ ـــ ١٤١

يوضح أبو حيان الفرق بين كل من فاصلة الآيات الكريمات فيقول :-

"ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون "ولما كانت الخمسة المذكورة قبل هذا من الأمور الظاهرة الجلية وجب تعقلها وتفهمها، فختمت بقوله "لعلكم تعقلون" وهذه الأربعة خفية غامضة لابد فيها من الاجتهاد والذكر الكثير حتى يقف على موضع الاعتدال ختمت بقوله "لعلكم تذكرون"[(١)].

ثم يقول في موضع آخر عند تفسيره لقوله تعالى "ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون" كرر التوصية على سبيل التوكيد ولما كان الصراط المستقيم هو الجامع للتكاليف وأمر تعالى باتباعه ونهى عن بنيَّات الطرق، ختم ذلك بالتقوى التي هي اتقاء النار، إذ من اتبع صراطه نجاه النجاة الأبدية وحصل على السعادة السرمدية قال ابن عطية: ومن حيث كانت المحرمات الأُول لا يقع فيها عاقل قد نظر بعقله جاءت العبادة "لعلكم تعقلون" والمحرمات الأُخر شهوات وقد يقع فيها من العقلاء من لم يتذكر، وركوب الجادة الكاملة تتضمن فعل الفضائل وتلك درجة التقوى"[(٢)].

من خلال ما تقدم يمكن أن يقسم كلام أبي حيان إلى ثلاثة أقسام، القسم الأول نقله عن الرازي في تفسيره دون أن يشير إلى ذلك أما القسم الثاني فكان الكلام لأبي حيان أما القسم الثالث فقد أشار إلى أنه لابن عطية.

وعند الرجوع إلى كتب التفسير وكتب المتشابه اللفظي فلا يكاد يخلو كتاب من كلام حول هذه الآيات ، ونبدأ أولاً بكتب التفسير :- يقول الرازي في التفسير الكبير" فإن قيل : فما السبب في أن جعل خاتمة الآية الأولى بقوله " لعلكم تعقلون " وخاتمة هذه الآية بقوله " لعلكم تذكرون " قلنا : لأن التكاليف الخمسة المذكورة في الأولى أمور ظاهرة جلية فوجب تعقلها وتفهمها، وأما التكاليف الأربعة المذكورة في هذه الآية فأمور خفية غامضة لابد فيها من الاجتهاد والفكر، حتى يقف على موضع

---

1) البحر المحيط ج٤، ٣٢٦.

2) المصدر السابق، ج٤، ٣٢٨.

الاعتدال، فلهذا السبب قال " لعلكم تذكرون"[١] لكن الرازي لم يذكر سبب خاتمة الآية التي تلت هاتين الآيتين. وهي قوله تعالى "ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون" وهــذا مــا أضافه أبو حيان إلى كلام الرازي وتوجيهه.

ومن المفسرين الذين أشاروا إلى ذلك الألوسي في روح المعــاني إذ يقــول" وختمت الآية الأولى بقوله "لعلكم تذكرون" لأن القوم كانوا مستمرين على الــشرك، وقتل الأولاد ، وقربان الزنا، وقتل النفس المحرمة بغير حق ، غير مــستنكفين ولا عاقلين قبحها فنهاهم سبحانه، لعلهم يعقلون قبحها فيستنكفوا عنها ويتركوهــا، وأمــا حفظ أموال اليتامى عليهم وإيفاء الكيل، والعدل في القول والوفــاء بالعهــد فكــانوا يفعلونه ويفتخرون بالاتصاف به فأمرهم الله تعالى بذلك لعلهم يتذكرون " [٢].

وعند توجيه الألوسي للآية الثالثة والتي ختمت بقوله تعالى "لعلكــم تتقــون" نجده ينقل عن أبي حيان ما جاء في تفسيره من توجيه للآية الكريمة ويــشير إلــى اسمه صراحة[٣].

ومن أبدع ما قيل في تفسير خواتيم هذه الآيات الثلاثة ما جــاء فــي تفــسير التحرير والتنوير، يقول ابن عاشور في ذلك "لعلكم تعقلون" رجــاء أن يعقلــوا أي يصيروا ذوي عقول لأن ملابسة بعض المحرمات ينبئ عن خساسة عقــل، بحيــث ينزل ملابسوها منزلة من لا يعقل، فلذلك رجي أن يعقلوا"[٤].

وفي قوله " لعلكم تذكرون " لأن هذه المطالب الأربعة عرف بين العرب أنها محامد، فالأمر بها والتحريض عليها تذكير بما عرفوه في شأنها ولكنهم تناسوه بغلبة الهوى وغشاوة الشرك على قلوبهم "[٥].

---

1)التفسير الكبير للرازي، ج ١٣، ص ١٩٣.

2)روح المعاني للألوسي، ج٨، ٤٠٥-٤٠٦.

3)انظر المصدر السابق، ج٨/ ٤٠٧.

4)التحرير والتنوير ج٨، ١٦٢.

5)المصدر السابق، ج٨، ١٧٠.

وفي قوله تعالى " لعلكم تتقون " جعل الرجاء للتقوى لأن هذه السبيل تحتـــوي على ترك المحرمات وتزيد بما تحتوي عليه من فعل الصالحات ، فإذا اتبعها السالك فقد صار من المتقين أي الذين اتصفوا بالتقوى بمعناها الشرعي كقوله تعالى " هدى للمتقين " [١].

ومن أخصر التوجيهات والتي بينت العلاقة بين خاتمة هذه الآيات ما ذكــره النسفي في تفسيره حيث يقول "ذكر أولاً تعقلون ثم تذكرون ثم تتقون لأنهم إذا عقلوا تفكروا فتذكروا أي اتعظوا فاتقوا المحارم " [٢].

ولم تبتعد كتب المشابه كثيراً في توجيه الآيات عن كتب المفسرين سوى أن منها ما كان أكثر تفصيلاً وإسهاباً كالاسكافي في درة التنزيل ، "وأرى أنـــه أطـــال إطالة لا يستدعيها توجيه هذه الآيات" [٣]، ومنهم من توسط في ذلك كالغرنـــاطي[٤]، ومنهم من كان كلامه مختصراً كالكرماني[٥].

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ الأعراف: ٨١

وقوله تعالى: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ النمل:٥٥ يقول أبو حيان "هنا مسرفون باسم الفاعل، ليدل على الثبوت ولموافقة مـــا سبق من رؤوس الآي في ختمها بالأسماء، وجاء في النمل "تجهلـــون" بالمـــضارع، لتجدد الجهل فيهم ولموافقة ما سبق من رؤوس الآي في ختمها بالأفعال" [٦].

---

1) المصدر السابق، ج٨/ ١٧٤.

2) تفسير النسفي، ج٢/ ٦١.

3) انظر درة التنزيل ج٢، / ٥٦٤ وما بعدها.

4) انظر ملاك التأويل ج١ / ٤٨٠-٤٨١.

5) انظر البرهان للكرماني ص٦٩.

6) البحر المحيط ج٤، ص٤٢٧.

لم يختلف أبو حيان في توجيهه عن غيره من العلماء وأول توجيه نذكره هنا للإسكافي "فقد رأى اختصاص " مسرفين " بسورة الأعراف، لأن الآيات التي قبلها فواصلها أسماء جمعت هذا الجمع من حيث قال ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ الأعراف: ٧٤ فكانت فاصلة هذه الآية " مفسدين " وفاصلة ما بعدها " مؤمنون " وما بعدها " كافرون " وبعدها " المرسلين " وبعدها " جاثمين " وبعدها " الناصحين " وبعد ذلك إذ انتهى إلى هذه الآية " العالمين " فكان الاسم أحق بالوضع في هذا المكان لتتساوى الفواصل، وفي سورة النمل تقدم الآية التي فاصلتها " بل أنتم قوم تجهلون" آيات فواصلها أفعال وهي " يعلمون " يتقون " " يبصرون " فلما تناسقت هذه الأفعال في هذه الفواصل التي قبل هذه الفاصلة كان بناؤها على ما قبلها بلفظ الفعل أولى بها، فجاء " تجهلون " في هذا الموضع و"مسرفون" في الأول لهذا من القصد"[١] ووافقه الكرماني[٢]. وأبو يحي الأنصاري[٣].

ويذكر الغرناطي رأياً آخر يقول فيه" أنه قصد بما ذكر في سورة الأعراف الإشارة إلى التعريف بانهماكهم في الجرائم وقبيح المرتكبات ، فنص على أفحشها وحصل الإيماء إلى ما وراء ذلك بما ذكر من إسرافهم. "بل أنتم قوم مسرفون " ولما قيل في سورة النمل " أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون " كان أهم شيء أن تنفي عنهم فائدة الإبصار إذ لم تغن عنهم شيئاً فأعقب بقوله :" بل أنتم قوم تجهلون " أي أن مرتكبكم مع علمكم بشنيع ما فيه من أقبح ما يرتكبه الجهال"[٤].

---

1) انظر درة التنزيل ج٢، ص٦٣٣-٦٣٤.

2) البرهان للكرماني ص٧٨-٧٩.

3) فتح الرحمن للأنصاري ص١٤٤-١٤٥، وينظر روح المعاني ج٨، ص٥٥٤.

4) ملاك التأويل ج١، ص٥٤٨.

فنجد الغرناطي ينظر إلى سياق المعنى فيقول " مسرفون يدل على انهماكهم في الجرائم وقبيح المرتكبات وهو ما قام به قوم لوط من تجاوز للحدود وربط بين قوله " تبصرون " و " تجهلون " في أن من لم يبصر الحق كان جاهلاً فقوم لوط عميت بصائرهم عن الحقيقة مع أن نبي الله كان بينهم، فأصبحوا جاهلين وهذا التعليل جيد ومتعمق في معنى كل من الآيتين.

ومن بديع ما قيل في معنى الكلمتين ما قاله البقاعي في نظم الدرر يقول في سبب مجيء " مسرفون " في آية الأعراف " ولما كان مقصود هذه السورة الإنذار كان الأليق به الإسراف الذي هو غاية الجهل المذكور في سورة النمل فقال " مسرفون " أي لم يحملكم على ذلك ضرورة لشهوة تدعونها بل اعتياد المجاوزة للحدود" [١].

أما عند تفسيره لآية النمل فيقول " ولما كان مقصود السورة إظهار العلم والحكمة، وكانوا قد خالفوا ذلك إما بالفعل وإما لكونهم يفعلون من الإسراف وغيره عمل الجهلة قال " تجهلون "[٢] ومن الملاحظ أن البقاعي بنى توجيهه على أمرين:- الأول نظر إلى السورة كاملة، فالأعراف مقصودها الإنذار أما النمل فإظهار العلم، والأمر الثاني وهو الأهم معنى الإسراف الذي هو غاية الجهل. وهو ما فطن إليه البقاعي في نظم الدرر. فهناك علاقة بين الجهل والإسراف، فالسرف " تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان. وقولهم مررت بكم فسرفتكم أي جهلتكم ، من هذا أو ذاك أنه تجاوز ما لم يكن حقه أن يتجاوز فجهل ، فلذلك فسر به " [٣]

---

1)نظم الدرر للبقاعي ج٣، ص٦٣.

2)المصدر السابق، ج٥، ص٤٣٥.

3)المفردات في غريب القرآن ص٢٣٠-٢٣١.

أما الجهل فهو" فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل"[1]. وهو ما فعلــه قــوم لوط عليه السلام،

وقد التفت أبو يحيى الأنصاري إلى العلاقة بين معنى الجهل والإسراف فقال "عبر هنا بلفظ السرف والاسم ، وفي النمل " بلفظ الجهل والفعل تكثيراً للفائدة فــي التعبير عن المراد، بلفظين متساويين معنى، إذ كل سرف جهل، وبالعكس"[2].

وأخيراً نقول إن أبا حيان قد جمع بين تعليلين الأول :- التعبير باسم الفاعل " مسرفون " والذي يدل على الثبوت والموافقة ، والمضارع " تجهلون لتجدد الجهــل وهذه قاعدة عامة من مدلولات اسم الفاعل والفعل المضارع .

والتعليل الثاني : وهو مجيء الاسم " مسرفون " موافقاً لما قبله من أسماء – ومجيء الفعل " تجهلون " موافقا لما قبله من أفعال ، وأرى أن هــذا التعليــل هــو الأقرب إلى الصواب أما الأول فبعيد جداً عن المقصود بقوله " مسرفون " وتجهلون" في الآيتين حيث إن الجهل والإسراف متساويان كما سبق وذكرت .

ومن ذلك قولـه تعـالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ الرعد: ٣.

وقولـه تعـالى﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ الرعد: ٤.

يبين أبو حيان السر في اختلاف الفاصلة في الآيتين السابقتين فيقول " ولما كان الاستدلال في هذه الآية بأشياء في غاية الوضوح من مشاهدة تجــاور القطــع

---

1)المصدر السباق، ص١٠٢.

2)فتح الرحمن للأنصاري ص١٤٤.

والجنات وسقيها وتفضيلها، جاء ختمها بقوله :" لقوم يعقلون " بخلاف الآيـــة التـــي قبلها فإن الاستدلال بها يحتاج إلى تأمل ومزيد نظر جـــاء ختمهـــا بقولـــه " لقـــوم يتفكرون"[١].

لم أعثر فيما وقفت عليه من كتب التفسير على شيء يتصل بهـــاتين الآيتـــين وما بينهما من تشابه وفرق في التعبير بقوله تعالى " يتفكرون " وقوله " يعقلون "

أما علماء المتشابه فلم يغفلوا عن ذلك وعلى رأسهم الإسكافي الذي لا يـــرى صحة التعبير بأحد اللفظين مكان الآخر بالإضافة إلى أنه يربط بين اللفظين فيقول .

"إن التفكر هو المؤدي إلى معرفة الشيء والعلم بالآيات التـــي تـــدل علـــى وحدانية الله تعالى، فهو قبل، فإذا استعمل على وجهه عُقِل ما جعلت هـــذه الأشـــياء أمارة له ودلالة عليه فبدئ في الأول بما يحتـــاج إليـــه أولاً مـــن التفكـــر والتـــدبر المفضيين بصاحبهما إلى إدراك المطلوب، وخص الآخر بما يستقرعليه آخر التفكـــر من سكون النفس إلى عرفان ما دلت الآيات عليه، فكان في تقديم ما قدم وتأخير مـــا أخر إشارة إليه " [٢]

ويوافقه الكرماني ولكن بإيجاز شديد لكل ما سبق فيقول " إن في ذلك لآيـــات لقوم يتفكرون " وبعدها " إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون " لأنه بالتفكر فـــي الآيـــات يعقل ما جعلت الآيات دليلاً عليه، فهو الأول المؤدي إلى الثاني" [٣].

أما الغرناطي فله رأي مختلف يقول فيه " وأما معتبرات الأولـــى فيتوصـــل بالفكر إلى الحصول على الاعتبار بها وتعقلها وعجيب الحكمة فيها، وغموض ما في الثانية باد ولا يتوصل إلى بعض ذلك إلا بعد طول الاعتبار والتأييد منـــه ســـبحانه والتوفيق، فلما كان العقل أشرف وأعلى ناسبه أن يتبع به ما هو أغمـــض وأخفـــى،

---

1)البحر المحيط ج٥ / ٤٦٧.

2)درة التنزيل ج٢، س٨١٢-٨١٤.

3)البرهان للكرماني، ص١٠٤.

وناسب الفكر ما هو أظهر وأجلى، فقيل في عقب الآية الأولى: "لقوم يتفكرون" وفي عقب الثانية "لقوم يعقلون" ولو ورد العكس لم يكن ليناسب والله سبحانه أعلم" [١].

ولكن العكس ورد في تعليل أبي حيان الذي قال فيه " ولما كان الاستدلال في هذه الآية بأشياء في غاية الوضوح من مشاهدة تجاور القطع والجنات وسقيها وتفضيلها، جاء ختمها بقوله : " لقوم يعقلون " ، بخلاف الآية التي قبلها، فإن الاستدلال بها يحتاج إلى تأمل ومزيد نظر جاء ختمها بقوله " لقوم يتفكرون" [٢].

ومن خلال النظر إلى توجيه أبي حيان نجده يختلف مع علمين من علماء المتشابه، فالإسكافي يرى أن التفكر يكون أولاً ثم العقل ولا أرى بذلك حيث إن العقل أولاً ثم يكون التفكير فيما عقله الإنسان وعلمه ، أما الغرناطي فيرى أن الأمر إذا كان غامضاً يحتاج إلى إجالة العقل ، وإذا كان واضحاً يحتاج إلى تفكر.

وقد اختلف مع أبي حيان في ذلك حيث إن أبا حيان يرى العكس تماماً كما جاء في توجيهه الذي أرى أنه توجيه جيد – " لأن العقل يقال للقوة المتهيئة لقبول العلم ، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة عقل" [٣]. أما الفكر فهو قوة مطرقة للعلم إلى المعلوم، والتفكر جولان تلك القوة بحسب نظر العقل" [٤].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ إبراهيم: ٣٤.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ النحل:١٨.

---

1)ملاك التأويل ج٢، ص٦٩٩.

2)البحر المحيط ج٥ ص ٤٦٧

3)المفردات في غريب القرآن ص٣٤١.

4)المصدر السابق، ص٣٨٤.

يقول أبو حيان " والفرق بين الختمين : أنه هنا تقدم قوله " ألم تر إلى الــذين بدلو نعمة الله كفراً " وبعده " وجعلوا لله أنداداً " فكان ذلك نصاً على ما فعلــوا مــن القبائح من كفران النعمة والظلم الذي هو الشرك، بجعل الأنداد ، فناسب أن يختم بذم من وقع ذلك منه، فجاء " إن الإنسان لظلوم كفار" وأما في النحل فلما ذكــر عــدة تفضلات وأطنب فيها، وقال ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ النحل: ١٧ أي : من أوجد هذه النعم السابق ذكرها ليس كمن لا يقدر على الخلق ولا على شيء منه، ذكر من تفضلاته اتصافه بالعذاب والرحمة تحريضاً على الرجوع إليــه، وأن هاتين الصفتين هو متصف بهما كما هو متصف بالخلق، ففي ذلك إطماع لمن آمــن به. وانتقل من عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق أنه يغفر زلته الــسابقة ويرحمـــه، وأيضاً فإنه لما ذكر أنه تعالى هو المتفضل بالنعم على الإنسان، ذكر ما حصل مــن المنعم، ومن جنس المنعم عليه، فحصل من المنعم ما يناسبه حالــة عطائـــه وهــو الغفران والرحمة، إذلولاهما لما أنعم عليه. وحصل من جنس المنعم عليه ما يناســبه حالة الإنعام عليه، وهو الظلم والكفران، فكأنه قيل : إن صدر من الإنسان ظلم فالله غفور . أو كفران نعمة فالله رحيم لعلمه بعجز الإنسان وقصوره " [١].

أسهب أبو حيان في توجيهه لهاتين الآيتين وبيان السبب في ختم آية إبــراهيم بقول تعالى " لظلوم كفار. وآية النحل بقوله " لغفور رحيم " وأرجع ذلك إلى مناسبة السياق في كلتا الآيتين، ولم يختلف عن غيره من المفسرين وعلماء المتشابه الــذين كان توجيههم مبنياً على سياق الآيات أيضاً ولكنه تفوق عليهم فــي عرضـــه لــذلك التوجيه وفي إسهابه وفي أسلوبه الوعظي القريب إلى قلب القــارئ والــذي يــشده ويجعله أكثر تأملاً للآيات.

1)البحر المحيط ج٥، ص٥٤٩-٥٥٠.

ومن علماء المتشابه الذين أشاروا إلى الفرق بين ختم كل من الآيتين. الغرناطي والذي ذكر الآيات السابقة لهاتين الآيتين، يقول في توجيهه " إن آية إبراهيم تقدمها قوله تعالى "ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار" ثم قوله "وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله"، ثم ذكر إنعامه على عباده في قوله: الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم" إلى قوله "وآتاكم من كل ما سألتموه" فناسب ما ذكره تعالى من توالي إنعامه ودرور إحسانه ومقابلة ذلك من العبيد بالتبديل وجعل الأنداد ، وصف الإنسان بأنه ظلوم كفار، أما آية النحل فلم يتقدمها غير مانبه سبحانه عباده المؤمنين من متوالى آلائه وإحسانه وما ابتدأهم به من نعمة من لدن قوله " خلق الإنسان من نطفة "، ثم توالت آيات الامتنان والإحسان فقال تعالى :" والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع "، فذكر تعالى بضعاً وعشرين من أمهات النعم إلى قوله منبهاً وموقظاً من الغفلة والنسيان :" أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون " ثم أتبع بقوله سبحانه: "وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها"، فناسب ختام هذا قوله" إن الله لغفور رحيم، فجاء كل على ما يناسب والله أعلم " (1).

ومن المفسرين الذين تناولوا هاتين الآيتين بالتوجيه الرازي الذي له كلام جميل في ذلك يقول فيه "إنه تعالى قال في هذا الموضع" إن الإنسان لظلوم كفار" وقال في سورة النحل "إن الله لغفور رحيم " ولما تأملت فيه لاحت لي فيه دقيقة كأنه يقول: إذا حصلت النعم الكثيرة فأنت الذي أخذتها وأنا الذي أعطيتها، فحصل لك عند أخذها وصفان وهما كونك ظلوماً كفاراً، ولي وصفان عند إعطائها وهما كوني غفوراً رحيماً، والمقصود كأنه يقول: إن كنت ظلوماً فأنا غفور، وإن كنت كفاراً فأنا

1)ملاك التأويل ج٢، ص٧١٩-٧٢٠.

رحيم أعلم عجزك وقصورك فلا أقابل تقصيرك إلا بالتوقير ولا أجازي جفـاءك إلا بالوفاء " [1].

ويذكر الدكتور المطعني سؤالاً وجيهاً ويجيب عليه وهو إضافة جيدة إلى التوجيهات السابقة.

يقول: "لماذا أوثر وصف الإنسان في سورة إبراهيم على وصف الله ؟ ثم لماذا أوثر – كذلك – وصف الله في سورة النحل على وصف الإنسان ؟ وعندي .. أن إيثار وصف الإنسان في سورة إبراهيم لأن السورة عددت كثيراً من مظاهر النعم، فروعي جانب الإنسان فيها، وقليل من الناس الشكور فقررت السورة موقف سواد الناس من النعم.

وإيثار وصف الله في سورة النحل لأن السورة تحدثت عن كثير من صفات الله في موطن يدعي فيه المضللون وجود شريك لله – سبحانه – فناسب أن يراعى فيها – وصف الله دون الإنسان"[2].

---

1)التفسير الكبير للرازي، ج١٩، ص١٠٣، وينظر التحرير والتنوير ج١٤، ص١٢٤، نظم الدرر ج٤، ص١٨٨.

2)خصائص التعبير القرآني، ج١ / ٢٢٩.

الفصل الثالث

الأسرار البلاغية في المتشابه من الجمل

المبحث الأول التكرار

المبحث الثاني اختلاف صياغة الجملة

المبحث الأول

التكــــــــــرار

المبحث الأول

التكرار

إن أسلوب التكرار من الأساليب البلاغية الرفيعة ويتضح ذلك من الآيات القرآنية ، فما يكرر منها فإنما يكرر لأمر يقتضيه سياق النص ، يقول الزركشي في كلامه عن أسلوب التكرار " وقد غلط من أنكر كونه من أساليب الفصاحة ظاناً أنه لافائدة فيه ، وليس كذلك بل هو من محاسنها، لاسيما إذا تعلق بعضه ببعض ، وذلك أن عادة العرب في خطاباتها إذا أبهمت بشيء إرادةً لتحقيقه وقرب وقوعه أو قصدت الدعاء عليه توكيداً ، وكأنها تقيم تكراره مقام المقسَم عليه أو الاجتهاد في الدعاء عليه حيث تقصد الدعاء ، وإنما نزل القرآن بلسانهم وكانت مخاطباته جارية فيما بين بعضهم وبعض، وبهذا المسلك تستحكم الحجة عليهم في عجزهم عن المعارضة ، وعلى ذلك يحتمل ما ورد من تكرار المواعظ والوعد والوعيد، لأن الإنسان مجبول من الطبائع المختلفة وكلها داعية إلى الشهوات ولا يقمع ذلك إلا تكرار المواعظ والقوارع " (١) وهناك آيات اتفق العلماء على أن تكرارها للتوكيد ، وآيات أخرى مختلف فيها ، ومنبع هذا الخلاف فهمهم للآيات القرآنية المكررة وسنقف على بعض الآيات القرآنية المكررة التي وقف عليها أبو حيان لنرى رأيه فيها ومدى اتفاقه واختلافه مع غيره من العلماء.

من ذلك قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ آية ١٣٤ – البقرة.

وقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ آية ١٤١ – البقرة.

1 ــ البرهان للزركشي، ج٣، ص٩.

يقول أبو حيان عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ " تقدم الكلام على شرح هذه الجمل وتضمنت معنى التخويف والتهديد، وليس ذلك بتكرار. لأن ذلك ورد إثر شيء مخالف لما وردت الجمل الأولى بأثره، وإذا كان كذلك فقد اختلف السياق فلا تكرار، بيان ذلك أن الأولى وردت إثر ذكر الأنبياء، فتلك إشارة إليهم. وهذه وردت عقب أسلاف اليهود والنصارى، فالمشار إليه هم ، فقد اختلف المخبر عنه والسياق ، والمعنى: أنه إذا كان الأنبياء على فضلهم وتقدُّمهم، يجازون بما كسبوا، فأنتم أحق بذلك. وقيل: الإشارة بتلك إلى إبراهيم ومن ذكر معه، واستبعد أن يراد بذلك أسلاف اليهود والنصارى، لأنه لم يجر لهم ذكر مصرَّح بهم، وإذا كانت الإشارة بتلك إلى إبراهيم ومن معه، فالتكرار حسن لاختلاف الأقوال والسياق" [١].

يرى أبو حيان أن هذه الآية ليس فيها تكرار وذلك لاختلاف السياق، ويكاد يتفق علماء المتشابه والمفسرون في أنها لم تكن تكراراً، وإنما لاختلاف ما تنص عليه الآيتان.

وللخطيب الإسكافي كلام جيد في ذلك يوضح فيه الفرق بين الآيتين وأنه ليس فيهما تكرار يقول " ففي الأول نفي ما هو ثابت من إقرار بني إسرائيل وفي الثاني إثبات ما هو منتف من كون إبراهيم وإسماعيل وإسحاق هوداً أو نصارى ، وكل واحد من هذين يوجب من البراءة و يستحق به من غلظ الوعيد والتخويف بالعقاب والتنبيه على الكبيرة التي تحبط الحسنات مثل ما يوجبه الآخر فلذلك أخر في الدعوى الثانية الباطلة ما قدم في الدعوى الأولى الكاذبة ، وكما استحقت تلك براءة الذمة من قائلها وتنبيهه على فساد قوله ، كذلك استحقت هذه فصارت الثانية في

---

1)البحر المحيط ج١، ص٥٩٥.

مكانها ، وحقها كما وقعت الأولى في محلها ومستحقها، فلم يكن ذلك تكراراً بل كان وعيداً عقيب كبيرة، كما كان الأول وعيداً عقيب كبيرة أخرى"[1].

أما الغرناطي في ملاك التأويل فيقول " للسائل أن يسأل عن وجه تكرار هذه الآية بنصها فيما بعد ووجه ذلك، والله أعلم ، أنهم لما تعلقوا بأسلافهم ممن كان على سنن إبراهيم وإسماعيل ومن كان فيهم من الأنبياء عليهم السلام وظنوا أن تعلقهم بهم نافع لهم قيل لهم لن ينفعكم إلا عملكم وأما التعلق بأولئك من غير اقتداء بهم ولا اهتداء بهديهم فليس بنافع بل لهم أعمالهم ولكم عملكم: "تلك أمة قد خلت". ثم لما قرروا على ما يعتقدونه فيهم وقيل لهم. أتقولون أنهم كانوا على كذا، ليسوا على ما ظننتم، أأنتم أعلم أم الله؟ فهل أظلم منكم إذ قد علمتم تحريفكم وإجترامكم ؟ وبعد هذا فكل مطلوب بنفسه وما اجترحه "تلك أمة قد خلت" فتكريرها لتنوع ما نص عليه من مرتكباتهم الدائرة على جامع واحد مع تخيل التعلق بهم مع مخالفتهم فيما كانوا عليه"[2].

أما الكرماني في البرهان فلم يتطرق إلى توجيه هاتين الآيتين والظاهر أنه يرى أن الآيتين ليست من المتشابه وإنما تكرار فقط.

أما الرازي فيرى أنه متى اختلفت الأوقات والأحوال والمواطن لم يكن التكرار عبثاً فكأنه تعالى قال: ما هذا إلا بشر، فوصف هؤلاء الأنبياء فيما أنتم عليه من الدين لا يسوغ التقليد في هذا الجنس فعليكم بترك الكلام في تلك الأمة فلها ما كسبت وانظروا فيما دعاكم إليه محمد ﷺ، فإن ذلك أنفع لكم وأعود عليكم ولا تسألون إلا عن عملكم" [3].

---

1)درة التنزيل ج١، ص٢٩٦-٢٩٧.

2)ملاك التأويل، ج١، ص ٢٣٧ - ٢٣٨ .

3)التفسير الكبير للرازي، ج٣، ص٨٢.

وذكر الألوسي أسباباً عدّة للتكرار في الآية يقول : "تكرير لما تقدم للمبالغة في التحذير عما استحكم في الطباع من الافتخار بالآباء والاتكال عليهم كما يقال: اتق الله اتق الله، أو تأكيد وتقرير للوعيد ، يعني أن الله تعالى يجازيكم على أعمالكم ولا تنفعكم آباؤكم ولا تسألون يوم القيامة عن أعمالهم بل أعمال أنفسكم، وقيل: الخطاب فيما سبق لأهل الكتاب، وفي هذه الآية لنا ، تحذير عن الاقتداء بهم، وقيل: المراد بالأمة في الأول الأنبياء ، وفي الثاني أسلاف اليهود لأن القوم لما قالوا في إبراهيم وبنيه إنهم كانوا ما كانوا. فكأنهم قالوا: إنهم على مثل طريقة أسلافنا فصار سلفهم في حكم المذكورين فجاز أن يعنوا بالآية، ولا يخفى ما في ذلك من التعسف الظاهر" (١).

ومن المفسرين من رأى أنه تكرار فقط ولا فرق بين الآيتين. كالطاهر بن عاشور حيث يقول: "تكرير لنظيره الذي تقدم آنفاً لزيادة رسوخ مدلوله في نفوس السامعين اهتماماً بما تضمنه لكونه معنى لم يسبق سماعه للمخاطبين فلم يقتنع فيه بمرّة واحدة ومثل هذا التكرير وارد في كلام العرب"(٢).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾البقرة: ١٤٤.

وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ البقرة: ١٤٩

وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ البقرة: ١٥٠.

---

1)روح المعاني ج١، ص٥٤٩.

2)التحرير والتنوير ج١، ص٧٤٨.

يذكر أبو حيان أقوالاً كثيرة في التشابه بين هذه الآيات فيقول " ظاهر هذه الجملة أنها كررت توكيد لما قبلها في الآية التي تليها فقط ، لا أن ذلك توكيد للآية الأولى، لأنا قد بينا أن الأولى في الإقامة، والثانية في السفر. وأما الثالثة فهي في السفر فهي تأكيد للثانية وحكمة هذا التأكيد تثبيت هذا الحكم وتقرير نسخ استقبال بيت المقدس لأن النسخ هو من مظان الفتنة والشبهة وتزيين الشيطان للطعن في تبديل قبلة بقبلة، إذ كان ذلك صعباً عليهم، فأكد بذلك أمر النسخ وثبت، وكان التأكيد على ما قررناه بتكرير هذه الجمل مرتين، لأن ذلك هو الأكثر المعهود في لسان العرب، وهو أن تعاد الجملة مرّة واحدة.

وقال المهدوي: كررت هذه الأوامر، لأنه لا يحفظ القرآن كل أحد، فكان يوجد عند بعض الناس ما ليس عند بعض لو لم يكرر. وهذا المعنى في التكرير يروى عن جعفر الصادق، ولهذا المعنى وقع التكرير في القصص.

وقيل: لما كانت هذه الواقعة أول الوقائع التي ظهر النسخ فيها في شرعنا، كررت للتأكيد والتقرير وإزالة الشبهة " [1].

ثم يذكر أبو حيان عشرة أقوال أخرى لمجموعة من العلماء لم يشر إلى اسم أي منهم صراحة فيقول:

"وقد ذكر العلماء في هذه الآيات مخصصات تخرجها بذلك عن التأكيد. فقيل: الأولى من قوله: "فول وجهك" نسخ للقبلة الأولى، والثانية لاستواء الحكم في جميع الأمكنة، والثالثة للدّوام في جميع الأزمان. وقيل. الأولى في المسجد الحرام، والثانية خارج المسجد، والثالثة خارج البلد. وقيل: الخروج الأول إلى مكان ترى فيه الكعبة، والثاني إلى مكان لا ترى فيه فسوى بين الحالتين، وقيل: الخروج الأول متصل بذكر السبب، وهو: "وإنه للحق من ربك" والثاني متصل بانتفاء الحجة، وهو: "لئلا يكون

---

1)البحر المحيط، ج١، ٦٢٧.

للناس عليكم حجة". وقيل الأول لجميع الأحوال، والثاني لجميع الأمكنـــة، والثالــث لجميع الأزمنة. وقيل: الأول أن يكون الإنسان في المسجد الحرام، والثاني: أن يكون خارجاً عنه وهو في البلد، والثالث أن يخرج عن البلد إلى أقطـــار الأرض، فـــسوى بين هذه الأحوال، لئلا يتوهم أن للأقرب حرمة لا تثبت للأبعد. وقيل: التخـــصيص حصل في كل واحد من الثلاثة بأمر، فالأول بين فيه أن أهل الكتاب يعلمـــون أمـــر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأمر هذه القبلة، حتى إنهم شاهدوا ذلك في التـــوراة والإنجيل، والثاني فيه شهادة الله بأن ذلك حق، والثالث بين فيه أنه فعل ذلـــك "لـــئلا يكون للناس عليكم حجة" فقطع بذلك قول المعاندين وقيل: الأول مقـــرون بإكرامـــه تعالى إياهم بالقبلة التي كانوا يحبونها، وهي قبلة إبراهيم. على نبينا وعليـــه أفـــضل الصلاة والسلام، بقوله: "ولكل وجهة هو موليها"، أي لكل صاحب دعوة قبلة يتوجـــه إليها، فتوجهوا أنتم إلى أشرف الجهات التي يعلم الله أنها الحق، والثالـــث مقـــرون بقطع الله حجة من خاصمه من اليهود وقيل: ربما خطر في بال جاهل أنه تعالى فعل ذلك لرضا نبيه لقوله: "فلنولينك قبلة ترضاها"، فأزال هذا الوهم بقوله: "وإنه للحـــق من ربك"، أي ما حولناك لمجرد الرضا، بل لأجل أن هذا التحويل هو الحق، فليست كقبلة اليهود التي يتبعونها بمجرد الهوى، ثم أعاد ثالثاً، والمراد: دوموا علـــى هـــذه القبلة في جميع الأزمنة. وقيل: كرر"وحيث ما كنتم، فحث بإحداها على التوجه إلـــى القبلة بالقلب والبدن، في أي مكان كان الإنسان نائياً، كان عنها، أو دانياً منها، وذلك في حال التمكن والاختيار. وحث بالأخرى على التوجه بالقلب نحوه عند اشتباه القبلة في حالة المسابقة، وفي النافلة في حالة السفر، وعلى الراحلة في السفر"[1].

يذكر أبو حيان آراء عديدة لسبب التكرار في الآيات أول هذه الآراء له ولـــم ينسبه إلى غيره سواء إلى معلوم أو إلى مجهول ، ثم نجده يذكر رأياً آخـــر لأحـــد العلماء وقد أشار إلى اسمه بقوله "وقال المهدوي". والمهدوي الذي أشار إليـــه هنـــا

1)البحر المحيط، ج١، ص٦٢٧ – ٦٢٨.

ونقل عنه هو أحمد بن عمار بن أبي العباس المالكي المهدوي المغربي الأندلسي صاحب تفسير "التفصيل الجامع لعلوم التنزيل" والمتوفي سنة ٤٤٠.

وما ذكره المهدوي يضاف إلى رأي أبي حيان ولا تعارض بينهما .

ثم نجد أبا حيان يذكر أقوالاً أخرى كثيرة تصل إلى عشرة أقوال ولم ينسبها إلى قائليها وعند الرجوع إلى كتب المتقدمين من المفسرين وعلماء المتشابه، نجد أن منها ما ذكره الإسكافي في الدرة[١]. ومنها قولان للكرماني في البرهان[٢] ومنها قول ذكره الرازي في تفسيره[٣].

وهناك تعليل لتكرار الآيات اشترك فيه أبو حيان مع أكثر من واحد من المفسرين[٤] وهو تعليل جيد وأرى أنه قريب جداً من العلة في التكرير، وهو أن التكرير لتأكيد أمر القبلة لأن النسخ من مظان الفتنة والشبهة، والقبلة لها شأن. فبالحري أن يؤكد أمرها ويعاد ذكرها مرة بعد مرّة.

ومما سبق نجد أن أبا حيان قد أفاض في الحديث عن فائدة التكرير في هذه الآيات التي تتعلق بالقبلة وأتى بكلام جامع وتعليلات مختلفة لم تجتمع سوى في تفسيره، والتي تدل على أسرار كتاب الله التي لا تنتهي وليس لها حد.

---

1)درة التنزيل، ج١، ص٣٠٦.

2)البرهان للكرماني، ص٣٥.

3)التفسير الكبير، ج٤، ص١٢٥.

4)انظر تفسير البيضاوي ج١، ص١٥٣، مدارك التنزيل للنسفي ج١، ص١٣٧، كشف المعاني لابن جماعة ص١١٤، تفسير أبو السعود،ن ج١، ص٢١١، روح المعاني للألوسي، ج١، ص٥٧٢.

ومن ذلك تكرار قوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٤٩﴾ آل عمران "٤٩ "مرتين وتكرار قولـه تعـالى: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١١٠﴾ المائدة " ١١٠ " أربع مرات .

يشير أبو حيان في تفسيره إلى أن سبب التكرار في الآيات يرجع إلى الإيجاز والإطناب. فيقول " وجاء في آل عمران " بإذن الله " مرتين وجاء هنا " أي في المائدة " بإذني أربع مرات عقيب أربع جمل لأن هذا موضع ذكر النعمة والامتنان بها فناسب الإسهاب، وهناك موضع إخبار لبني إسرائيل فناسب الإيجاز "[1]

ومن علماء المتشابه الذين أشاروا إلى سبب التكرار في الآيات . ابن الزبير الغرناطي حيث يقول " ووجهه أن آية آل عمران إخبار وبشارة لمريم بما منح ابنها عيسى عليه السلام وبمقالته عليه السلام لبني إسرائيل تعريفاً برسالته وتحدياً بمعجزاته وتبرئةً من دعوى استبداد أو انفراد بقدرته في مقالته " أني أخلق لكم من الطين" إلى قوله " إن في ذلك لآية لكم " ٤٩ آل عمران إلى ما بعده ولم تتضمن هذه الآية غير البشارة والإعلام. وأما آية المائدة فقصد بها غير هذا وبنيت على توبيخ

1)البحر المحيط ج٤، ص٧١.

النصارى وتعنيفهم في مقالهم في عيسى عليه السلام فوردت متضمنة عده سبحانه إنعامه على نبيه عيسى عليه السلام "[١]

أما المفسرون قبل أبي حيان. فنجد الزمخشري يشير إلى تكرار " بإذن الله " في آل عمران. فيقول " وكرر بإذن الله " دفعاً لوهم من توهم فيه اللاهوتية "[٢]

ويشير الرازي إلى تكرار " بإذني " فيقول " وإنما أعاد قوله " بإذني " تأكيداً لكون ذلك واقعاً بقدرة الله تعالى وتخليقه لا بقدرة عيسى وإيجاده"[٣].

ومما تقدم أرى أن توجيه أبي حيان وذكره لسبب التكرار في الآيتين هو الأقرب إلى الصواب ، حيث إن الإخبار يتطلب الإيجاز، وتعداد النعم يتطلب الإسهاب وقد وافقه في ذلك أبو السعود،[٤] والألوسي[٥]. وأخذا عنه هذا التوجيه .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ﴾ الأنفال: ٥٢.

وقوله تعالى: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ الأنفال: ٥٤.

ينقل أبو حيان أقوالاً مختلفة لعدد ممن سبقه من ا لعلماء فيقول: "قال قوم" هذا التكرير للتأكيد" وقال ابن عطية: "هذا التكرير لمعنى ليس للأول، أو الأول دأب في أن هلكوا لما كفروا. وهذا الثاني دأب في أن لم يغير نعمتهم حتى يغيروا ما بأنفسهم" وقال قوم: كرر لوجوه، منها: أن الثاني جرى مجرى التفصيل للأول، لأن

1)انظر ملاك التأويل ج١، ٣٠٣-٣٠٤.

2)الكشاف للزمخشري، ج١، ص٤٣١.

3)التفسير الكبير للرازي، ج١٢، ص١٠٥.

4)تفسير أبو السعود ج١ ، ص٤٨٥

5)روح المعاني ج٣ ، ص٢٢٨

في ذلك ذكر إجرامهم وفي هذا ذكر إغراقهم. وأريد بالأول ما نزل بهم من العقوبة حال الموت، وبالثاني ما نزل بهم من العذاب في الآخرة. وفي الأول بآيات الله إشارة إلى إنكار دلائل الإلهية، وفي الثاني بآيات ربهم إشارة إلى إنكار نعم من رباهم ودلائل تربيته وإحسانه على كثرتها وتواليها. وفي الأول اللازم منه الأخذ، وفي الثاني اللازم منه الهلاك والإغراق. وقال الزمخشري: "في قوله تعالى: "بآيات ربهم" زيادة دلالة على كفران النعم وجحود الحق، وفي ذكر الإغراق بيان للأخذ بالذنوب، وقال الكرماني: "يحتمل أن يكون الضمير في الآية الأولى في "كفروا" عائداً على قريش، وفي الأخيرة في "كذبوا" عائداً على آل فرعون والذين من قبلهم"[١].

يشير أبو حيان هنا إلى أقوال عدد من العلماء الذين سبقوه. فقال قوم الأولى يقصد به الزمخشري في الكشاف. ثم يذكر توجيه ابن عطية وقد أشار إلى اسمه صراحة، ثم يقول "قال قوم" الثانية إشارة إلى كلام الرازي في تفسيره. ثم ينقل كلاماً للكرماني مشيراً إليه.

فلأبي حيان في توجيه الآيات أربعة أقوال الزمخشري في الكشاف[٢] ثم ابن عطية في المحرر الوجيز[٣] ثم الرازي في التفسير الكبير[٤] ثم الكرماني في البرهان[٥].

ولم يطل في توجيه الآيات حتى ما نقله عن غيره كان مختصراً وموجزاً.

---

1)البحر المحيط، ج٤، ص ٦٤٣-٦٤٤.

2)الكشاف للزمخشري ج٢، ص١٦٤.

3)المحرر الوجيز، ج٢ ، ص ١٨٥ .

4)التفسير الكبير للرازي، ج١٥، ص١٤٥.

5)البرهان للكرماني ص٨٦.

ونجد أن التشابه والتكرار في هذه الآيات قد تناوله معظم المفسرين وعلماء المتشابه وأقوالهم متقاربة، وهناك من أطال وهناك من أوجز. وقد اتفقوا على أن التكرار للتأكيد[1].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ البقرة: آية ٢٧٢.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ البقرة: آية ٢٧٢.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ البقرة: آية ٢٧٣.

يقول أبو حيان في توجيهه للآيات السابقة: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ تقدّم ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾، ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ وليس على سبيل التكرار والتأكيد بل كل منهما مقيد بغير قيد الآخر. فالأول: ذكر أن الخير الذي يعمله مع غيره إنما هو لنفسه، وأنه عائد إليه جزاؤه، والثاني: ذكر أن ذلك الجزاء الناشئ عن خير يوفاه كاملاً من غير نقص ولا بخس،والثالث: ذكر أنه تعالى عليم بما ينفقه الإنسان من خير ومقداره، وكيفية جهاته المؤثرة في ترتيب الثواب، فأتى بالوصف المطلع على ذلك وهو العلم"[2].

لم أجد من المتقدمين من تعرض لهذه الآيات بالتوجيه سوى الرازي في تفسيره حيث يقول: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ وهو نظير ما ذكر قبل هذه الآية من قوله: وليس هذا من باب التكرار وفيه وجهان: أحدهما أنه تعالى لما قال ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ وكان من المعلوم أن توفية الأجر من

1)انظر درة التنزيل ج١، ص٣٥٦ وما بعدها. ملاك التأويل ج١، ص٢٩٠، وما بعدها، تفسير البيضاوي ج٢، ص١٥٧، تفسير النسفي، ج١، ص١٥٦، تفسير أبوالسعود، ج٢، ص٤٩٩، روح المعاني للألوسي، ج١٠، ص٢٩٨-٢٩٩، التحرير والتنوير، ج١، ص٤٦.

2)البحر المحيط ج٢، ص٥٣١.

غير بخس ونقصان لا يمكن إلا عند العلم بمقدار العمل وكيفية جهاته المـؤثرة فـي استحقاق الثواب لا جرم قرر في هذه الآية كونه تعالى عالمـاً بمقـادير الأعمـال وكيفياتها.

والوجه الثاني: وهو أنه تعالى لما رغب في التصديق على المسلم والـذمي، قال ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ بين أن أجره واصل لا محالة. ثم لما رغب في هذه الآية من التصدق على الفقراء الموصوفين بهذه الأوصاف الكاملـة، وكـان هذا الإنفاق أعظم وجوه الإنفاقات لا جرم أردفه بما يدل على عظمة ثوابـه فقـال: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ وهو يجري مجرى ما إذا قال الـسلطان العظيم لعبده الذي استحسن خدمته: ما يكفيك بأن يكون علمي شاهداً بكيفية طاعتـك وحسن خدمتك، فإن هذا أعظم وقعاً مما إذا قال له: إن أجرك واصل إليك"(١).

ومن المتأخرين عن أبي حيان "ابن عاشور" الذي وجه هذه الآيات توجيههـا مختلفا ينم عن علم واسع وتعمق في فهم أسرار كتاب الله.

يقول في توجيهه: "وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله" جملة حاليـة وهـو خبـر مستعمل في معنى الأمر، أي إنما تكون منفعة الصدقات لأنفسكم إن كنتم ما تنفقـون إلا ابتغاء وجه الله لا للرياء ولا لمراعاة حال مسلم وكافر، وهذا المعنى صالح لكلا المعنيين المحتملين. في الآية التي قبلها، ويجوز كونها معطوفة عليها إذا كان الخبر بمعنى النهي، أي لا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله. وهذا الكلام خبر مستعمل في الطلـب لقصد التحقيق والتأكيد، ولذلك خولف فيه أسلوب ما حف به من جملـة ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ وجملة ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾.

---

1)التفسير الكبير للرازي، ج٧، ص٧٣.

وقوله ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ عطف على التي قبلها لبيان أن جزاء النفقات بمقدارها وأن من نقص له من الأجر فهو الساعي في نقصه. وكرر فعل تنفقون ثلاث مرات من الآية لمزيد الاهتمام بمدلوله وجيء به مرتين بصيغة الشرط عند قصد بيان الملازمة بين الإنفاق والثواب، وجيء به مرَّة في صيغة النفي والاستثناء لأنه قصد الخبر، بمعنى الإنشاء، أي النهي عن أن ينفقوا إلا ابتغاء وجه الله"[1].

ثم يقول في موضع آخر عند تفسيره لقوله تعالى ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ أعيد التحريض على الإنفاق فذكره مرَّة رابعة. وقوله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ كناية عن الجزاء عليه. لأن العلم يكنَّي به عن أثره كثيراً. فلما كان الإنفاق مرغباً فيه من الله. وكان علم الله بذلك معروفاً للمسلمين. تعيَّن أن يكون الإخبار بأنه عليم به أنه عليم بامتثال المنفق، أي فهو لا يضيع أجره إذ لا يمنعه منه مانع بعد كونه عليماً به، لأنه قدير عليه، وقد مانع بعد كونه عليماً به، لأنه قدير عليه، وقد حصل بمجموع هذه المرات الأربع من التحريض ما أفاد شدة فضل الإنفاق بأنه نفع للمنفق وصلة بينه وبين ربه ونوال الجزاء من الله، وأنه ثابت له في علم الله"[2].

---

1)التحرير والتنوير، ج٣، ص٧٧.

2)المصدر السابق، ج٣، ص٧٧.

المبحث الثاني

اختلاف صياغة الجملة

المبحث الثاني

اختلاف صياغة الجملة

اختلاف صياغة الجملة ونظمها وترتيبها سمة من سمات الإعجاز القرآنـــي، وقد يكون الاختلاف بين جملتين من حيث تقديم المفردات بعــضها علـــى بعــض ، وتقديم بعض أجزاء الجملة على بعض، والذكر والحذف في المفردات والحـــروف ، وإبدال كلمة بأخرى ، كـــل ذلـــك فـــي جملـــة واحـــدة وفـــي موضـــوع واحـــد. ومن المواضع التي نذكرها في هذا المبحث:

قوله تعـــالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾ آية ١٢٦ – آل عمران.

وقوله تعـــالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ آية ١٠ – الأنفال.

تتشابه الآيتان السابقتان وتختلف في ثلاثة مواضع، وهي: الذكر والحذف والتقديم والتأخير، واختلاف أواخر الآيتين. وقد ذكر أبو حيان سبب ذلك الاخـــتلاف عند تفسيره للآية من سورة الأنفال فقال: "تقدم تفسير نظير هذه الآية. والمعنـــى: إلا بشرى لكم وأثبت في آل عمران لأن القصة فيها مسهبة وهنا موجزة، فناســـب هنـــا الحذف، وهنا قدم وأخر هناك على سبيل التفنن والاتساع في الكلام، وهنا جـــاء إن الله عزيز حكيم مراعاة لأواخر الآي. وهناك ليست آخر آية لتعلق يقطع بمـــا قبلـــه فناسب أن يأتي العزيز الحكيم على سبيل الصفة. وكلاهما مشعر بالعلية كما قـــال: أكرم زيداً العالم. وأكرم زيداً أنه عالم"[1].

---

1)البحر المحيط ج٤، ٥٨٩.

يذكر أبو حيان أن سبب الذكر والحذف يعود إلى الإيجاز والإطنـــاب. وأرى أن ذلك السبب بعيد وأقرب منه ما ذكره الإسكافي في أن "لكم مضمرة فـــي ســـورة الأنفال كما هي مظهرة في سورة آل عمران لأن الأولى جـــاءت علـــى الأصـــل، والثانية قد تقدمتها "لكم" فأغنت عن إعادتهـــا بلفظهـــا ومعناهـــا، وهـــي قولـــه﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ آية ٩[١].

وقد وافقه الكرماني [٢] وابن جماعة[٣] وأبو يحي الأنصاري الذي وافق أبـــو حيان أيضاً في أن ترك "لكم" كان للإيجاز[٤].

أما ابن الزبير فله تعليل آخر. فهو يرى أنه في آل عمران قد اخـــتلط ذكـــر الطائفتين المؤمنة والكافرة فكانت البشارة للمؤمنين ولأولياء الله فقال تعالى: ﴿بُشْرَىٰ لَكُمْ ﴾ أما آية الأنفال فلم يتقدم فيها ذكر لغير المؤمنين فلـــم يحـــتج إلـــى الـــضمير الخطابي في "لكم" وأضاف أيضاً أنه تقدم قبلها قولـــه تعـــالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ آية ٧. وقد أشار الإسكافي إلى تقدم لكم "ولكن في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ آية ٩ [٥].

ويذكر ابن عاشور في تفسيره توجيه الاسكافي ويضيف إليه تعليلاً آخر وهو أن آيه آل عمران سيقت مساق الامتنان والتذكير بنعمة النـــصر فـــي حـــين القلـــة والضعف. فكان تقييد "بشرى" بأنها لأجلهم زيادة في المنة أي: جعل الله ذلك بشرى لأجلكم كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ وأما آية الأنفال فهـــي مـــسوقة مـــساق العتاب على كراهية الخروج إلى بدر في أول الأمر، وعلى اختيار أن تكون الطائفة

1) انظر درة التنزيل ص٥٤.

2)انظر البرهان، ص٤٨.

3)انظر كشف المعاني، ص١٣٩.

4)انظر فتح الرحمن، ص٧٢.

5)انظر ملاك التأويل ج١، ٣١٤ – ٣١٥.

التي تلاقيهم غير ذات الشوكة. فجرد "بشرى" عن أن يعلق به "لكم" إذ كانت البشرى للنبي ﷺ ومن لم يترددوا من المسلمين"[١].

أما التقديم والتأخير في الآيتين فقد أرجعه أبو حيان إلى التفنن والاتساع في الكلام.

وأرى أنه لا يمكن أن يكون التفنن في الكلام وحده سبباً للتقديم والتأخير بل يضاف إلى ما ذكره علماء المتشابه قبل أبي حيان وأولهم الاسكافي الذي يقول في توجيهه:

"وأما تأخير "به" بعد قوله "قلوبكم" فلأنه لما أخر الجار والمجرور في الكلام الأول، وهو قوله: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ ﴾ وعطف الكلام الثاني عليه، وقد وقع فيه جار ومجرور، وجب تأخيرها في اختيار الكلام ليكون الثاني كالأول في تقديم ما الكلام أحوج إليه وتأخير ما قد يستغنى عنه، وأما تقديم "به" في الآية الثانية، فلأن الأصل في كل خبر يصدر بفعل أن يكون الفاعل بعده، ثم المفعول والجار والمجرور. وقد يتقدم المفعول على الفاعل إذا كان اللبس واقعاً فيه وأريد إزالته عنه.... وكذلك الجار والمجرور بمنزلة المفعول به في التقديم والتأخير وشبههما. وفي هذا الموضع إذ لم يعرض في اللفظ من التوافق ما يوجب إجراء الكلام على الأصل، كما كان في سورة آل عمران، فإن المعتمد بتحقيقه عند المخاطبين إنما هو الإمداد بالملائكة، وهو الذي أخبر الله تعالى عنه أنه لم يجعله "إلا بشرى" فوجب أن يقدم في الكلام الثاني، وهو المضمر بعد الباء في قوله "به" على الفاعل فقال تعالى "ولتطمئن به قلوبكم"[٢].

وقد وافقه ابن جماعة في تعليله مختصراً لكلامه[٣].

---

1)التحرير والتنوير ج٩، ٢٧٦.

2)درة التنزيل ص٥٤.

3)انظر كشف المعاني ص١٣٩.

أما الكرماني فقد جعل سبب تقديم "قلـــوبكم" وتـــأخير "بـــه" ازدواجـــاً بـــين المخاطبين، وتقديم "به" في الأنفال ازدواجاً بين الغائبين(١). وقد وافقه الأنصاري(٢).

أما ابن الزبير فقد ذكر سبب التقديم في آل عمران، فقال "قـــدمت القلـــوب على المجرور اعتناء وشارة ليمتاز أهلها ممن ليس له نصيب"(٣). ولم يذكر التقـــديم في الأنفال.

ومن المفسرين ابن عاشور الذي ذكر سبب التقديم في الأنفال فقـــال: "تقـــديم المجرور هنا في قوله "به قلوبكم" وهو يفيد الاختصاص، فيكون المعنى: ولتطمئن به قلوبكم لا بغيره، وفي هذا الاختصاص تعريض بما اعتراهم من الوجل من الطائفـــة ذات الشوكة وقناعتهم بغنم العروض التي كانت مع العير، فعرض لهـــم بـــأنهم لـــم يتفهموا مراد الرسول (صلى الله عليه وسلم) حين استشارهم، وأخبرهم بـــأن العيـــر سلكت طريق الساحل فكان ذلك كافياً في ان يعلموا أن الطائفة الموعود بها تمخضت أنها طائفة النفير وكان الشأن أن يظنوا بوعد الله أكمل الأحوال فلما أراد الله تـــسكين روعهم وعدهم بنصرة الملائكة علماً بأنه لا يطمئن قلوبهم إلا ذلك"(٤).

ونجد أنه في سورة الأنفال عاد الضمير "به" على الإمداد فقدّم لأن المقام مقام انتصار المسلمين، وفي آل عمران تقدّم ذكر القلوب لإدخال الطمأنينة والـــسكينة لأن المقام مقام طمأنه وتسكين.

والذي يظهر أن الأنفال نزلت في غزوة بدر والدماء لم تجف بعد، والعهد بها لم يطل فالخطاب فيها مؤسس، فروعي فيها ماروعي من مقتضيات الأحوال . وآية آل عمران تذكر بما حدث، وحكاية حال مضت إذ هـــي، "أي آل عمـــران". مدنيـــة

---

1)انظر البرهان للكرماني ص٤٨.

2)انظر فتح الرحمن ص٧٢.

3)ملاك التأويل ج١/ ٣١٥.

4)التحرير والتنوير ج٩/ ٢٧٦-٢٧٧.

متأخرة في النزول عن وقوع غزوة بدر. وفرق بين ما يؤسس وما يحكى لذلك اقتضى الحال في آل عمران أن يأتي التعبير فيها على الأصل إذ لا مقتضى للعدول عنه" [١]. يقول الزمخشري: "فإن قلت: كيف يصح أن يقول لهم يوم أحد ولم تنزل فيه الملائكة؟ قلت: قاله لهم مع اشتراط الصبر والتقوى عليهم فلم يصبروا عن الغنائم ولم يتقوا حيث خالفوا أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فلذلك لم تنزل الملائكة، ولو تموا على ما شرط عليهم لنزلت، وإنما قدّم لهم الوعد بنزول الملائكة لتقوى قلوبهم ويعزموا على الثبات ويثقوا بنصر الله"[٢].

أما توجيه أبي حيان لما جاء في آخر الآيتين وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ آية ١٢٦ – آل عمران .وقوله تعالى﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ﴾والذي يقول فيه: "وهنا جاء إن الله عزيز حكيم مراعاة لأواخر الآي. وهناك ليست آخر آية لتعلق يقطع بما قبله فناسب أن يأتي العزيز الحكيم على سبيل الصفة ، وكلاهما مشعر بالعلية كما يقول: أكرم زيداً العالم، وأكرم زيداً أنه عالم"[٣]. فأرى أنه إضافة جيدة إلى توجيهات علماء المتشابه قبله الذين اختلفت تعليلاتهم حول اختلاف نهاية هاتين الآيتين. يقول الإسكافي في سبب الاختلاف: "الآية التي في سورة الأنفال إنما هي في قصة يوم بدر وبيّن الله ذلك فيه بلفظ جعله كالعلة لكون النصر بيده. فكأنه قال في المعنى النصر ليس "إلا من عند الله العزيز" الذي لا يمنع عما يريد فعله و"الحكيم" الذي يضع النصر في وضعه، ففصل ذلك في خبرين على الأصل الواجب في توفية كل معنى حقه من البيان. والآية التي في سورة آل عمران هي في قصة يوم أحد وهو بعد يوم بدر، وكان هذا البيان قد حصل فيما جعل خبراً عن النصر في اليوم الأول، فاقتصر من ذكر مثله في اليوم

---

1)انظر خصائص التعبير القرآني، عبد العظيم المطعني، ص ١٦٩.

2)الكشاف، ١/ ٤٦١.

3)البحر المحيط، ح٤ / ٥٨٩

الثاني على خبر واحد يجري عليه معنى الخبر الثاني مجرى الوصف لاختصار المعنى عن البسط اعتماداً على ما فصل في الخبر عن الأول"[١].

وقد وافقه الكرماني مختصراً لكلامه فقال: "وحذف "إن الله" ههنا لأن ما في الأنفال قصة بدر، وهي سابقة على ما في هذه السورة. فإنها في قصة أحد، وأخبر هناك بأن الله عزيز حكيم، وجعله في هذه السورة صفة لأن الخبر قد سبق"[٢].
ووافقه أبو يحيى الأنصاري أيضاً[٣].

أما ابن الزبير فله توجيه آخر يقول فيه: "أن آية الأنفال تقدم فيها أوعاد جليلة كقوله تعالى:﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ ثم قال: ﴿ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ثم قال: ﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ فهذه أو عاد عليه لم يتقدم إفصاح بمثلها في آية آل عمران فناسبها تأكيد الوصفين العظيمين من قدرته جل وتعالى على كل شيء وحكمته في أفعاله فقال: ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾. ولما لم يقع في آية آل عمران إفصاح بما في آية الأنفال وردت الصفتان تابعتين دون تأكيد"[٤].

وكذلك ابن جماعة له رأي آخر مختلف عن سابقيه. فقد ذكر أن آية الأنفال نزلت في قتال بد ر أولاً. وآية آل عمران نزلت في وقعة أحد ثانياً، فبين أولاً أن النصر من عنده لا بغيره من كثرة عدة، أو عدد، ولذلك علله بعزته وقدرته وحكمته المقتضية لنصر من يستحق نصره، وأحال في الثانية على الأولى بالتعريف كأنه

---

1)درة التنزيل، ص٥٥.
2)البرهان للكرماني، ص٤٨.
3)فتح الرحمن ص٧٢.
4)ملاك التأويل ج١/ ٣١٥.

قيل: إنما النصر من عند الله العزيز الحكيم الذي تقدم إعلامكم أن النصر من عنده، فناسب التعريف بعد التنكير"[1].

ومما تقدم نجد أن جميع التعليلات ذات قيمة بلاغية ومختلفة اختلافاً أجمع على ما في هذه الآيات من بلاغة وإعجاز.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ آية ٥٥ – التوبة.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ آية ٨٥ – التوبة.

لأبي حيان كلام طويل حول التشابه في الآيتين السابقتين يقول فيه:

"تقدم نظير هذه الآية وأعيد ذلك لأن تجدد النزول له شأن في تقرير ما نزل له وتأكيده وإرادة أن يكون على بال من المخاطب لا ينساه ولا يسهو عنه، وأن يعتقد أن العمل به مهم يفتقر إلى فضل عناية به ولاسيما إذا تراخى ما بين النزولين فأشبه الشيء الذي أهم صاحبه، فهو يرجع إليه في أثناء حديثه ويتخلص إليه. وإنما أعيد هذا المعنى لقوته فيما يجب أن يحذر منه قاله الزمخشري. وقال ابن عطية: ووجه تكريرها توكيد هذا المعنى. وقال أبو علي: ظاهره أنه تكرير وليس بتكرير، لأن الآيتين في فريقين من المنافقين، ولو كان تكريراً لكان مع تباعد الآيتين لفائدة التأكيد والتذكير. وقيل أراد بالأولى: لا تعظمهم في حال حياتهم بسبب كثرة المال والولد وبالثانية: لا تعظمهم بعد وفاتهم لمانع الكفر والنفاق. وقد تغايرت الآيتان في ألفاظ: هنا و"لا" وهناك "فلا" ، ومناسبة الفاء أنه عقب قوله: "ولا ينفقون إلا وهم كارهون" أي: للإنفاق فهم معجبون بكثرة الأموال والأولاد. فنهاه عن الإعجاب بفاء

---

1)كشف المعاني ص١٤٠.

التعقيب. ومناسبة الواو أنه نهي عطف على نهي قبله، "ولا تصل" ، "ولا تقم" ، "ولا تعجبك" فناسبت الواو. وهنا وأولادهم وهناك ولا أولادهم فذكر "لا" مشعر بالنهي عن الإعجاب بكل واحد واحد على إنفراده. ويتضمن ذلك النهي عن المجموع. وهنا سقطت. فكان نهياً عن إعجاب المجموع ويتضمن ذلك النهي عن الإعجاب بكل واحد واحد. فدلت الآيتان بمنطوقهما ومفهومهما على النهي عن الإعجاب بالأموال والأولاد مجتمعين ومنفردين. هنا "أن يعذبهم" وهناك "ليعذبهم" فأتى باللام مشعرة بالتعليل ومفعول يريد محذوف أي: إنما يريد الله ابتلاءهم بالأموال والأولاد لتعذيبهم. وأتى بأن لأن مصب الإرادة هو التعذيب أي: إنما يريد الله تعذيبهم. فقد اختلف متعلق الفعل في الآيتين هذا الظاهر. وإن كان يحتمل زيادة اللام ، والتعليل بأن ، وهناك الدنيا، وهنا في الحياة الدنيا، فأثبت في الحياة على الأصل وحذفت هنا تنبيهاً على خسة الدنيا وإنها لا تستحق أن تسمى حياة، ولاسيما حين تقدمها ذكر موت المنافقين، فناسب أن لا تسمى حياة"[1].

يبدأ أبو حيان في توجيهه للآيتين المتشابهتين بنقل أقوال لمجموعة من العلماء، وقد اتفقوا جميعاً إلى أن تكرار الآية إنما الغرض منه توكيد المعنى ولعل أبا حيان رأى أن ذلك التعليل غير كاف فأضاف إليه، وفصّل القول، وذكر أربعة مواطن اختلفت فيها الآيتان مع ما فيهما من تشابه.

وعند النظر إلى كتب المتشابه اللفظي وكتب التفسير نجد أن أقوالهم متقاربة وأنهم يتفقون في جوانب ويختلفون في جوانب أخرى.

فالإسكافي والكرماني اتفقا في أن سبب مجيء الفاء في قوله: ﴿ فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ ﴾ أن الفاء تتضمن معنى الجزاء، والفعل الذي قبله مستقبل يتضمن معنى الشرط وهو قوله: ﴿ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴾

---

1)البحر المحيط ج٥/ ١٠٧ – ١٠٨.

أي إن يكن منهم ذلك فما ذكر جزاؤهم، فكان الفاء ههنا أحسن موقعاً من الواو. والتي بعدها جاء قبلها: ﴿كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ ﴾ بلفظ الماضي وبمعناه، والماضي لا يتضمن معنى الشرط ولا يقع من الميت فعل فكان الواو أحسن[1].

ولا يبتعد الغرناطي كثيراً عن هذا التوجيه حيث يقول: "فالكلام في قوة الشرط والجزاء فكان موضع الفاء، أما قوله في الآية الأخرى : ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ﴾ فمنسوق على قوله: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ﴾ وكل هذا نهي له ﷺ أن يفعله وليس كالأولى في أن ذكر مرتكباتهم ما بني نهيه عليه السلام عليه ، فيتصور فيه معنى شرط وجزاء ، فلا مدخل للفاء هنا ولا هو موضعها"[2].

أما أبو حيان فوافق الرازي في تفسيره والذي يقول "فلا تعجبك" بالفاء في الآية الأولى وبالواو في الآية الثانية ، فالسبب أن في الآية الأولى إنما ذكر هذه الآية بعد قوله "ولا ينفقون إلا وهم كارهون" وصفهم بكونهم كارهين للإنفاق، وإنما كرهوا ذلك الإنفاق لكونهم معجبين بكثرة تلك الأموال فلهذا المعنى نهاه الله عن ذلك الإعجاب بفاء التعقيب فقال: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ﴾ وأما ههنا فلا تعلق لهذا الكلام بما قبله فجاء بحرف الواو"[3].

ولا شك في أن أبا حيان قد نقل تعليل الرازي في سبب مجيء الفاء في الآية الأولى. إلا أننا نجده يضيف سبب مجيء الواو في الآية الثانية، فيقول: "ومناسبة الواو أنه نهي عطف على نهي قبله "ولا تصل" ، "ولا تقم" ، "ولا تعجبك" فناسب الواو" [4] وأرى أنه تعليل جيد راعى فيه المناسبة اللفظية .

---

1) انظر البرهان للكرماني، ص٨٨، و درة التنزيل للإسكافي ج٢، ص٧١٥.

2)ملاك التاويل ج١، ص٥٩٥.

3)التفسير الكبير للرازي، ج١٦، ص١٢٣.

4)البحر المحيط ج٥، ص١٠٨.

أما تكرار "لا" في قوله تعالى "ولا أولادهم" فيدور كلام أبي حيان حول تأكيد النهي في الآية الأولى بلا، وإسقاط لا في الآية الثانية اكتفاءً بورود ذلك في الآية الأولى ، وأن كلا الآيتين تكمل أحداهما الأخرى . يقول أبوحيان "وهنا وأولادهم وهناك ولا أولادهم، فذكر لا مشعر بالنهي عن الإعجاب بكل واحد واحد على انفراده. ويتضمن ذلك النهي عن المجموع، وهنا سقطت فكان نهياً عن إعجاب المجموع ويتضمن ذلك النهي عن الإعجاب بكل واحد واحد. فدلت الآيتان بمنطوقهما ومفهومهما على النهي عن الإعجاب بالأموال والأولاد مجتمعين"[1].

أما الإسكافي فيرى تأكيد معنى النهي فيقول: "هو أن الذي أنبأ عن معنى الشرط في الفعل الأول وهو ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ بني على أوكد ما يبنى عليه الإخبار من الإيجاب بعد النفي، فلما علقت الجملة الثانية به تعلق الجزاء بالشرط اقتضت من التوكيد ما قصد به مثله في الأول فكان من ذلك أن أكّد معنى النهي بتكرير "لا" في قوله: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ وأما الآية الثانية فهي مخالفة للأولى في هذا المعنى ، لأنه لا شرط ينطوي عليه الفعل الذي قبلها كما انطوى عليه الفعل الذي قبل الفاء ، ولم يتضمن أيضاً من التوكيد المقتضى بناء ما يتعلق به عليه فخلا من الدواعي إلى التوكيد ، فلم يكرر فيه "لا" لذلك" [2].

فالإسكافي يرجع تكرار "لا" إلى معنى الشرط والجزاء الذي كان سبباً في مجيء فاء التعقيب في الآية الأولى. ويتابعه الكرماني والغرناطي[3] .

أما الرازي في تفسيره فيرى أن السبب "هو أن مثل هذا الترتيب يبتدأ بالأدون ثم يترقى إلى الأشرف، فيقال لا يعجبني أمر أمير ولا أمر وزير وهذا يدل على أنه

---

1)البحر المحيط ج٥، من ١٠٨.

2)درة التنزيل ج٣، ص٧١٠-٧١٦

3)انظر البرهان للكرماني، ص٨٨، وأيضا ملاك التأويل ج١، ص٥٩٥.

كان إعجاب أولئك الأقوام بأولادهم فوق إعجابهم بأموالهم، وفي هذه الآية يد ل على عدم التفاوت بين الأمرين عندهم"[1]. ولا أرى أن ذلك سبب مقنع في تكرار السلام ، فالخطاب للنبي ﷺ وليس للمنافقين ، "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ. ولا تعجبك يا محمد أموال هؤلاء المنافقين وأولادهم، فتصلي على أحدهم إذا مات وتقوم على قبره من أجل كثرة ماله وولده"[2]. والخطاب له ﷺ أيضاً في الآية الأخرى .

أما في مجيء الآية الأولى باللام في " ليعذبهم" وبأن في "أن يعذبهم". فيقول أبو حيان: "هنا "أن يعذبهم" وهناك "ليعذبهم" فأتى باللام مشعرة بالتعليل ومفعول يريد محذوف أي: إنما يريد الله ابتلاءهم بالأموال والأولاد لتعذيبهم ، وأتى "بأن" لأن مصب الإرادة هو التعذيب أي: إنما يريد الله تعذيبهم ، فقد اختلف متعلق الفعل في الآيتين ، هذا الظاهر وإن كان يحتمل زيادة اللام"[3].

ويعلل الاسكافي الفرق بين "ليعذبهم" و "أن يعذبهم" مراعياً الجانب النحوي فيقول:

"هو أن الأولى معناها: إنما يريد الله أن يزيد في نعمائهم بالأموال والأولاد ليعذبهم بها في الحياة الدنيا فمفعول الإرادة محذوف واللام لام الصيرورة، والآية الأخيرة مخالفة للأولى في ذلك، لأنها في الإخبار عن قوم قد ماتوا وانقرضوا على النفاق، فلم يضمر للإرادة مفعول، وهو: أن يزيد في نعمائهم لانقطاع الزيادة بالموت عنهم فعديت الإرادة إلى ما آل إليه حالهم من تعذيبهم، فصار المعنى: إنما يريد الله – في حال إنعامه عليهم – تعذيبهم به في الدنيا، ففرق بين الخبرين إذ كان أحدهما خبراً عن قوم معرضين لزيادة إنعام الله عليهم، والأخير خبراً عمن انقطعت أعمالهم

---

1)التفسير الكبير للرازي، ج١٦، ص١٢٣.

2)تفسير الطبري ج٦ ص ٤٤١

3)البحر المحيط ج٥، ص١٠٨.

وبلغت نعمة الله عليهم غاية لا مزيد فيها لهم، والله يريد تعذيبهم بذلك بعد كفرهم ومقامهم على نفاقهم"[١].

أما ابن الزبير فله رأي مختلف راعى فيه التناسب اللفظي حيث يقول: "إن قوله تعالى في الآية الأولى "إنما يريد الله ليعذبهم" بلام كي مناسب لما في الآية من التأكيد، إذ لا تقتضي تراخياً، فناسب هذا ما ذكر من التأكيد. أما قوله في الآية الثانية "إنما يريد الله أن يعذبهم" فيقتضي أن التأكيد لما لم يبلغ في هذه الثانية مبلغ الأولى بما تقدم فيها أشعرت أن بما فيها من التراخي، فأن هذه ليست من التأكيد في نمط الأولى وهذا رعي مناسبة لفظية إذ الإخبار بحالهم ومآلهم واحد في الآيتين من غير فرق"[٢] أما الكرماني في البرهان فله تعليل مختلف ومختصر لا يرقى إلى التعليلين السابقين يقول فيه :

"قال تعالى "إنما يريد الله ليعذبهم" وقال في الأخرى "أن يعذبهم" لأن "أن" في هذه الآية مقدرة ، وهي الناصبة للفعل فصار في الكلام ههنا زيادة كزيادة (الباء ولا) في الآية" [٣]. فالكرماني يرى بزيادة اللام وأن "أن" مقدرة ، فالمعنيان عنده متساويان ، وأرى أن ذلك لا يمكن القول به وليس هناك زيادة .

وقد نبه الرازي على أن اللام لا تكون للتعليل وإنما بمعنى "أن" فقال: "قال تعالى في الآية الأولى "إنما يريد الله ليعذبهم" وههنا قال " إنما يريد الله أن يعذبهم" فالفائدة في التنبيه على أن التعليل في أحكام الله تعالى محال، وأنه أينما ورد حرف التعليل فمعناه "أن" كقوله "وما أمروا إلا ليعبدوا الله" أي وما أمروا إلا أن يعبدوا الله"[٤].

---

1)درة التنزيل ج٢، ص ٧١٧.

2)ملاك التأويل ج١، ص٥٩٦.

3)البرهان للكرماني، ص٨٩.

4)التفسير الكبير للرازي، ج١٦، ص١٢٣

وقد أشار الزركشي في البرهان في قسم التعليل إلى أن اللام الواردة في أحكامه وأفعاله لام الحكمة والغاية المطلوبة من الحكمة، وسمى اللام لام العاقبة، وعلل ذلك بقوله "وإنما قلنا ذلك لأن أفعال الله تعالى لا تعلل"[١].

فالإسكافي يرى أن اللام لام الصيرورة ، والكرماني يرى أنها زائدة أما ابن الزبير فيقول بأنها لام كي، ويرى الرازي أنها بمعنى أن ، وأبو حيان يرى أنها مشعرة بالتعليل، فلكل منهم رأي في معنى اللام .

أما ما ذكره الرازي من أن حرف التعليل معناه "أن" ويقصد بذلك اللام، فمخالف لما يراه جمهور النحاة في أن لام التعليل تكون بعدها "أن" مضمرة، والذي يبدو على وجه التدقيق أن التعليل بـ "أن" وحدها قد يختلف عن التعليل باللام وحدها، ويختلف عن التعليل بـ "أن" مع اللام في أحيان كثيرة[٢].

وفي قوله تعالى "في الحياة الدنيا" وفي الآية الأخرى "في الدنيا".

فلأبي حيان رأي مختلف عن علماء المتشابه اتفق فيه مع الرازي في تفسيره يقول فيه : "وهناك الدنيا وهنا في الحياة الدنيا ، فأثبت في الحياة على الأصل وحذفت هنا تنبيهاً على خسة الدنيا، وأنها لا تستحق أن تسمى حياة، ولا سيما حين تقدمها ذكر موت المنافقين، فناسب أن لا تسمى حياة"[٣].

والدنيا صفة الحياة في الآيتين. فأثبت الموصوف والصفة في الأولى، وحذف الموصوف في الثانية ، اكتفاء بذكره في الأولى وقد قال بذلك الكرماني والإسكافي والغرناطي [٤].

---

1)انظر البرهان للزركشي ج٣، ٩٢-٩٣

2)أنظر معاني النحو ، ج٣، ٣١١

3)البحر المحيط ج٥، ص١٠٨، وينظر الرازي ج١٦، ص١٣٢.

4)أنظر البرهان للكرماني و درة التنزيل ج٢، ص٧١٧. وملاك التأويل ج١ـ ص٥٩٦.

وأرى أن كلا التعليلين مكملان لبعضهما .

ومن المفسرين الذين تناولوا هذه الآية بالتوجيه، النسفي الـذي يـرى أن التكرير للمبالغة والتأكيد، وأن يكون على بال من المخاطب لا ينساه، وأن يعتقد أنـه مهم، ولأن كلَّ آية في فرقة غير الفرقة الأخرى[1].ورأى البيـضاوي أيـضاً أنهـا تكرير للتأكيد والأمر حقيق به فإن الأبصار طامحة إلى الأموال والأولاد والنفـوس مغتبطة عليها، ويجوز أن تكون هذه في طريق غير الأول[2].

وأخيراً، نجد أن الآيتين متغايرتان، فالأولى نهي عن تعظيمهم فـي حـال حياتهم بما لديهم من أموال وأولاد فجاء النهي أغلظ وأشد ، لذلك جاء التعبير بالفـاء واللام وتكرار لا ووصف الحياة بالدنيا ، أما الآية الأخرى فنهي عن تعظيمهم بعـد وفاتهم ، لذا جاء النهي أخف ، فجاءت الواو بدل الفاء وأن بدل الـلام وحـذف "لا" وحذفت الدنيا لأنهم قد ماتوا وانتهوا وكانوا منافقين وفاسقين. فقد قال تعالى قبل هذه الآيـة: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ البقرة آية ١٣٦.

وقوله تعـالى: ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ آل عمران آية ٨٤.

---

1)انظر تفسير النسفي ج٢، ص٢٠٠.

2)انظر تفسير البيضاوي ج٢، س٢٠٠

يجمع أبو حيان في تفسيره عدّة توجيهات للآيات السابقة فيقول عند تفسيره للآية من سورة آل عمران. "الظاهر في: قل: أنه خطاب للنبي ﷺ أمر أن يخبر عن نفسه وعن أمته بقوله: آمنا به، ويقوي أنه إخبار عنه وعن أمته قوله أخيراً: ونحن له مسلمون. وأفرده بالخطاب بقوله: قل: لأنه تقدَّم ذكره في أخذ الميثاق في قوله: ثم جاءكم رسول، فعينه في هذا التكليف ليظهر فيه كونه مصدّقاً لما مع الأنبياء الذين أخذ عليهم الميثاق. وقال: آمنا، تنبيهاً على أن هذا التكليف ليس من خواصه، بل هو لازم لكلّ المؤمنين وقال تعالى: ﴿ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾ بعد قوله ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ﴾ آية ٢٨٥ – البقرة.

ثم يقول أبو حيان نقلاً عن غيره من المفسرين :

وأما تعدية أنزل هنا بعلى، وفي البقرة بإلى فقال ابن عطية: الإنزال على نبي الأمة إنزال عليها. وقال الزمخشري: "فإن قلت لم عدّي أنزل في هذه الآية بحرف الاستعلاء وفيما تقدم من مثلها بحرف الانتهاء؟ قلت لوجود المعنيين جميعاً، لأن الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرسل، فجاء تارة بأحد المعنيين وأخرى بالآخر.

وقال الراغب: إنما قال هنا: على لأن ذلك لما كان خطاباً للنبي ﷺ، وكان واصلاً إليه من الملأ الأعلى بلا واسطة كان لفظ "على" المختص بالعلّو أولى به ، وهناك لما كان خطاباً للأمة، وقد وصل إليهم بواسطة النبي ﷺ، كان لفظ: إلى المختص بالايصال أولى، ويجوز أن يقال: أنزل عليه إنما على ما أمر المنزل عليه أن يبلغ غيره ، وأنزل عليه على ما خص به في نفسه، وإليه نهاية الإنزال وعلى ذلك قال تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ﴾آية ٥١ – العنكبوت.وقال تعالى ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ ﴾ آية ٤٤ –

النحل. خص هنا: بإلى، لما كان مخصوصاً بالذكر الذي هو بيان المنزل، وهذا كلام في الأولى. لا في الوجوب ، انتهى كلامه"[١].

ثم يذكر أبو حيان اعتراض الزمخشري فيقول:

"وذكر الزمخشري أن من قال هذا الفرق فقد تعسف، قال: ألا ترى إلى قوله تعالى "بما أنزل إليك" و﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ آية ٤٨ المائدة. وإلى قوله تعالى ﴿ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾"[٢] ثم يقول: "وأما إعادة لفظ وما أوتي فلأنه لما كان لفظ الخطاب عاماً ، ومن حكم خطاب العام البسط دون الإيجاز، ولما كان الخطاب هنا خاصاً اكتفى فيه بالإيجاز"[٣].

وقد تحدث العلماء عن سر الاختلاف بين الحرف "إلى" و "على" فيرى الإسكافي أن الحرف "إلى" في آية البقرة للانتهاء إلى الشيء من أي جهة كانت والكتب السماوية منتهية إلى الأنبياء وإلى أممهم جميعاً، والخطاب في هذه السورة للأمة وهو قوله "قولوا" فلم يصح إلا بإلى، أما "على" في آية آل عمران فتختص بجانب الفوق، وهذا خاص بالأنبياء، لأن الكتب السماوية منزلة عليهم وحدهم، فجاء الخطاب في آل عمران "قل" وهو مختص بالنبي ﷺ[٤]. وقد وافقه الكرماني،[٥] وابن الزبير،[٦] وابن جماعة[٧]. ومن المفسرين البيضاوي وابن عاشور[٨] .

---

1)البحر المحيط، ج٢، ص٨٢٠.

2) المصدر السابق، ج٢، ص٨٢٠.

3)المصدر السابق، ج٢/ ٧٢٠.

4)درة التنزيل ج ٣٠١.

5)البرهان للكرماني ص٣٠،

6)ملاك التأويل ج١، ص٣٠٣.

7)كشف المعاني للكرماني، ص٣٠.

8)انظر تفسير البيضاوي ج١، ص٢٦٩. التحرير والتنوير، ج٣، ص٣٠٢.

وقد بين علماء النحو ما ذكره الاسكافي ومن وافقه في أن الأصل في "إلـى" أن تكون لانتهاء الغاية، وفي أن "على" للاستعلاء، حقيقياً كان أم مجازياً. [١]

وذكر أبو حيان اعتراض الزمخشري على ما ذكره الراغب والذي وافق رأي الاسكافي ومن تابعه ، وأن فيه تعسفاً

وقد يكون اعتراضه هذا وجيهاً حيث إنه يرى أن الفعل "أنزل" في آية آل عمران عدي بحرف الاستعلاء، وفي البقرة بحرف الانتهاء لوجود المعنيين جميعاً، لأن الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرسل[٢].

وقد جمع أبو حيان الأقوال السابقة في تفسيره، وجميعها مقبول ولا تعارض بينها.

أما فيما يتعلق بتكرار لفظ "وما أوتي" في البقرة وحذفه من آل عمران فقد تعددت فيه الأقوال عند العلماء. فالإسكافي يرى أن ذلك من باب الاختصار وتقدم إيتاء الكتاب في آل عمران وأن التكرار في البقرة من باب التأكيد[٣].

وقد وافقه الكرماني الذي اختصر توجيهه فقال: "وزاد في هذه السورة (أي البقرة) "وما أوتي" وحذف من آل عمران، لأن في آل عمران قد تقدم ذكر الأنبياء حيث قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ آل عمران – آية ٨١ [٤]. ووافقه ابن جماعة[٥].

---

1)انظر معاني النحو، ج٣، ص١٤، وص٤٠: وينظر مغني اللبيب ج١ ص٧٤ وص ١٤٥.

2)انظر الكشاف ج١، ص ٤٤٢

3)انظر درة التنزيل للإسكافي ، ج١من ٣٠٣.

4)البرهان للكرماني، ص٣٥.

5)كشف المعاني، ص١١٣.

أما ابن الزبير فيرى أن الخطاب في آية البقرة عام، فناسبه الذكر تأكيداً، أما الخطاب في آية آل عمران فخاص به (عليه الصلاة والسلام)، فاقتضى ذلـــك عـــدم التأكيد والحذف والإيجاز[1].

وأرى أن تعليل ابن الزبير فيما يتعلق بحذف الموصـــول وصـــلته فـــي آل عمران. وذكره في البقرة تعليل وجيه وصائب وهو الذي أخذ به أبـــو حيـــان فـــي تفسيره.

ومن ذلك قوله تعالى:﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ﴾آية ١٤٨ – الأنعام.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ آية ٣٥ – النحل.

يعلل أبو حيان الاختلاف بين الآيتين المتشابهتين بقوله: " فقال: "من دونه" مرتين وقال "نحن" فأكد الضمير لأن لفظ العبادة يصح أن ينسب إفراد الله بها وهـــذا ليس بمستنكر، بل المستنكر عبادة شيء غير الله أو شيء مع الله فناسب هنا ذكر من دونه مع العبادة، وأما لفظ "ما أشركنا" فالإشراك يدل على إثبات شريك فلا يتركـــب مع هذا الفعل لفظ من دونه لو كان التركيب في غير القرآن "ما أشركنا" من دونه لم يصح معناه، وأما من دونه الثانية: فالإشراك يدل على تحريم أشياء وتحليل أشـــياء، فلم يحتج إلى لفظ من دونه وأما لفظ العبادة فلا يدل على تحريم شيء كما دل عليـــه لفظ أشرك، فقيد بقوله: من دونه، ولما حذف من دونه هنا ناسب أن يحـــذف نحـــن ليطرد التركيب في التخفيف"[2].

---

1)ملاك التأويل ص٢٤٠.

2)البحر المحيط، ج٤، ص٣١٩.

يتفق أبو حيان مع غيره من علماء المتشابه في توجيهه للآيات حيث إن توجيهه موافق للكرماني والذي كان تلخيصاً لكلام الاسكافي .

يقول الكرماني في توجيهه:

"وقال في النحل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ﴾ آية ٣٥. فزاد "من دونه" مرتين، وزاد "نحن"، لأن لفظ الإشراك يدل على إثبات شريك لا يجوز إثباته، ودل على تحريم أشياء وتحليل أشياء من دون الله، فلم يحتج إلى لفظ "من دونه" بخلاف لفظ العبادة فإنها غير مستنكرة ، وإنما المستنكر عبادة شيء مع الله سبحانه وتعالى، ولا يدل على تحريم شيء كما يدل عليه "أشرك" فلم يكن لله هنا من يعتبره بقوله "من دونه" ولما حذف "من دونه" مرتين حذف معه "نحن" لتطرد الآية في حكم التخفيف"[1] ووافقه ابن جماعة،[2] وأبو يحي الأنصاري[3] .

أما الغرناطي فقد كان له رأي آخر في سبب الاختلاف بين الآيتين يقول فيه: "إنه لما تقدم آية الأنعام قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾ وهذا إخبار عن بني إسرائيل فيما حرّم عليهم ثم ورد بعدها قوله تعالى ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ﴾. وهو خطاب لهم أيضاً فقد اكتنف الآية المذكورة ما مرجعه إلى بني إسرائيل فيما حرّم عليهم وما ألحقوه بذلك تحريفاً وتبديلاً ووردت الآية المتكلم فيها مورد ما يرد من الجمل الاعتراضية لاتصال ما بعدها بما قبلها، فلم يكن ليلائم ذلك الإسهاب وطول الكلام إذ الوجه فيما يرد اعتراضا أن يؤخر، وأما آية النحل فلم يتقدّمها خطاب لغير العرب مؤمنهم وكافرهم،

1)البرهان للكرماني، ص٦٨-٦٩.

2)انظر كشف المعاني، ص١٧٤.

3)انظر فتح الرحمن ص١٣٠.

وقد أطنب في تذكيرهم ووعظهم وقد بسط لهم ذكر نعـم ودلائـل، فناسـب ذلـك الإسهاب الوارد فيها، من قوله: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ ولم يكن ليناسب آية الأنعام ما ورد هنا، ولا الوارد هنا ذلك الإيجاز والله سبحانه أعلم"[1].

وعند الرجوع إلى المفسرين لم أجد منهم من تناول هذه الآيات بالتوجيه سوى أبي حيان في تفسيره والذي اتفق فيه مع الإسكافي والكرماني مع اختلاف يسير في العبارات. واختلف الإسكافي عن أبي حيان في أن توجيهه غلب عليه مراعاة الجانب النحوي حتى إنه في نهاية كلامه يقول: "فأفهمه فإنه من دقيق النحو"[2].

أما الغرناطي فقد أرجع الاختلاف في الآيات إلى الإيجاز والإطناب ، ومن الغريب أنه لم يلاحظ أو يشير إلى أن هناك فرقاً بين الشرك والعبادة ، ونجده كثيراً ما يشير إلى الإيجاز والإطناب في كثير من توجيهاته .

وأرى أن التوجيه الذي أخذ به أبو حيان هو الأقرب إلى الصواب.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ آية ٦٠ – الأعراف.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ آية ٦٦ – الأعراف.

يقول أبو حيان في الفرق بين قوله تعالى عن قوم نوح "الملأ من قومه" وعن قوم هود "الملأ الذين كفروا" وأنه أتى بوصف "الملأ" بـ "الذين كفروا" ولم يأت بهذا الوصف في قوم نوح، لأن قوم هود كان في أشرافهم من آمن به، منهم، مرثد بن

---

1)ملاك التأويل ج١، ص٤٧٨.

2)انظر درة التنزيل ص٥٦٠

سعد بن عفير، ولم يكن في أشراف قوم نوح مؤمن. ألا ترى إلى قوله: ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ آية ١١١ - الشعراء، وقولهم:﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴾ آية ١١١ - الشعراء. ويحتمل أن يكون وصفاً جاء للذم لم يقصد به الفرق" [١].

وقال في الفرق بين قوله "في ضلال مبين" و "في سفاهة" أنه لما كان كلام نوح لقومه أشد من كلام هود تقوية لقوله "أني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم" كان جوابهم أغلظ وهو "إنا نراك في ضلال مبين" وكان كلام هود ألطف لقوله "أفلا تتقون" فكان جوابهم ألطف من جواب قوم نوح بقولهم "إنا نراك في سفاهة".[٢]

نجد أن توجيه أبي حيان في الفرق بين قوله عن قوم نوح "الملأ من قومه" وعن قوم هود "الملأ الذين كفروا" موافق لتوجيه الزمخشري الذي يقول فيه: "فإن قلت: لم وصف الملأ بالذين كفروا دون الملأ من قوم نوح؟ قلت: كان في أشراف قوم هود من آمن به منهم، مرثد بن سعد الذي أسلم وكان يكتم إسلامه، فأريدت التفرقة بالوصف ولم يكن في أشراف قوم نوح مؤمن، ونحوه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾. ويجوز أن يكون وصفاً وارداً للذم لا غير"[٣].

وقد وافق الزمخشري كلٌّ من الرازي والنسفي[٤].

ويعترض الأنصاري على هذا التعليل فيقول: "ونقض بأنه تعالى وصف أيضاً الملأ من قوم نوح بالكفر في سورة هود. وأجيب بجواز كون هذا القول وقع مرتين، المرة الثانية بعد إيمان بعضهم بخلاف المرة الأولى"[١].

---

1)البحر المحيط، ج٤، ص٤١٥.

2)المصدر السابق، ج٤، ص٤١٥.

3)الكشاف للزمخشري، ج٢، ص٨٧.

4)التفسير الكبير للرازي ج١٤، ص١٢٦، تفسير النسفي ج٢، ص٨٧.

ويذكر الألوسي في توجيهه عدة أقوال. ومن ضمن تلك الأقــوال اعتــراض على أن هناك فرقا بين الآيتين من سورة الأعراف. فيقول: "واعترض المولى بهــاء الدين على تلك التفرقة بين القومين بأنه قد جاء في سورة المؤمنين وصف قوم نوح بما وصف به قوم هود هنا، فكيف تتأتى هذه التفرقة؟ وأجيب بأن الوصــف هنــاك محمول على أنه للذم لا للتمييز وإنما لم يذم ههنا للإشارة إلى التفرقة، وقال الطيبي: يمكن أن يقال إن الوصف هنا للذم أيضاً ومقتضى المقام يقتضي ذمهم لشدة عنادهم كما يدل عليه جوابهم بما حكاه الله تعالى من قولهم "إنا نراك في سفاهة"[٢].

ومما تقدم نجد أن الاعتراض الذي ذكره أبو يحي الأنصاري والألوسي كــان في محلِّه ، حيث وصف الملأ في قصة نوح عليه السلام بالذين كفروا فــي ســورة المــؤمنين قــال تعــالى: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ آية ٢٤ – المؤمنون. وفي سورة هود قــال تعــالى: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ آيــة ٢٧ – هود.

وأرى أنه من غير الصحيح أن يكون الكلام عن الآيتين من سورة الأعراف، والتي كانت إحداهما وصفاً لقوم هود بالذين كفروا وعدم وصف قوم نــوح بــذلك، وإنما الصواب ما ذكره الغرناطي في ملاك التأويل. حيث كان توجيهه يدور حــول الفرق بين الآية التي لم يوصف فيها قوم نوح بالذين كفروا وبــين الآيتــين اللتــين وصف فيهما قوم نوح بالذين كفروا في سورتي هــود والمــؤمنين ، ومممــا قالــه الغرناطي في توجيهه: "إن قوم نوح لما ذكر تعالى عنهم في سورتي هود والمؤمنين إساءة في جوابهم لنبيهم وإطالة في المرتكب حين قالوا في سورة هود: ﴿ مَا نَرَىٰكَ

---

1)فتح الرحمن بكشف ما يلتبس من القرآن ص١٤٢.

2)روح المعاني للألوسي ج٨، ص٥٣٤-٥٣٥.

إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ آية ٢٧ ، ٢٨ - هود.

فجمعوا في هذه الإطالة توهمهم مساواته عليه السلام فيما رآه البادي من البشرية والصورة الإنسانية، إلى استرذال أتباعه كما قالوا في الموضع الآخر "أنؤمن لك واتبعك الأرذلون"، وإلى التعامي عن فضله عليه السلام عليهم وظنهم كذبه ، وقد نزهه الله من ذلك كلّه، فإذا تأملت مجموع هذا استطلعت منه مكنون كفرهم ، ومثل هذا من غير فرق قولهم في آية سورة المؤمنين "ما هذا إلا بشر مثلكم" إلى قولهم "إن هو إلا رجل به جنَّة فتربصوا به حتى حين" فلإساءتهم فيما ذكر من الوارد عنهم في الموضعين وصفوا بالكفر فقال تعالى: "فقال الملأ الذين كفروا من قومه" فوصفهم بالكفر في السورتين، وأما آية الأعراف فقولهم فيها "إنا نراك في ضلال مبين" ليس كجوابهم في السورتين الأخريين، لا من جهة الطول ولا من جهة المعنى، لأن لفظ الضلال ليس بنص في الضلال عن الدين إلى أن يقول ــ "فلما لم يكن في الوارد في سورة الأعراف من الإطالة في العبارة والإبلاغ فيما قصدوه من المعنى مثل ما في السورتين ناسبه الإيجاز"[1].

فنلاحظ أن الغرناطي يرى أن الفرق بين الآية من سورة الأعراف والآيتين من سورتي هود والمؤمنين يرجع إلى سياق الآيات، ويرجع أيضاً إلى الإيجاز في الأعراف والإطناب في هود والمؤمنين في قصة نوح عليه السلام وما دار بينه وبين قومه من حديث .

ومن خلال ما تقدم من توجيهات أرى أنه من المرجح أن يكون وصفهم بالذين كفروا مبالغة في الذم لتكرار الحديث عن الملأ الذين كذبوا أنبياءهم ، فأحياناً يذمهم القرآن بالذين كفروا وأحياناً يحذف هذا الوصف للإيجاز لأن الكفر قد عرف

---

1)ملاك التأويل ج١، ص٥٢٣-٥٢٤.

عنهم وكان سمة لهم وكان في عهد كلّ نبي قوم قد كفروا به وكذبوه ، وقد رأى أبو حيان ذلك في توجيهه فقال: ويحتمل أن يكون وصفاً جاء للذم لم يقصد به الفرق.

وأيدّ ذلك ابن عاشور فقال: ولم يوصف الملأ هنا بالذين كفروا، أو بالذين استكبروا كما وصف الملأ في قصة هود بالذين كفروا استغناء بدلالة المقام على أنهم كذبوا وكفروا"[١].

وأما الفرق بين قوله تعالى "في ضلال مبين" وبين قوله تعالى "في سفاهة" فلم أجد من المفسرين أو علماء المتشابه من ذكر الفرق سوى الرازي في تفسيره والذي كان قريباً من تعليل أبي حيان وقد قال فيه "أنه تعالى حكى عن قوم نوح أنهم قالوا "إنا نراك في ضلال مبين" وحكى عن قوم هود أنهم قالوا "إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين" والفرق بين السورتين أن نوحا عليه السلام كان يخوف الكفار بالطوفان العام ، وكان أيضاً مشتغلاً بإعداد السفينة وكان يحتاج إلى أن يتعب نفسه في إعداد السفينة ، فعند هذا ، القوم قالوا "إنا نراك في ضلال مبين" ولم يظهر شيء من العلامات التي تدل على ظهور الماء في تلك المفازة ، أما هود عليه السلام فما ذكر شيئاً إلا أنه زيّف عبادة الأوثان ، ونسب من اشتغل بعبادتها إلى السفاهة وقلة العقل، فلما ذكر هود هذا الكلام في أسلافهم قابلوه بمثله ونسبوه إلى السفاهة ثم قالوا "وإنا لنظنك من الكاذبين" في إدعاء الرسالة"[٢].

1)التحرير والتنوير ج٨، ص١٩١.

2)التفسير الكبير للرازي ج١٤، ص١٢٦-١٢٧.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ آية ٦٢ – الأعراف.

وقوله تعالى: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ آية ٦٨ – الأعراف.

يقول أبو حيان: "وهناك جاء "وأنصح لكم" وهنا جاء "وأنا لكم ناصح أمين" لما كان آخر جوابهم جملة اسمية جاء قوله كذلك. فقالوا هم "وإنا لنظنك من الكاذبين" قال هو "وأنا لكم ناصح أمين"[1].

للفرق بين الآيتين المتشابهتين عدة توجيهات ، أولها: قول الإسكافي وهو أن قول نوح عليه السلام جواب من ضللّ ، لأنه قيل له "إنا لنراك في ضلال مبين" آية٦٠، وهود عليه السلام قيل له "إنا لنراك في سفاهة" آية ٦٦. والضلال من صفات الفعل ، والسفاهة من صفات النفس ، فكان جواب من عيب بفعل مذموم نفيه بفعل محمود، لا بل بأفعال تنفي ما ادّعوه عليه. فنفى الضلال بالأفعال التي ذكرت في سياق الآيات. وهود عليه السلام لمّا رُمي بالسفاهة وهي من الخصال المذمومة الثابتة وليست من الأفعال التي ينتقل الإنسان عنها إلى أضدادها في الزمن القصير مراراً كثيرة ، فكان نفيها بصفات ثابتة تبطلها أولى كما كان نفي الفعل المذموم بالفعل المحمود أولى[2].

أما الكرماني فقد اختلف مع الإسكافي في توجيهه فقال:" قوله "أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم" في قصة نوح. وقال في قصة هود: "وأنا لكم ناصح أمين" لأن ما في هذه الآية (أبلغكم) بلفظ المستقبل، فعطف عليه (أنصح لكم) كما في الآية الأخرى

1)البحر المحيط، ج٤، ص٤١٥.

2)أنظر درة التنزيل ج٢، ص٦٠٥-٦٠٦. بتصرف

" قد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم" آية ٧٩. فعطف الماضي، لكن في قصة هود قابل باسم الفاعل على قولهم له: "إنا لنظنك من الكاذبين"[1].

نجد الكرماني ينظر إلى الفرق من جهة اللفظ وليس من جهة المعنى.

أما ابن الزبير الغرناطي فتوجيهه قريب من الإسكافي إلا أنه أكثر وضوحاً ، ومما قال: "وإنما قال "وأنصح" ، "وأعلم" ليعلم تماديه على النصح لهم وهم لا يشعرون ولا يهتدون، وبإمداده بزيادة علومه بالوحي وهم عن ذلك في أشنع ضلال وأبعده ، فجمع عليه السلام فيما خاطبهم به رد مقالهم ورميهم بأكثر مما رموه به ، ورد ذلك عليهم بألطف رد وأبينه لمن وفق ، ونزه عليه السلام عبارته المخلصة لذلك على أتم الوجوه عن شنيع عبارتهم وقبح مواجهتهم ، أما جواب هود عليه السلام فقوله "أبلغكم" فجاء بالفعل المشعر بالتكرر والاستمرار قياماً بإبلاغ رسالته وحفظاً لأمانتها. وأتى في إخبارهم بنصحه وأمانته بالاسم فقال: " ناصح أمين" ولم يقل أنصح فيأتي بالفعل ليحصل منه أن ذلك الوصف الجليل لازم له غير مفارق ولم يكن الفعل ليعطي ذلك فجاء بالاسم وجعله الخبر عن ضميره الذي هو "أنا" فهذا مقصود ثابت الوصف"[2].

وعند النظر في كتب التفسير نجد الرازي يتفق مع الإسكافي والغرناطي ويرى أن الفرق يعود إلى صيغة اسم الفاعل وصيغة الفعل ، وأتى بتعليل موجز واضح يقول فيه:

"والفرق بين الصورتين أن الشيخ عبد القاهر النحوي ذكر في كتاب دلائل الإعجاز أن صيغة الفعل تدل على التجدد ساعة فساعة، وأما صيغة اسم الفاعل فإنها دالة على الثبات والاستمرار على ذلك الفعل. وإذا ثبت هذا فنقول: إن القوم كانوا يبالغون في السفاهة على نوح عليه السلام، ثم إنه في اليوم الثاني كان يعود إليهم

---

1)البرهان للكرماني ص٧٦.

2)انظر ملاك التأويل ج١، ص٥٢٧-٥٢٨.

ويدعوهم إلى الله، وقد ذكر الله تعالى عنه ذلك فقال "رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً" آية ٥ – نوح. فلما كان من عادة نوح عليه السلام العودة إلى تجديد تلك الدعوة في كلّ يوم وفي كلّ ساعة لا جرم ذكره بصيغة الفعل، فقال "وأنصح لكم" وأما هود عليه السلام فقوله "وأنا لكم ناصح" يدل على كونه مثبتاً في تلك النصيحة مستقراً فيها. أما ليس فيها إعلام بأنه سيعود إلى ذكرها حالاً فحالاً ويوماً فيوماً"(١).

وذهب إلى ذلك ابن عاشور فقال "أن نوحاً قال ما يدل على أنه غير مقلع عن النصح للوجه الذي تقدم وهود قال ما يدل على أن نصحه لهم وصف ثابت فيه متمكن منه، وأن ما زعموه سفاهة هو نصح"(٢).

ومما تقدم نلاحظ أن الاسكافي والغرناطي والرازي نظروا إلى الفرق من جهة الصيغة المستخدمة في التعبير عن اللفظ ، فالفعل الماضي "أنصح" وافق الفعل الماضي "أبلغكم" واسم الفاعل "ناصح" وافق اسم الفاعل "كاذب" فالفرق جاء من جهة البناء اللغوي، وليس من جهة المعنى. أما الكرماني وأبو حيان والأنصاري في فتح الرحمن (٣)فقد نظروا إلى الفرق من جهة الصيغة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴾ آية ١٠٩ – الأعراف.

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ ﴾ آية ٣٤ – الشعراء.

يقول أبو حيان في الفرق بين نسبة القول إلى فرعون في الشعراء وإلى ملئِه في الأعراف، "الجمع بينهما أن فرعون وهم قالوا هذا الكلام، فحكى هنا قولهم وهناك قوله. أو قاله ابتداء فتلقفه منه الملأ، فقالوه لأعقابهم أو قالوه عنه الناس على طريق التبليغ كما تفعل الملوك، يرى الواحد منهم الرأي فيكلم به من يليه من

---

1)التفسير الكبير للرازي، ج١٤، ص١٢٧.

2)التحرير والتنوير ج٤، ص٢٠٣.

3) أنظر فتح الرحمن ص ١٤٣ .

الخاصة ثم تبلغه الخاصة العامة ، والدليل عليه: أنهم أجابوه في قولهم "أرجـــه" آيــة ١١٢ – الأعراف"[١].

يجمع أبو حيان في توجيهه بين الآيتين وبين تعلق كلّ منهما بالأخرى فيــرى أن فرعون وهم قالوا هذا الكلام فذكر قولهم في آية الأعراف وقول فرعون في آيــة الشعراء ، أو أنه قال هذا الكلام ابتداء فتلقفه منه الملأ فقالوه لأعقابهم .

وأبو حيان في توجيهه هذا موافق للزمخشري الذي يقول في تفــسيره "وقــد عزي هذا الكلام إلى فرعون في سورة الشعراء وأنه قال للملأ وعزي ههنا إلــيهم ، قلت: قد قاله هو وقالوه هم فحكى قوله ثمَّ وقولهم ههنا، أو قاله ابتداء فتلقنه منه الملأ فقالوه لأعقابهم أو قالوه عنه الناس على طريق التبليغ كما يفعل الملوك يرى الواحد منهم الرأي فيكلم به من يليه من الخاصة ثم تبلغه الخاصة العامة، والدليل عليه أنهم أجابوه في قولهم "أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشــرين يــأتوك بكــل ســاحر عليم"[٢].

وقد أخذ بهذا التوجيه كلّ من البيضاوي[٣]، والرازي[٤]،.

أما علماء المتشابه اللفظي فأولهم الإسكافي الذي اعتمد فــي توجيهــه علــى ترتيب الاقتصاص فرأى "أن سورة الشعراء مكيــة كــسورة الأعــراف وترتيــب الاقتصاص يقتضي أن تكون قبلها ، وفي سورة الأعراف أخبر عما أدَّاه عنه ملــؤه إلى الناس، فكان قول فرعون للملأ حوله سابقاً قول الملأ الذين أدّوا إلــى غيــرهم قوله"[٥].

---

1)البحر المحيط ج٤، ٤٥٤.

2)الكشاف للزمخشري ج٢ ص ١٠٢

3)تفسير البيضاوي ج٢، ١٠١.

4)التفسير الكبير للرازي، ج١٤ /١٦٠ وينظر روح المعاني ج٣٢/٩. وملاك التأويل للنسفي ج٢ ص١٠٠

5)انظر درة التنزيل ج٢، ٦٤٩.

أما الكرماني فيرى "أن فرعون محذوف لاشتمال الملأ من آل فرعون على اسمه ، والقائل هو فرعون وحده بدليل وهو "قالوا أرجه وأخاه" آية ١١١ بلفظ التوحيد والملأ المقول لهم والتقدير "قال الملأ من قوم فرعون وفرعون بعض لبعض"[١].

ثم يأتي ابن الزبير موافقاً من سبقه في أن فرعون قال لملأه ولمن حضره ثم قال ذلك ملؤه لحاضريهم وبعضهم لبعض.

ثم يسأل عن وجه اختصاص كلّ سورة بما خصت به ، فينظر نظرة واسعة شاملة ودقيقة معتمداً على سياق الآيات فيذكر أنه لما تقدم آية الأعراف قوله تعالى: "ثم بعثنا من بعدهم موسى إلى فرعون وملئه" ناسب أن يذكروا في الجواب ، ولما تقدم في سورة الشعراء قوله: "فأتيا فرعون" ثم جرى ما بعد من المحاورة ومراجعة الكلام بين موسى عليه السلام وفرعون ولم يقع الملأ هنا ناسب ذلك قوله "قال فرعون" لأنه الذي راجع وخوطب[٢]. وأرى أن توجيه ابن الزبير قد تفوق على جميع التعليلات السابقة حيث إنه لم يكتف بالجمع بين الآيتين المتشابهتين وأن القول كان لفرعون في كلتيهما وإنما ذكر سبب اختصاص كلٍّ منهما بما اختصت به وأن ذلك راجع إلى سياق الآيات.

ومن ذلك قوله تعالى:﴿ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾آية ٦١ – النحل.

وقوله تعالى:﴿ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ آية ٤٥ – فاطر.

---

1)انظر البرهان ص ٨٠

2)انظر ملاك التأويل ج١ ٥٦١.

أشار أبو حيان إلى الفرق بين الآيتين فقال عند تفسيره لآية فاطر فقال: "وهناك "عليها" وهنا "على ظهرها" والضمير عائد على الأرض إلا أن هناك يدل عليه سياق الكلام وهنا يمكن أن يعود على ملفوظ به وهو قوله "في السموات ولا في الأرض" ولما كانت حاملة لمن عليها استعير لها الظهر كالدابة الحاملة للأثقال ، ولأنه أيضاً هو الظاهر بخلاف باطنها"[1].

اعتمد أبو حيان في تعليله على سياق الآيات. فحيث تقدم ذكر الأرض في سورة فاطر في قوله تعالى:﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ آية ٤٤. ناسب أن يعود الضمير على ملفوظ به ، وفي النحل يدل عليه سياق الآيات. وتعليل أبي حيان قريب من تعليل الكرماني الذي نظر إلى سياق الآيات فقال: "ولما كان كناية عن غير مذكور لم يزد معه الظهر لئلا يلتبس بالدابة ، لأن الظهر أكثر ما يستعمل في الدابة..... وأما في الملائكة فقد تقدم ذكر الأرض في قوله: "أو لم يسيروا في الأرض" وبعدها "ولا في الأرض" فكان كناية عن مذكور سابق فذكر الظهر حيث لا يلتبس"[2].

وعند الرجوع إلى كتب المتشابه نجد أن الإسكافي له توجيه مختلف ، حيث يرى أن الظهر لم يذكر في الآية الأولى لتقدم الظاء في المبتدأ بعد " لو" فلم يجمع بينهما في جملتين معقودتين عقد كلام واحد وهما ما بعد " لو" وجوابهما"[3].

وقد وافقه أبو يحي الأنصاري فقال: "ترك لفظ "ظهر" هنا احترازاً عن الجمع بين الظائين في ظهرها وظلمهم بخلافه في فاطر إذ لم يذكر فيها "بظلمهم"[4].

---

1)البحر المحيط ج٧ / ٤٢٣.

2)البرهان للكرماني، ص١١٣.

3)انظر درة التنزيل ص١٨٨.

4)فتح الرحمن ص٢٢١ وينظر كشف المعاني لابن جماعة من ٢٣٦.

أما ابن الزبير الغرناطي فقط نظر إلى طول الألفاظ وقصرها وجعلها سبباً في الاختلاف بين الآيتين فقال "وقيل "على ظهرها" ليناسب في طول تركيبه قوله "بما كسبوا" كما ناسب قوله "عليها" في الآية الأولى قوله "بظلمهم" في قلة حروفه تناسب التوازن والتقابل، فورد كلّ على ما يجب"[١].

وأخيراً نجد أن التوجيهات السابقة اعتمدت على الجانب اللفظي ولا تعارض بينها. وتوجيه أبي حيان جيد وحسن إلا أنه أشار إلى سياق الكلام ولم يوضح المقصود من ذلك والسبب في مجيء قوله "عليها" واكتفى بقوله "إلا أن هناك" أي في النحل. يدل عليه سياق الكلام"[٢]. وعند الرجوع إلى الآيات في سورة النحل نجدها تتحدث عن شؤم المعاصي وأثرها السيئ على مقترفيها وعلى غيرهم من الدواب والحيوانات. فكان سياق الآيات أشد وأغلظ فجاء قوله "عليها" دالاً على العموم. وقد أشار البقاعي إلى سياق آية النحل فقال "ولما اقتضى الحال ذكر الظلم. وكان سياق هذه الآية أغلظ من سياق فاطر عبر بما يشمل كل محمول على الأرض سواء كان على الظهر أو في البطن مغموراً بالماء أو لا فقال تعالى "عليها"[٣].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ﴾ الدخان: ٤٨ .

وقوله تعالى: ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ ﴾ الحج: ١٩ .

يكشف أبو حيان عن الفرق بين الآيتين من حيث التعبير بالحقيقة والتعبير بالاستعارة فيقول "والمصبوب في الحقيقة هو الحميم فتارة اعتبرت الحقيقة، وتارة اعتبرت الاستعارة لأنه أذم من الحميم ، فقد صب ما تولد عنه من الآلام والعذاب ،

---

1)ملاك التأويل ح٢/٧٤٤.

2)البحر المحيط ج٧/ ٤٢٣.

3)نظم الدرر ج٥/ ٤٧٤.

فعبر بالمسبب عن السبب لأن العذاب هو المسبب عن الحميم ، ولفظة العذاب أهول وأهيب"(١).

وتوجيه أبي حيان للآيتين قريب من توجيه الزمخشري الذي يقول "فإن قلت: هلا قيل صبوا فوق رأسه من الحميم كقوله تعالى "يصب من فوق رؤوسهم الحميم" لأن الحميم هو المصبوب لا عذابه ، قلت: إذا صبت عليه الحميم فقد صب عليه عذابه وشدته إلا أن صب العذاب طريقه الاستعارة كقوله: صبت عليه صروف الدهر من صبب، وكقوله تعالى أفرغ علينا صبراً. فذكر العذاب معلقاً به الصب مستعاراً له ليكون أهول وأهيب"(٢).

وللبيضاوي في تفسيره توجيه آخر يقول فيه " ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم" كان أصله يصب من فوق رؤوسهم عذاب هو الحميم للمبالغة، ثم أضيف العذاب إلى الحميم للتخفيف وزيد من للدلالة على أن المصبوب بعض هذا النوع"(٣).

ويقول ابن عاشور " فلما كان المحكي هنا القول الذي يسمعه الأثيم صيغ بطريقة التمثيلية تهويلاً، بخلاف قوله "يصب من فوق رؤوسهم الحميم" الذي هو إخبار عنهم في زمن هم غير سامعيه فلم يؤت بمثل هذه الاستعارة إذ لا مقتضى لها"(٤).

نظر أبو حيان إلى الفرق بين الآيتين من الناحية البلاغية فآية الحج جاءت على الحقيقة وآية الدخان جاءت على الاستعارة فالعذاب والآلام متولدة عن الحميم وهو "الماء الحار جداً الذي يصهر ما في بطونهم من اللحم والشحم والأمعاء، من

---

1)البحر المحيط، ج٨، ٥٧.

2)الكشاف، ج٣، ٥٠٦.

3)البيضاوي ج٤، ١٢٤، وينظر أبو السعود ج٥، ١٠٧.

4)التحرير والتنوير ج٢٥، ٣١٦.

شدة حرّه وعظيم أمره"[1]. فذكر المسبب وهو العذاب وعبر به عن السبب وهو صب الحميم.

فأبو حيان تنبه إلى الجانب البلاغي كغيره من المفسرين إلا أن كلامه كان فيه تفصيل أكثر، حيث أشار إلى التعبير بالمسبب عن السبب.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ الرحمن: ٢٧.

وقوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ الرحمن: ٧٨.

يبين أبو حيان السبب في اختلاف ختام الآيتين السابقتين بقوله: أنه تعالى لما ختم نعم الدنيا بقوله: "ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام" ختم نعم الآخرة بقوله" تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام" وناسب هنالك ذكر البقاء و الديمومة له تعالى، إذ ذكر فناء العالم وناسب هنا ذكر ما اشتق من البركة ، وهي النمو والزيادة ، إذ جاء ذلك عقب ما امتن به على المؤمنين. وما آتاهم في دار كرامته من الخير وزيادته وديمومته وياذا الجلال والإكرام من الصفات التي جاء في الحديث أن يدعى الله بها ، قال صلى الله عليه وسلم "ألظوا بياذا الجلال والإكرام"[2].

لم تذكر كتب المتشابه كلاما حول هاتين الآيتين الكريمتين وما بينهما من تشابه واختلاف ، أما في كتب التفسير فقد ذكر الرازي كلاما مختصرا يقول فيه :

"إنه تعالى لما ختم نعم الدنيا بقوله تعالى "ويبقى وجه ربك ذو الجلال و الإكرام" ختم نعم الآخرة بقوله: "تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام" إشارة إلى أن الباقي والدائم

---

1)تفسير السعدي، ٨٧٧.

2)البحر المحيط، ج٨، ٢٨٤.

لذاته هو الله تعالى لا غير والدنيا فانية ، والآخرة إن كانت باقية لكن بقاءها بإبقاء الله تعالى[١]. وما ذكره أبوحيان قريب من توجيه الرازي وهو وجيه ومقبول ،

ففي الآية الأولى بعد ذكر نعم الدنيا وفناء العالم وانتقالهم إلى دارالجزاء يبقى وجه الله ذو العظمة والكبرياء ، وفي الآية الثانية تسبيح باسمه الجليل المتفضل على عبادة في الدار الآخرة بإنعامه عليهم .

كان هذا هو آخر المواضع الذي تحدث فيها أبو حيان عن الآيات المتشابهات في تفسيره ، وقد كانت هذه المواضع التي وقف معها مستجلياً بلاغة القرآن كفيلة بإبراز جهده المتميز في بيان أسرار القرآن في الآيات المتشابهات .

---

1)التفسير الكبير للرازي، ج٢٩، ١٢٠.

الخاتمة

الحمد لله حمد الشاكرين، والصلاة والسلام على سيد الأنبيـــاء والمرســـلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد.

في نهاية هذه الرحلة التي صحبت فيها آيات كتاب الله الكريم الذي لا تنتهـــي عجائبه ولا تفنى غرائبه، والتي عشت فيها مع كتب علماء أجـــلاء بـــذلوا جهـــدهم وفكرهم في تأليف مصنفات عظيمة عنيت بالمتشابه اللفظي فـــي القـــرآن الكـــريم، ورجعت فيها إلى كتب التفسير التي اهتمت بهذا الجانب من البلاغة، والذي يعدّ أحد أسرار كتاب الله تعالى، يمكنني أن أجمل أهم النتائج التي توصلت إليها في دراستي بما يأتي:

- يعدّ كتاب درة التنزيل وغرة التأويل من أقدم الكتب التـــي وجهـــت الآيـــات المتشابهة واعتمد عليه كلّ الذين صنفوا بعده، سواء أشاروا إليه كالكرمـــاني وابن الزبير، أو أغفلوا ذكره كابن جماعة والأنصاري وغيرهم.
- من أبرز كتب المتشابه اللفظي في اختصار توجيه الآيات المتشابهة كتـــاب البرهان للكرماني، ومن أفضل الكتب التي توسعت وفـــصلت فـــي مـــسائل المتشابه كتاب ملاك التأويل.
- لم يوجه أبو حيان جميع الآيات المتشابهة لفظاً في تفسيره وإنما وجه جـــزءاً منها، وهناك آيات متشابهة اختلف في توجيهها عن توجيه من سبقه.
- يورد أبو حيان في بعض المواضع توجيهين أو أكثر للآيتـــين المتـــشابهتين، وفي بعض المواضع يكون توجيهه مختصراً جداً، وحين يجمع التوجيهـــات في موضع واحد يجعل القارئ لتفسيره يتأمل ويقف أمام كل هذه التوجيهات التي تدل على أسرار كتاب الله التي لا تنفد.

- كان لأبي حيان لفتات بلاغية في ثنايا تفسيره، وكان له قدرة تتميز بدقة النظر وغزارة العلم، ولم يغفل في كثير من المواضع إلى الإشارة والتنبيه للآيات المتشابهة لفظاً، وكان يبرز ما وراء تلك الآيات من أسرار خفية ومقاصد بلاغية.
- كشف البحث مسألة التأثير والتأثر بين علماء المتشابه والمفسرين، ظهر فيه قدرات العلماء العلمية واللغوية الواسعة التي كان لها أعظم الأثر في تميّز كتبهم وتفاسيرهم.
- أظهر البحث جهود المفسرين في توجيه الآيات المتشابهة كالزمخشري والرازي والنسفي والبيضاوي والألوسي وابن عاشور.
- هناك آيات متشابهة لم أعثر على توجيهات لها غير التي ذكرها أبو حيان.

هذه أبرز النتائج التي ظهرت في البحث أسأل الله الكريم أن يكون هذا البحث إسهاماً مني في الكشف عن جانب من جوانب الإعجاز في كتاب الله الكريم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفهارس

فهرس المصادر والمراجع

- الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي، تقديم وتعليق الأستاذ: محمد شريف سكر، دار إحياء العلوم، بيروت ط٣، ١٤١٦هـ.
- الأدب في العصر المملوكي ، محمد زغلول سلاّم ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، بدون ت _ ط
- أساس البلاغة للزمخشري، تحقيق الأستاذ: عبدالرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- ابن أبي الإصبع المصري وجهوده في المتشابه القرآني، د. يوسف بن عبدالله الأنصاري.
- الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ ، دراسة تحليلة للإفراد والجمع في القرآن للدكتور / محمد الأمين الخضري .
- الأعلام لخير الدين الزركلي، دار العلم، للملايين، الطبعة الرابعة، ١٩٧٩م.
- الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، شرح وتعليق: د/ محمد عبدالمنعم خفاجي، الطبعة الثالثة، دار الجيل، بيروت، ١٤١٤هـ.
- البحر المحيط لأبي حيان، تحقيق: د/ عبدالرازق المهدي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
- بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- بديع القرآن لابن أبي الأصبع المصري، تحقيق: حفني محمد شرف، نهضة مصر.
- البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، تحقيق: عبدالقادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٦هـ.

- البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم المكتبة العصرية، بيروت.
- بصائر ذوي التميز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروز آبادي، تحقيق: عبدالعليم الطحاوي، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان.
- بغية الوعاء في طبقات اللغويين والنحاة لجلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت.
- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار التراث، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ.
- التحرير والتنوير للإمام محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس.
- تذكرة الحفاظ ، للحافظ الدمشقي، دار الكتب العلمية ، بيروت ، بدون ط ، ت
- التطور النحوي في اللغة العربية، د. رمضان عبدالتواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.
- التعبير الفني في القرآن الكريم، د. بكري شيخ أمين، دار الكتب العلم للملايين ، ط٦ ٢٠٠١ م
- التعبير القرأني، د. فاضل صالح السامرائي، دار عمار، الطبعة الرابعة، ١٤٢٨هـ.
- تفسير البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لناصر الدين البيضاوي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان.
- تفسير السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للعلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي، دار الذخائر، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ.
-

- تفسير أبي السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتــاب الكــريم، لأبــي السعودي العمادي ، دار الفكر ، لبنان ، بيروت ، ١٤٠٢هـــ.
- تفسير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، لأبي جعفــر الطبــري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- التفسير الكبير، مفاتيح الغيب، للفخر الرازي، دار الكتب العلمية، بيــروت، لبنان.
- تفسير النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، للإمام عبــدالله النــسفي، دار النفائس، الطبعة الثانية، ١٤٢٧هـــ.
- التوجيه البلاغي للمتشابه اللفظي عند الخطيب الإسكافي، رسالة ماجــستير، للطالب عائض الحربي ، جامعة الملك عبد العزيز ، ١٤٢٧هــ
- توحد المضمون وتبدل النسق في القرآن الكريم ، دراسة في القيم البلاغية ، د/ صفوت عبدالله الخطيب ، دار آتون _ القاهرة _ ط٢ ١٨٨٩ م
- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، للدكتور عبــدالعظيم المطعنـــي، مكتبة وهبة الطبعة الأولى، ١٤١٣هـــ.
- درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي، تحقيق: خليل مأمون شــيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هــ.
- درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي، تحقيق: محمد مصطفى آيدين، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هــ.
- دلائل الإعجاز لعبد القاهرة الجرجاني، تحقيق: محمود محمــد شــاكر، دار المدني، جدة، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هــ.
- الدليل الشافي على المنهل الصافي، جمال الدين أبي المحاســن بــن تعــزى بردي، تحقيق: فهيم شلتوت، مكتبة الخانجي، القاهرة.

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي، تحقيــق: د. السيد محمد السيد وسيد إبراهيم عمران، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٦هـــ.
- رياض الصالحين للإمام أبي زكريا يحيى بن شــرف النـــووي ، تحقيــق : شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، ط ٢٣ ، ١٤١٧هـــ .
- زيادة الحروف بين التأييد والمنع وأسرارها البلاغية في القرآن الكـــريم، د. هيفاء فدا ، دار القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـــ.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب للمؤرخ الفقيه أبي الفلاح عبـــدالحي بـــن العماد الحنبلي، دار المسيرة الطبعة الثانية، بيروت.
- شروح التلخيص مجموع فيه خمسة شروح على تلخيص المفتـــاح للخطيـــب القزويني، دار الكتب العملية، بيروت.
- طبقات الشافعية لعبدالرحيم الأسنوي، دار العلوم، ١٤٠١هـــ.
- العبر في خبر من غبر للحافظ الذهبي، تحقيق: محمد السعيد بـــن بـــسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـــ.
- فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن للأنصاري، تحقيق: محمـــد علـــي الصابوني، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـــ.
- كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، تحقيق: على محمد البجاوي ومحمـــد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، الطبعة الثانية.
- الكتاب لسيبويه، : عبدالسلام هارون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجـــوه التأويـــل لجـــار الله الزمخشري، دار الفكر.

- كشف المعاني في المتشابه المثاني لبدر الدين بن جماعة، تحقيق: مـــزروق على إبراهيم دار الشريف، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـــ.
- متشابه القرآن العظيم لأبي الحسن أحمد بن جعفر بـــن المنـــادي، تحقيـــق: عبدالله الغنيمان، الجامعة الإسلامية، المدينـــة المنـــورة، الطبعـــة الأولـــى، ١٤٠٨هـــ.
- المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، وأسراره البلاغية، د. صـــالح الـــشثري، مجمع الملك فهد، المدينة المنورة، ١٤٢٥هـــ.
- معاني النحو، الدكتور فاضل الـــسامرائي، دار الفكـــر، الطبعـــة الرابعـــة، ١٤٣٠هـــ.
- معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـــ.
- معجم مقاييس اللغة لابن فارس، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الجيل.
- مغني اللبيب لابن هشام، تحقيق: محمد محـــي الـــدين عبدالحميـــد، مطبعـــة المدني، القاهرة.
- مفتاح العلوم للإمام أبي يعقوب السكاكي، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتـــب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـــ.
- المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الأصفهاني، تحقيـــق: محمـــد ســـيد كيلاني مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الأخيرة، ١٣٨١هـــ.
- من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم ، (الفاء و ثم) محمد الأمـــين الخضري ، مكتبة وهبة ، ط١ ،١٤١٤هـــ
- من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية ، محمد الأمين الخـــضري _ ١٤١٤هـــ

- من بلاغة المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، محمد الصامل، دار إشــبيليا، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- المنهج البلاغي لتفسير القرآن الكريم، حسن مسعود الطوير، دار الملتقــى، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
- ملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي ، تحقيق : سعيد الفــلاح ، دار الغــرب الإسلامي ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٤٠٥هـ
- نتائج الفكر في النحو لأبي القاسم عبدالرحمن بن عبدالله السهيلي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتب العلمية، بيــروت، لبنــان، الطبعــة الثانيــة، ١٤٢٤هـ.

فهرس الموضوعات